في الشخصية الثقافية العربية
مقوّمات و مخاطر

علي عقلة عرسان

تبنى المؤتمر الدولي للسياسات الثقافية الذي عقد في المكسيك تعريفاً شاملا للثقافة ينص على « ان الثقافة بمعناها الأوسع هي مجموع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية الخاصة التي تميز مجتمعاً بعينه أو فئة اجتماعية بعينها ، وانها تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة والانتاج الاقتصادي ،كما تشمل الحقوق الأساسية للانسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات . »(١)

ومجموع هذه السمات التي تكون الشخصية الثقافية لأمة أو لشعب أو فئة لا تتضح في كيان متمايز مستقل الا بمرور الزمن وبتأثير عوامل تكوين أو قل مقومات عديدة ، وبخوض تجارب في الحياة ، ومع الكون والطبيعة والبيئة تتراكم الخبرة لدى الانسان ، وتكون تاريخه الحي الذي تستقرئه الأجيال وتستقي منه الدروس ، وتقيم في ظل المعرفة المستقاة تيار وعي وأسلوب تعامل وتفاعل مع الأحداث والأحياء ومعطيات الحياة ، مع متغيراتها وثوابتها ، وتترسب مع مرور الزمن ثوابت معرفية على شكل عادات وأعراف وتقاليد ومعتقدات ، لا تغيرها الا ثورات (معرفية على الخصوص) وعقائد تكتسب في المجتمع مفهوم الثورات التي تستند الى قيم وتسعى الى اشادة صروح قيم وحضارات على أسس أقرب الى الثبات ولكنها لا تتعارض كلياً مع التكوين العام للشخصية الثقافية للأمة أو للشعب أو للجماعة ، والا دخلت في حيز الاستلاب والامحاء ، أو في صراع قد يكتب لها فيه البقاء .

وفي لقاء الثقافات الذي يتم فيه امتزاجها أو تفاعلها ، تبرز قوة الشخصية الثقافية على التأثير والبقاء ، على الأخذ والعطاء ، والقوة في هذا المجال لا تعني تقوقعاً وانغلاقاً وانما تتبدى في الأخذ والتمثل دون امحاء ، وفي العطاء دون تعال وتسلط ومحاولات اذابة . على أن الاعتداد بما لدى كل ثقافة وبمدى تأثيرها في الثقافات الأخرى قائم ومشروع ، والتوجه نحو التأثير في الآخرين بهدف كسبهم واقناعهم أو حتى الظهور عليهم من الأمور التي برهنت عليها حيوية اللقاء والحوار بين الثقافات، وهذا بدهي في مضمار التواصل الانساني على صعيد الأفراد والجماعات البشرية .

والثقافات تتفاوت عمقاً وشمولا وقوة وأصالة وقدرة على الصمود في معترك لقاء الحضارات أخذاً وعطاء ، تمثلاً ونبذاً ، دون امحاء يلغي الذات أو عقد تضخمها . ويقول الهنود ان ثقافتهم أكثر الثقافات تعدد مكونات وروافد ، وأكثرها تمثلا لما تاخذه من الغير دون أن تضيع ملامحها ،

١ ـ اعلان مكسيكو بشان الثقافة الفقرة /٤/ ص ٢١٨ من النص العربي .



وقد عبر عـن ذلك الهنـدي « اتريا » حيث قـال« الثقافة الهندية ، لا تعارض التاثيرات الأجنبيـة ولا تخشاها ، بل عكس هذا هو الصحيح ، فلقـدعرفت الثقافة الهندية خلال العصور كيف تقـوي نفسها بتمثل خـير ما في الحضارات الأخـرى التي اتصلت بها من عنصر ثمين ٠ »(٢) ٠

واعتراف الثقافة الهندية بالثقافات الأخرى واعتمادها على احترام الآخـرين وثقافاتهـم ، وانطلاقها من نظرة ثاقبـة الى كون الثقافـة هي المعرفة العميقة بالانسان والكون ، وان المثقف هو ذلك الذي يملك تلك المعرفة والذي « خضع لنظام تفرضـه الأخـلاق »(٣) جعلهـا تبـدو من أكثـر الثقافات انفتاحا وديمومة وقدرة على التمثـل ، وان كانت عند مكوناتهـا وروافدها تجمـع شتات ثقافات جماعات وشعوب ، ولكن السمة النهائيـة العامة لهذه الثقافة تتصل ببيئة هي الهند وبانسان يمت الى تلك البيئة ، حتى الثقافة العربية الاسلامية التي تميزت بقوة شخصيتهـا ودخلت الهنـد بمهابة وصلابة ونظر اليهـا الهنود بعـداء ، لأن الاسلام لم يقر ما هم عليه من عبادات ، حتى هـذه الثقافة عرفوا كيف يستفيدون منها دون أن يمحي وجودهم امامها فتعايشوا معها ووسموها بميسمهم في بلادهم ووسمتهم هي بميسمها ٠

ونظرة الشرق وشعوبه الى الثقافات وأسلوب التعامل والتفاعل معها ، يختلف من بلد الى بـلد ولكن له سمة عامة هي سمة الشـمول الانسـاني والاعتراف بالآخر وبقيمة نظرته ورؤياه في الحياة. ويظهر ذلك في أسلوب استيعاب الصين « لهجمات » الآخرين من حملة السمات الثقافية الأعلى والأدنى٠ واذا تأملنا القـول الذي يسوقـه المفكـر الصيني شيه هسـيانـغ شـين Shih-Hisiangchen « **الثقافة ضد القوة العسكرية** » لأدركنا بأي أسلوب دافعت الصين عن ثقافتها وعن شخصيتها الحضارية وصمدت للغزاة ، ولفهمنا تاريخ الصين في قـرون عديدة ، وربما استعدنا في ضوء هذه المقولة تلـك العلاقة الفريدة في التاريخ بين (غالب ومغلوب) بين أثينا وفاتحيها الرومان ، حيث تمكن الفكـر اليوناني والثقافة اليونانيـة من احتلال العقـل الروماني في حين احتل جيش الرومان أرض أثينا وازالوا سلطة حكومتها ٠

واذا ألقينا نظرة سريعة على الأنموذج الأوربي للتعامل والتواصل الثقافي ، وكذلك الى وليده الأنموذج الأميركي ، لوجدنا أن النظرة وأسلوب التواصل والتعامل كـل ذلك يختلف عن الأسـلوب الشرقي ، فهم لا يرون في الآخرين الا متخلفـين ، ولا ينظرون باحترام الى شخصياتهم الثقافيـة ، ويجدون فيما تركوا مشاريع للاستثمـار قابـلة للقولبة والاستلاب٠ ورغم أن الأميركي جون سمرفيل Jonon Somerville يسـوق رأيـاً بانتشـاء وانفتاح وادعاء انساني عريض ، الا أننا نشتم من هذا القول تلك الروح الاستعمارية الاستثماريـة الاستلابية التي أشـرت اليها ٠ يقـول سمرفيـل « ان كل انسان هو أميركي ممكن ولو لم يكن في هذا الرأي شيء من الحقيقة لما كان هناك أميركا على الأرجح ، اذ أن أصولنا مختلطة اختلاطاً شديداً ، واضيف في الحال قائلا انه ليس ضرورياً ، حسـب رأيي أن يصبح كل انسان أميركياً ٠ غير أني أرى بوادر **ظاهرة عالمية ذات طابع أميركي جلي** ، هـذه الظاهرة هي أن أكثرنا هنا لا يجدون أي اعتراض مبدئي على أن يصبح أي فرد واحداً من الأميركيين خلال فترة قصيرة ٠ »(٤)

ورغم أن هذا القول ينطوي على امكانات فهم أخر يبنى على محاولة النظـر الى الكاتب وهـو يظهر البنية السكانية للولايات المتحدة الأميركية ، والى وجود مكونات ثقافيـة أو بالأحرى ثقافـات متنوعة في وحـدة جغرافيـة أو حكوميـة ، الا ان خلفيات هذا القول نفسياً واجتماعياً وتوجهاً توسعياً تنطوي على دفاع عن نقص يحسـه الأميركـي في شخصيته الثقافية المتماسكة ، ونزوع الى تقويض هـذا النقص باحساس بالقوة أو التعالي يتجسدان في رغبة رؤية العالم أميركياً أو في امكان أن يصبـح

---

٢ ـ أصالة الثقافات ص ١٣٩ ترجمة حافظ الجمالي ، مراجعة د٠يوسف مراد ـ منشورات الادارة العامة للثقافة ـ وزارة التعليم العالي ـ القاهرة عام ١٩٦٣ من بحث كتبه : ب٠ل٠ أتريا ٠

٣ ـ المصدر السابق ص ١٤١ ٠

٤ ـ أصالة الثقافات ص ٢٥٨ ٠ جون سمرفيل ـ ملاحظات حـول ثقافة الولايات المتحدة الأمريكية ٠



كذلك • ومنهج منطق العلم والتفكير الذي يضع حقائق التاريخ ويضع الآخرين أيضاً ضمن مقومات تكوين الرأي أو الحكم ، يفترضان أو يقتضيان عكس ما ذهب اليه سمرفيل مع التسليم بحسن نيته، كان الأولى أن يشير الى الفسيفساء التجمعية للروافد أو المقومات العالمية التي تلتقي على أرض أميركا كجغرافيا ، لا كشخصية ثقافية وحضارية لها وجود فعال عبر التاريخ ، ونمو مستقر المنابع•

ربما كان القول بوجود عناصر ثقافية ، وموروثات حملها المهاجرون في جماجمهم من ثقافات وحضارات شعوبهم ، وكذلك بقايا ثقافة لجماعات الهنود الحمر الذين أبادهم المهاجرون الأوربيون وفي مقدمتهم مهاجرون بريطانيون أتوا بهدف الربح والتجارة والاستعمار ، ولم ينبتوا في أرض تلك البلاد ولم تنغرس جذورهم فيها وتنمو انغراس ونمو جذوع الشيح ، أقول ربما أمكن القول بوجود هذه العناصر لثقافة ما زالت لم تتضح سماتها • وما يهمني من اقتطاف قول سمرفيل والتوقف عنده هو هذا الاتجاه العام الذي يشعرنا به الأوربيون والأميركيون والذي تجسد في أفعال وممارسات ضد الثقافات والشعوب التي استعمروها واضطهدوها، وضد الثقافات الأصيلة التي احتكوا بها ، خاصة في الوطن العربي وفي آسيا وافريقيا •

ولقد كان وما زال الحقد والمقت يحركان العقل واليد والأداة الأوربية والأميركية للسيطرة على الثقافات الأخرى أو تشويهها •

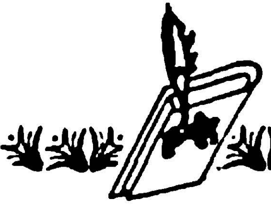
وأكثر ما يتجسد ذلك ويزداد شراسة مع الثقافة العربية الاسلامية • وقبل أن أشير الى شيء من ذلك أود أن أقف عند مقومات الشخصية الثقافية العربية قليلا •

أول ما يبرز من مقومات الشخصية الثقافية العربية « اللغة العربية » حيث استوعبت وتستوعب معطيات التجربة الفردية والجماعية العربية عبر التاريخ ، وحفظتها ومكنت من تطويرها ، وعبّر بواسطتها العربي عن شواغل الفكر ، وتأملاته في الكون وتفسيراته للوجود ، وعن تعامله مع الشعوب ومع الطبيعة بما فيها من أشياء وجمادات وأحياء وبما توصل اليه من قوانين وصيغ نتيجة تجربته معها ومعايشته لها وعيشه فيها •

واللغة العربية تملك فرادة التوصيل البديع المستمر المستوعب عبر التاريخ العربي كله ، ففي الوقت الذي نجد فيه في الصين والهند واليابان لغات وثقافات تمازجت لأقوام اختلطت فكونت دولة، ونجد في أوربا لغات حملت حضارات وماتت وأعقبتها لغات أخرى قد لا يفهم مدلول كلماتها بين قرنين متتاليين الا بالتراجم والمعاجم ، وكذلك شعوباً تجمع في دولة قد تبلغ لغاتها الثمانين لغة تفرض عليها كلها لغة تفاهم وتعليم مشتركة لا تنضج ثقافة واحدة وان قدمت نوايا وشعارات ، ولهجت بمنطق ثقافة غازية لتلك اللغات • في حين نجد ذلك كله في العالم • نجد لغتنا العربية متمايزة ومتفردة في حمل ثقافة وحضارة لأمة واحدة عبر قرون طويلة وقد حفظت هذه اللغة بفضل القرآن الكريم وما زالت •

والعربية حملت وتحمل معارف العرب وتجاربهم وحافظتهم التاريخية منذ الجاهلية ، واللهجات التي انقرضت سابقاً في الجاهلية الأولى أو الممالك المتناهية في القدم تلك التي حملت معظم الحضارات السامية ، أفرغت حمولتها الحضارية في اللغة الأم الباقية ، وحضارات الساميين باللغات أو قل الخطوط التي كتبت فيها تشير الى مراحل تطور اللغة العربية وبالتالي تكون مقومات الشخصية الثقافية ، التي تحمل اللغة منها أشياء ، وتتواجد في أعراف الناس وتقاليدهم وعقائدهم وقيمهم وكذلك في آثارهم وموروثهم مقومات منها متواصلة ومتنامية على نحو ما • فلدينا اليوم عادات وتقاليد وقيم وربما آثار اعتقاد كانت سائدة في الجاهلية •

والمقوم الثاني للشخصية الثقافية العربية هو الاسلام الذي أسست به وعليه المعتقدات والقيم والعلاقات، وارث طويل من الانتاج الأدبي والفكري والفني ، وكذلك علاقات الناس وضوابط تعاملهم، وفلسفات تأملهم للحياة والطبيعة والكون ، والتي ما زالت هي مرتكزات تكوين الفرد وقيمه وتفكيره وعناصر توجيه معرفته وسلوكه • والاسلام ذلك النبت العربي الذي غرسه العرب في أرجاء الأرض



وسقوه دماً حتى زكا ونما وساد فعزوا به وعز بهم، هو المحور الرئيس من مكونات ومقومات الشخصية الثقافية العربية ·

وتأتي عوامل مساعدة ليست هامشية ، وانما هي مكملة لهذه الشخصية تتجلى في طبيعة العربي الفرد ومزاجه وعواطفه وعاداته وارتباطه بالجماعة ، وما توارثه عبر التاريخ من خبرة وعادات وأصول هذبها في ضوء الاسلام أو أقحمها عليه ،وأدخلها عن طريق اللغة أو سواها لتحتل مكان النفس أو جزءاً منها في تلك الشخصية التي يمكن أن يكون لها من ذلك كله رؤيا في الوجود وللوجود تتطور فيه وتحاول ان تخضعه لمنطقها ، وترى الحياة من خلاله وتوظف الجهد والزمن والمعطيات فيها توظيفاً ملائماً لتلك الرؤيا أو مبنياً عليها ·

والشخصية الثقافية العربية بعواملها تلك وبما قدمه لها التاريخ من وعي وعبر، وبما استندت اليه من منطق مع الأيام ، وبما حققته عن طريق انتصارات الأمة : عسكرياً واقتصادياً ، وعلمياً واجتماعياً وثقافياً ·· هذه الشخصية التي أبدت تماسكاً كبيراً وقوة تأثير ملحوظة أثناء لقائها بالثقافات الأخرى وصمدت لهجمات شرسة وخرجت منها سالمة (هولاكو ـ الصهيونية) جعل الآخرين ينظرون اليها نظرتهم الى خطر يدنو منهم ·

وكان للاحتكاك الذي ولدته مع بيزنطة ، ومن ثم مع أوربا على وجه الخصوص ، وللتأثير الكبير الذي حملته ، وكانت عندها تحمل قوة الحضارة الأعلى والانسان الأعلم والأرقى في المجالات جميعاً وعلى الصعد جميعاً ـ لنتذكر العصور الوسطى في أوربا ـ كان لذلك تأثير على السكان وعلى الشخصية الثقافية لهم وخاصة جانبها الروحي والمادي · فحملت أوربا ضغنها على هذه الشخصية وبدأت هجومها المرافق لحملاتها العسكرية منذ أول حملة صليبية دعا اليها (بيوس) حتى يوم الناس هذا · ودعاة الحملات فيهم سياسيون وغير سياسيين ·

وكان حقد الغرب على الشخصية الثقافية العربية يتجلى دائماً بعنف وشراسة موجهاً الى : الدين ـ اللغة العربية ـ تماسك الأمة في وحدة ـ والى التراث والقيم الأخلاقية ـ وتماسك مقومات شخصية الفرد والجماعة ·

والتأمل البسيط في ممارسات الاستعمار الأوربي للوطن العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين تقودنا الى الحقائق التالية :

- **تمزيق الوطن العربي وتوازع النفوذ الاستعماري على أرضه وشعبه هذا ما فعلته : فرنسا وبريطانيا وايطاليا · وتم تقسيم جغرافي وسكاني يخدم التمزق ويرمي الى اضعاف القوة عن طريق ضرب الوحدة والتواصل واشاعة الجهل·**
- محاولة الحاق أجزاء من الوطن : الجغرافيا والسكان بالبلد المستعمر ، وتمهد لذلك وتتبعه عمليات عديدة في مقدمتها : تغيير اللغة والقضاء على اللسان العربي (الجزائر ـ المغرب ـ تونس ـ ليبيا) ـ اضعاف قيم العقيدة والدين والقيم الأخلاقية ـ اشاعة الأمية والجهل ـ افقار السكان وابهارهم بما هو وارد من الوطن « الأم » أو بما يقوله ويعرفه ويتصرفه ويلبسه القادم من البلد « الأم » والمنتمي اليها ·
- **قطع الصلات بين السكان الواقعين تحت الاستعمار في القطر الواحد واقامة دويلات لهم وخلق مشكلات يتنازعون فيها (سورية ـ لبنان) وقطع صلاتهم بوسطهم الثقافي العام « عربي واسلامي » ·**
- شن حملات التشويه والتزييف على التراث واللغة والحضارة العربية واشاعة عدم الثقة بذلك وتسريب الشعور بدونية تلك الثقافة ومقوماتها، وبعجزها ـ وعلى الأخص اللغة ـ عن أن تنقل انساناً الى مستوى حضاري ما ، وعجزها التام عن نقل المعرفة والعلم على الخصوص · والحاق الاهانة بناطقها ·



ـ تشجيع البدع الدينية والمشعوذين وتنصيب الجهلاء والامعات أئمة لتسود العقول غباوة وتغلفها غشاوة فتذبل الارادة وتبطل منها الاستفادة، يسلم الناس لذلك القوي القادر وينتمون اليه ،

معتبرين ما كان لهم من حضارة أو عز أو ثقافة شيئا من التاريخ مرّ وانقضى وطواه النسيان ، ومن الأفضل عدم نبش التراب عنه ٠

ـ خلق النزاعات الطائفية وتشجيع الروح القبلية وخرق كل ما هو أهل للتقديس والاحترام من عادة او قيمة أو عرف أو عقيدة ومن شان ذلك كله ضرب القيم العليا والأخلاق وتماسك البشر تلك التي ترسخها الثقافات أول ما ترسخها وتقيم على تماسكها أسس الشخصية الثابتة ٠

وفي ظل هذا التآكل على الصعيد الفردي والجمعي ، على صعيد الاقليم والوطن ، الجماعة والأمة ، يحقق الغازي ما يريد من أطماع اقتصادية وعسكرية وسياسية واجتماعية وثقافية ٠

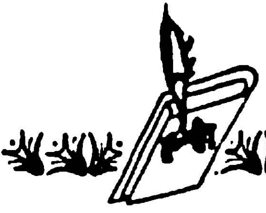
والغزو كما نعرف جميعاً فعل قوة ضاق بها محيطها فخرجت من بيئتها متجاوزة ذلك المحيط اما لسد ضرورات أو لتحقيق طموحات ٠ وهذا الفعل فعل بشري جماعي بصفة عامة ينزع اليه نظام أو شعب مستخدماً طاقاته وقدراته العسكرية والثقافية لتحقيق غاياته ٠ ولا تخرج تلك الغايات عادة عن استعمار أو استثمار ، وقد تكون في حالات استثنائية ، ارواء لشعور متضخم بالتفوق أو بالعظمة ، يأخذ سبيله الى الارتواء باخضاع الآخرين ٠

والسائد بعد أن تبرز الأطماع ويمهد لها ،أن يتم الغزو أولا باستخدام القوة العسكرية التي تعلي راية وقرار الغالب فوق أرض المغلوب ، ومن ثم تحاول أن تقهره وتفقده الثقة بنفسه وبقدرته على تجاوز ما هو فيه وتحقيق غلبة على غالبه ،وبالتالي تيئيسه من امكان تحقيق تفوق منقذ ٠ وبعد انجاز مرحلة تفوق القوة التي تؤدي الى احتلال الأرض والحصول بالقوة على ثروات الغير وجهدهم ، تأتي مرحلة احتلال الارادة ، آخر معاقل مقاومة الشخصية لكيان غاز أو لرغبة مفروضة أو مرفوضة ٠ واحتلال الارادة يعني احتلال الشخصية والتوطن فيها من الداخل وتسييرها لخدمة مصالح ورغبات وارادة الأقوى ، وهذا لا يتم دون اضعاف قوى المقاومة الذاتية جميعاً ، واحداث الخلل في تناغم وتساوق مقومات الشخصية، وتشويه مثلها واحداث اهتزاز في المعايير والروائز والثوابت لديها ، وتغيير الاقتناعات وأسلوب النظر الى الأمور والوقائع ، وغرس معايير وقيماً مغايرة لتلك التي كانت تحكم سلوك الشخصية وتميز مسلكها ٠ والتمهيد بذلك لنشوء أسس تقوم عليها اقتناعات ومعايير هي من غرس وصنع الكيان الغازي ومن فعل ارادته ، تتماشى مع مصالحه ورغباته وتطلعاته ، وتستجيب لايحاءاته ، بل وتنفذ تلك الايحاءات دونما اعتراض ٠

وربما كان هذا أعلى مراحل التخطيط لاستعمار الارادة والتوطن فيها وتحريكها آلياً وذاتياً ، مع الحفاظ على مظهريات وشكليات استقلالية تشبع وهماً أو تشيمه ٠ وهذا نوع من أنواع استلهام الضعيف لقوة القوي وتقمصه رغباتها بما يحقق له اشباع تطلع ظامىء الى النجاح في تنفيذ عمل دونما احباط ، والامتثال لارادة الغير طوعياً وتبني أهدافه والارتياح الى آلية صدورها عن الذات كارادة مستقلة ، يؤدي الى شيء من الارتياح من جهة ويجعل الارادة الغازية المتوطنة ، أي الاستعمار بأشكاله ، يصل الى تحقيق أهدافه بأقل التكاليف والجهود ٠

وهذا النوع الأرقى من أنواع الاستعمار الاستلابي ، أو الاستلاب الاستعماري ، يتطلب عمليات تمهيد دقيقة وخفية وشاقة ، واتباع أساليب حذرة ومجربة ، خاصة عندما يكون المغزو ذا رصيد من القوة والثقافة والوعي ، يدرك معه أنه في وضع المغلوب فعلا ولكن قواه وطاقاته وامكاناته أقوى من تلك التي للغالب فيما لو استخدمت استخداماً موفقاً ٠ وفي هذه الحالة تتم عمليات معقدة تشبه أو تفوق عمليات « غسل الدماغ » الفردية وفق الأساليب الحديثة ٠

★ ★ ★



في وضعنا نحن العرب ، ونحن أمة تتعرض للغزو فعلا ـ بأشكاله المختلفة وبأساليبه المتطورة جميعاً ـ الاشكالية قائمة والمشكلة كبيرة • ذلك أننا نملك رصيداً كبيراً من مقومات القوة بمعناها العام: بشرياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعيـاً وعقائديا ،ولكننا نسيء استخدام هـذا الرصيد ، مما يجعل حملات الغزو المختلفة التي تشن ضدنا منذ آمـادطويلة تنجح في مواقع وتفشل في مواقع أخـرى ، وتكتسح في عصور وتخفق كلياً أو جزئياً في عصور •

فنحن منذ أن عز العرب بالاسلام ، ونشر العرب الاسلام وغذوه بالدم وأعـزوه ، أضفنا الى مقومات شخصيتنا القومية الواضحة المعالم بعداًانسانيا وعقائديا وثقافياً عزز مكانة الشخصية العربية ودورها الحضاري ، وقوى ثقتها بنفسها ،فحققت انتصارات باهـرة على الصعد العسكرية والاقتصادية والثقافية لم تحققها أمة من قبل وفي زمن قياسي نسبياً • وهذا الرصيد التاريخي الضخم الذي لا يغذيه الوهم ولا يقوم على افتعال أو فورة انفعال ، جعل المنعة شبه تامة على جبهة القناعات الفكرية والبنى الثقافية ، ممـا أدى الى تماسك المقومات الثقافية للشخصية العربية عبر التاريخ رغم تزعزع وانهيار مستويات أو مقومات أخرى •

فخلال الفترة الراشدية أشرعت الفتن التي بثها مندسون في الدين وفكر الأمة وسياستها ، على شاكلة ابن سبأ وكعب الأحبار وسواهم ، أشرعـت أبواب اجتهادات وفلسفات وعطاءات فكرية وثقافية ايجابية كونت ردأ ومكنت دعائم الشخصية في مجالات الثقافة عامة ، ودفعت عجلة الابتكار والتفتح الفكري ، مما أدى الى تفتح خـلاق أنتج نهضـة العلوم والآداب والفنون في فترات لاحقة (الأموية وامتدادها في الأندلس ـ والعباسية حتى المأمون) الأمر الذي أقام صرح ثقافة أنارت سبل الهدايـة والتقدم والتطور الفكري والثقافي والتقني أمام العالم كله فيما بعد •

وقد صمد هذا الكيان الثقـافي والحضـاري الضخم لأشكال الغزو الشعوبي والصليبي من بعد ، وفعل فعله البناء في تماسك شخصية الأمة ، نتيجـة لسلامة وصلابة بنيتها الثقافية والفكرية ، الأمـر الذي يسر لها اعادة بناء قوتهـا واستعادة ثقتهـا بنفسها على جبهة القوة العسكرية • فكان نصـر على الصليبية رغم التمزق والتشرذم في مجـالات القوة • وأدى ذلك بدوره الى استعادة شيء مـن الصحة والسلامة والثقة للأمة بشخصيتها تواجـه بها مستقبلا لم يكن يملـك العرب وحدهم زمامـه ومقاليد صنعه ، وان كانت ثقافتهـم وعقيدتهـم ماثلتين في تكوين من يملك أمره بدرجة أو بأخرى •

في ظل عهد المماليك والأتراك كانت المقومات الثقافية والفكرية والعقائدية التي بقيت المنهـل الثر للأمة العربية ، هي مصدر الصحة والقـوة ،وهي التي يعود اليها الناس حين تعصف بهم تصاريف الدهر ، وتضطرهم الى ذلك تقلبات الأحوال وتداول الدول • لم يكونوا يضيفون على ذلك الرصيد شيئاً يذكر ، وانما كان العود اليه والاغتراف منه بل قل اجتراره ، يعيد اليهم بعض الثقة • وتجدد في فترات من تلك المرحلة عزم الممالك والشعوب، وأحرزت انتصارات أو قاومت أشكال غزو عنيف كان يشن عليها دون هوادة • بقي شيء من التوازن بين الامبراطورية العثمانية ـ والعرب في ظلها ـ تلك التي ورثت حضارة العرب والمسلمين وعاشت عليها وأغنتها في جوانب غير مؤثرة ، وقاومت بوحي من مقومات الثقافة العربية والعقيدة الاسلامية الى أن تمثل الغرب علم وفكر وثقافة العرب والمسلمين، وما حملوه اليه من ثقافـة الأمـم وعلومها سـيما اليونانيين ، وسار في طريق النهضة الحديثة بعـد أن بنى على تلـك الأسس والمعطيـات الثقافيـة والعلمية والفكرية بنياناً راسخاً طوره وجـدده باستمرار متبعاً المنطق ومناهج البحث والاستقصاء العلمية التي ثبتها العـرب والمسلمون وحفظوهـا وطوروهـا • وكذلك العـلم الذي أخذه عنهـم في مجالات شتى • ولم يكن العرب الذين عاشـوا في ظلال التجهيل والظلم العثماني والتخلف المفروض عليهم ، لم يكونوا على تواصل لا مع تراثهم الثقافي والفكري والعالمي ، ولا مع قيمهم السليمة ، ولا مع عقيدتهم السمحاء بمقوماتهـا الثورية النضاليـة الانسانية الصافية ، سيما خلال القرون الأخيرة • بل كانوا على حالة من التواكل والتآكل جعلتهـم يتنادون ـ خلاصاً من الظلم والانهيار العثماني ـ الى بعث ما يمكن بعثه من روح وقيم وثقافة وفكر الماضي ، ليتمكنوا من جمع الشمل ولم شعث الأمة علها تقوم على قائمة لتواجه الليل الذي يخيم في



سوحها • وهكذا كان بدء الطريق ولكن الاستعمار الأوروبي المنتشي بتفوقه وتقدمه العلمي ، والمبطن لأحقاده وأطماعه ، لم يسمح لهذه الأمة بأن تتماسك وتستعيد تواصلا بناء وخلاقا مع مقومات شخصيتها بدءا من المقومات الثقافية لتلك الشخصية ووصولا الى مكونات القوة والصحة العامة عسكريا وجغرافيا واجتماعيا واقتصاديا • فبادر الى تمزيقها واقتسام أرضها وأبنائها ، وأخضعها لسيطرته المباشرة •

* * *

في ظل السيطرة المباشرة (الاحتلال) التي فرضها الاستعمار الأوربي (فرنسا ــ بريطانيا ايطاليا) في النصف الأول من القرن العشرين على الخصوص ، تطورت أساليب الاستعمار وتنوعت وسائله ومدارسه ومناهجه في السيطرة على الشعوب وسلب ثرواتها وتسخير قواها وطاقاتها لصالحها • وأخذ يفكر في النصف الثاني من القرن العشرين وتحت ضغط القوة التي حققت الاستقلال الوطني لبعض الأقطار العربية وأعلنت تصميمها على تحرير بقية الأرض ، والارادة والقرار والاقتصاد والعقل • في ظل هذه السيطرة المباشرة ، وتحت ظروف القهر والجهل والتخلف وصلف القوة التي مارست عنجهيتها وجبروتها على شعب أمي فقير مقهور لعبت وتلعب الدوائر والأجهزة الاستعمارية في صيغتها المعصرنة النووية (الامبريالية والصهيونية) لعبة احتلال الارادة واستباحة حمى الفكر ، والتوطن ثقافيا وقيميا وسلوكيا وتطلعا ، في أعماق تكوين الشخصية الثقافية للانسان العربي • ولها في ذلك أخطر وأنجح الوسائل والأساليب •

* * *

القوي مرهوب الجانب ، منظور اليه باهتمام ، يملك فيما يملك هالة باهرة مبهرة، تجعل لما يقول ويفعل ، ولما يسلك ويلبس ويستعمل ، تأثيرا أكبر بكثير من القيمة الفعلية لقوله وفعله ومسلكه وملبسه ولما يستعمل • انه الغالب الذي يقلده المغلوب ، والمتفوق بقوته وعلمه وفكره الذي قهر المتفوَّق عليه قهرا شاملا بقوة السلاح والعلم ، واستباح أرضه وجهده وعقله ، فلم لا يكون في مقام التقديس أو التأليه أو في أبسط الحالات وأدناها ، في موقع المقتدى به الفائق الاحترام ؟! انه يملك فيما يملك الى جانب الثروة والمصانع والتقدم التقني والتخطيط المتقدم والعقل العلمي يملك :

- **الأساطيل التي تتحرك بالطاقة النووية •**
- **الصواريخ العابرة للقارات •**
- **الأقمار الصناعية ومركبات الفضاء التي تصل الى القمر والمريخ والتي تتربع في كل مساحة من الكون فاتحة آذانها وعيونها على الخليقة •**
- **القنابل الذرية والنووية والنيترونية والأسلحة الجرثومية •**
- **قطعانا من الطائرات لا حصر لأنواعها وقدراتها ترعى سماء الله وتلقي فضلاتها المهلكة على أبنائه في الأرض •**
- **عقولا الكترونية •**
- **عسكرة كاملة للبر والبحر والجو والفضاء •**
- **فئات وأنظمة عربية موالية وعميلة له ومتواطئة معه ضد مصالح العرب جميعا •**
- **وما لا حصر له من الأموال والشركات والمواد الأولية اللازمة للصناعات المختلفة •**
- **جيشا من العملاء والجواسيس في الاختصاصات والفعاليات المختلفة •**
- **أنظمة ورثت معاهدة (سايكس ــ بيكو) وحافظت على تلك التركة الاقليمية القطرية التي على بركتها أصبح وطننا الواحد اثنتين وعشرين دولة •**

ألم يحقق هذا كله ويوظفه ويسخره لمصلحته عقل علمي ، وعلم متطور ، وتخطيط دقيق يكاد يوقف الأنفاس المتلاحقة ؟! اذا كيف لا تكون هذه القوة طاغية في تأثيرها على الآخرين ، وفي تدميرها لاقتناعاتهم وملكياتهم الثقافية ومقولاتهم الكلامية ؟!



ان الجاهل الذي يمسك ببندقية قديمة ويستعملها بلا ضمير ، يستطيع أن يجبر عددا لا بأس به من المثقفين والعلماء والصالحين على أن يروا الأبيض أسود، ويطوعهم لما يريد ؟! هذا اذا كان يعرف ما يريده أصلا ؟ فكيف بعقول تخطط لقوى عظيمة وتستخدم أسلحة فتاكة وطاقات كبيرة، وتوجه قوتها ، بكل ما لتلك القوة من مقومات وأبعاد ، ضد شعب لا يملك ما تملك من قوة وعلم وثروة ، لا يرتاد الفضاء ولا يفجر الذرة ولا يستغل العلم استغلالا حسناً ؟! ألا يمكن لتلك القوى المهيمنة أن تضع جموع الضعفاء ، بالمنطق أو بالقوة أو تحت ظروف القهر والاستلاب ، في الفلك الذي تريد وأن تحتل ارادتها وتكون قناعاتها ؟ انها تحاول على الأقل ، وتنجح في أشياء ، وتلقى مقاومة عنيفة في حالات ، وهذا هو الغزو الثقافي الذي يتجلى عندنا في صور شتى من التقليد والتبعية والانبهار والاقتداء والاستهلاك الثقافي الذي أدى الى أن نصبح رصيداً مستهلكاً لبضائع ومنتوجات الغير حتى تلك التي تهلكنا ۰ ذلك الغزو الذي يتم بوسائل وأساليب متنوعة ، وتتبع خطط دقيقة للوصول الى نجاحات ملموسة في مجالاته ۰

* * *

لا أريد أن أعود الى أشياء قديمة وحوادث في أعماق التاريخ القديم أو المتوسط للعرب أقدمها كنماذج على التزييف ، كأحد أساليب الغزو ، ولا أود أن أقف عند توظيف الاستشراق (كلا أو جزءا ، في مرحلته الأولى أو مرحلته المتأخرة) لتحقيق أطماع الاستعمار ومخططاته من جهة ، ولاحتلال الارادة العربية عن طريق احداث الفراغ ثم اعادة ملء الفراغ (ثقافيا وفكريا) من جهة أخرى ۰ سوف أكتفي بومضات اشارية الى مراحل في الكيفية الغزوية التي تتم على الجبهة الثقافية العربية بعد أن مهدت العوامل الأخرى لنجاح الحرب على هذه الجبهة أو على الأقل لخوضها بآمال عريضة في تحقيق النجاح ۰

● **بعد أن تم الاحتلال المباشر للأرض العربية ، والذي سبقه تطلع متلهف معجب جاء نتيجة لتبشير (فكري وثقافي واجتماعي وديني) بتفوق المجتمع الغربي وتقدمه علينا في مستويات وعلى صعد شتى ، سرق الغرب المستعمر بشكله القديم ورموزه ثم النمط الاستعماري الأرقى (الامبريالي الصهيوني) سرق كمية كبيرة من تراثنا الفكري والعلمي والثقافي ، ومن آثارنا وموروثاتنا ، وأخذ يعيد تصدير بضاعتنا التي سرقها منا الينا ، ولكنها مختومة بخاتمه ومفسرة على هواه ۰**

● أخذ ينشر كنوز تراثنا فأخذتنا الدهشة من حرصه عليه وتفوقه علينا في حفظه اياه والعناية به واستيعابه فأكبرنا فيه علمه من جهة وتكريمه للفكر والعلم من جهة أخرى ۰

● **أطلعنا على آثارنا في متاحفه (اللوفر ـ الملكي البريطاني ـ برغامون ۰۰ الخ) وأصدر لنا الدراسات والتفسيرات والقراءات المعتمدة لذلك التراث ، فأعجبنا به وعجبنا من أنفسنا ومن اهمالنا لما يخصنا ، وضعفنا في معرفته وفهمه ،فتراكم ذلك ضعفا فينا على ضعف وقلة ثقة على رصيد سابق من قلة الثقة ۰ ولم ينس الغرب الاستعماري والامبريالي الصهيوني في المجالين السابقين أن يدس سمومه وأن يكرس الثقافة القديمة لغرس جذور استعمار استيطاني ، وافتعال حقوق تاريخية لصنائعه وركائزه في أرضنا وثقافتنا وفكرنا ۰ كيف لا يفعل ذلك مستشرقون يهود وصهاينة استطاعوا أن يفرضوا حتى على المسيحيين عبر التاريخ تقديس تاريخهم هم ، وتبرئتهم من دم المسيح ؟!**

● قدم لنا الغرب تجاربه السياسية والعلمية والاجتماعية ونظمه وصناعاته فبهرنا ۰ وشرح لنا أو اطلعنا على فهمه للحرية وأسلوب ممارستها فاستهوانا ذلك وحين جربنا الخلاص من ظلمه والحصول على حريتنا منه قهرنا بقوة السلاح فصار للتجربة وللتعامل مع (العلم والقوة والتفوق) منعكسات شرطية (بافلوفية) في النفس ۰ اذا استهوتك الحرية والديمقراطية وتقدم العلم وحياة الغرب فأحببت أن تعيش على ذلك النمط لاقيت قهراً وظلماً وقتلا ۰ اذاً لِمَ الطموح ولم التفكير ولم التعب ؟!



في هذا المستوى من التعامل أراد الغرب أن يشعرنا بالدونية ، وبأننا نحمل تشوهاً خلقياً كجنس بشري (كعرب) ووجد من أبناء هذه الأمة مروجين لمقولات ونظريات أخذ يبثها ، ولجأ أولا الى حملات التشكيك في مقومات الشخصية الثقافية عموماً ومن ثم في مكونات هذا الكيان وأصالته في بعض الأحيان وفي قيمتها في أحايين ، ووصل الأمر الى التشكيك بقدرة العقل العربي وبامكاناته ، وبالجنس العربي الذي رآه محدود القدرة والعقل ؟! فخرج علينا مقاولته بمقولات : الفكر العربي فكر تجريدي ـ العرب أمة بيان لا أمة برهان (أي أمة كلام انشائي لا تملك العقل والعلم والمنطق) الشخصية العربية شخصية عاطفية لا يحكمها العقل ـ العربي شرقي روحي صوفي ولا يتعامل مع المادة ولا تهمه ، اذا فهو يبارك نهب أرضه وشعبه • وواكب هذا المستوى مستوى آخر يكمله : أرض العرب لا تصلح الا للزراعة ـ العرب فيهم طباع البدو الرحل لا يحبون الأرض ولا يتمسكون بها ـ ويسهل عليهم تسليمها ـ العرب بلا مدنية ـ اللغة العربية ليست لغة علم ولا تواكب العصر ـ التراث العربي كتب صفراء لا تفيد الانسان العصري ولا قيمة لها • العودة للتراث سلفية رجعية والتمسك بالدين رجعية لا تلائم العصر • وأخذت (موضات استعمال الحرف اللاتيني ـ ودعوة العاميات من جهة تطعن اللغة ، وأنصار الحداثة القافزة فوق كل تأصيل وأصول يطعنون التراث والأدب العربي الحديث ومقومات الفكر والثقافة ، ويشتدون في اتهامهم للتراث خاصة دون اطلاع أو دراية متجاهلين حقيقة أن الحكم دون اطلاع ضرب في عماية • والتخلف عامة والعلمي منه خاصة يواكب ذلك ، فيشير الى مصداقية الدعوات الغربية ، والتراث المتواجد في التداول ـ والذي لا يمثل في كثير منه الوجه الحق والقيمة النهائية لثقافتنا ، ـ لا يتداول منه بين الأجيال فعلا الا القليل ، فضلا عن غياب كتب العلوم والرياضيات والطب والحكمة والفلسفة من ساحة التداول بنسبة كبيرة •

آخذ' هذا في اطار مقارنة مع ما يحرز الغرب من تقدم كبير ، كل هذا يقدم أدلة على نجاح حملات التشكيك التي تهدف الى زعزعة ثقة العربي بنفسه وبثقافته وبأصالته وبقيمة ما يملك من مقومات فكرية وثقافية وعقائدية ليسهل اجتثاث الانسان العربي من تاريخه بعد أن مهدت الطرق لاجتثاثه من أرضه ، ونجحت تجربة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في ذلك •

وتراكمت حملات التشويه والتشويش لاحداث فراغ ثقافي في الساحة العربية يتجسد في :

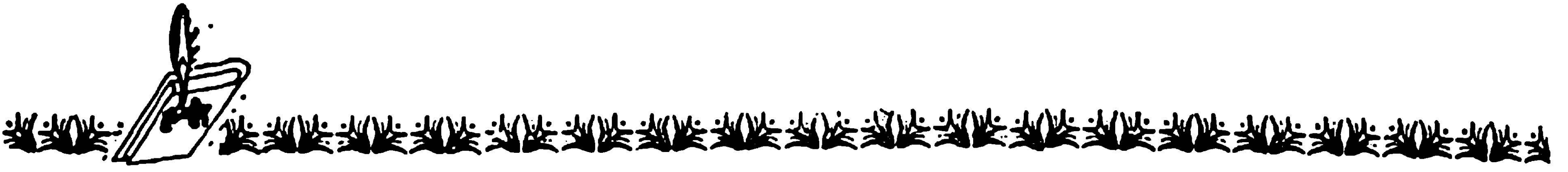
١ ـ رفض العربي لتراثه واتهامه اياه بانه أكوام من الكتب الصفراء ميتة الفاعلية ولا نفع فيها •

٢ ـ تشكيك بقيمة ما قدمه أعلام ثقافة عصر النهضة العربية الحديثة وسواهم ، لأن العصر تجاوزهم ، ولأن ثقافتهم لم تخلق جيلا عربياً تقدمياً مناضلا يحمي الأرض ويقيم مجتمع الحرية (متناسين التحرير الذي بذلت فيه تضحيات وقدمت دماء وشهداء تفوق تلك التي قدمها شعبنا عند دخول الاستعمار ، ومعروف جداً أن اخراج المستعمر أصعب وأرهب من فترات احتلاله) •

٣ ـ تسويغ وتلميع تجارب و (تقليعات) فكرية وأدبية لا تحمل سلامة اللغة ولا أصالة الثقافة ولا مشاكل الواقع وتجارب انساننا وتطلعاته ، والتي تطغى فيها تهويمات لا يقبلها القارىء ولا تؤثر فيه تأثيراً ايجابياً ان أقبل عليها ، كما لا يقبلها النقد الواعي لوظيفته ودوره ولمتطلبات المرحلة والتطور والمتحمل لمسؤولياته جميعاً • الأمر الذي يشير الى فقدان التواصل الثقافي بين الأجيال والتراث من جهة ، وبين المثقفين والواقع بجماهيره ، وبين القارىء والانتاج الثقافي من جهة أخرى ، وحتى بين الناقد والكاتب • والى موجة تشكك عامة يصاحبها فقدان الثقة وفقدان الأمل في الوصول الى مخرج أو خلاص •

ولما كان هذا كله يتواكب مع :

- تمزق سياسي عربي مزر ، أودى بالقوة والهيبة العربيتين ووصل بالآمال الوحدوية والتحررية الى الحضيض •
- لاءات عربية كثيرة وكبيرة دون رصيد متحقق من مصداقية الفعل المنجز للقول الا في استثناءات لا تشكل أرضية جديدة تترسخ عليها الأقدام •



- عدم تحقيق تقدم فعلي في مجالات البنية الاجتماعية المتطورة، ونزوع أنظمة الحكم العربية الى اهمال الجماهير وقطعنتها والى اعتماد ديمقراطيات شكلية وعدم احترام الانسان وحقوقه وحرياته ، وعزله أحياناً عن ساحة الفعل السياسي ، وانتشار الفساد في حياته وقيمه العامة اجمالا ، وتسطح مفاهيمه واهتماماته ،وسيادة قيم مجتمع استهلاكي مصحوب بغياب قيمة العمل وشرف الانتاج ٠

- استمرار تواجد العدو في الأرض العربية ، وازدياده قوة وشراسة وبطشاً ، دون أي حل عادل ، ودون قوة تواجهه مواجهة شاملة ، ونفاذ رأيه وارادته وتهديداته دون أدنى رادع عربي ومايتركه ذلك من تأثير في النفس واثقال للضمير وفتك في الارادة ٠ ونمو أجيال عربية في ظل هذا الوضع وهذه الوقائع ٠

- حملات اعلامية (عربية عربية) لا تحترم العقل ولا العلاقات الأخوية العربية ولا مقومات وأخلاقيات العقيدة الواحدة ، ولا الصلات القومية والآمال لوحدوية والمشتركة فضلا عن عدم احترامها للانسان المتلقي لها والمتفاعل معها ، والذي لا تتورع في ادخاله دوامة التناقضات التامة في فترات متلاحقة متقاربة ، وتأثير ذلك على ذهنه ومحاكمته وتكوين مواقفه وعواطفه وآرائه ٠ فضلا عن انطلاقها ، قاصدة أو غير قاصدة ، من عدم الاحترام للانسان وعقله ودوره بله حريته واختياره وارادته ٠ واعتمادها سياسة : الأمة فرد ٠

- تراكم حملات الاعلام المضاد (امبريالي ـ صهيوني ـ استعماري ٠٠ الخ) ضد الانسان العربي بهدف خلق مناخ من عدم الثقة وتقوية الشك السلبي غير المنهجي فيه ، واستلابه التام من كل ما يبني ارادته وثقافته ، وتعمد التركيز لتيئيسه ٠

- فقدان الكلمة لمصداقيتها مما أدى الى غياب دورها ومفعولها في معركة التصدي لحملات الغزو ، سواء كان ذلك في الثقافة أو في الأدب أو في الصحافة ، أو في خطب الساسة وتصريحاتهم فغالباً ما ننتصر في الاعلام ونكتفي بتقديم وعود لا رصيد لها ٠ الأمر الذي انعكس سلبياً على دور المثقفين ودور الكلمة ومفعول وسائل الاعلام العربية في مواجهتها ، ذلك لأنها ارتبطت في الاعلام بالتضخيم وحتى بالكذب ، على عكس ما هو عليه حال الكلمة في الاعلام المعادي المسموم والمخادع الذي اكتسب مصداقية عند الجماهير العربية ،لأنه يقدم حقيقة ولكنه يوظفها لصالحه بأسلوب ما ، ويثبت مصداقية ما يقول ، ويقدم الأكاذيب فيما بعد على شكل حقائق ، فيعجب مستمعنا بالحقيقة التي يفتقدها في أجهزته ويتوق اليها،ويغيب عنه التوظيف المغرض الخبيث في الاعلام المعادي ، ولكنه يقع تحت تأثيره غير المباشر في النتيجة ٠

- الاستيراد العربي العام لسلع الغرب ومنتوجاته(وتقليعاته) من صغيرها الى كبيرها ، المادي منها والمعنوي ، النافع والضار واستيراد القيم والمعايير والفاسد من السلوك بوجه خاص ٠

فان الجهات والمؤسسات التي تعمل على احداث الفراغ الثقافي عندنا وتحمله بيد (ان صح التعبير) تحمل باليد الأخرى ثقافة بديلة تزرعها يومياً في أعماق تكوين المواطن العربي وترعاها ، ثقافة مستوردة (غازية) تهدف الى تطويع العقل العربي واحتلال الأرض من الداخل والتوطن فيها ، وجعل الانسان العربي يفقد مع الزمن كل صلة له بحضارته وثقافته وأصالته بفكره وباستقلاليته ، ويفعل كما يريد له الطامعون به وبأرضه وبخيراته الغازون لشخصيته المحتلون ارادته فيعمل لتنفيذ مخططاتهم ٠ والخطورة في هذا الوجه من وجوه الغزو والتوطن ان بعض دعاته من أبناء الأمة والمنتمين لثقافتها ٠

* * *

فما هي السبيل أو السبل للخروج من هذا ولامتلاك أنفسنا ومقدراتنا فعلا ؟!

ليس العلاج أن نقفل على أنفسنا الأبواب والنوافذ فنتقوقع ٠ ولا أن نكتفي بالعودة الى



التراث عودة تغيبنا فيه عن العصر الذي نحن فيه ،وتحرمنا من التطلع الى الثقافات الأخرى والى المستقبل الذي يمر بنا ولا يحملنا معه اذا لم نركض لنواكبه أو لنكونه ٠

وليس العلاج في أن تتكرم الثقافة (الغازية) بأن تكف بلاءها عنا وتتركنا وشأننا ، لأن عقلنا لن يقبل ذلك من جهة ولأن حيويتها ومصالح حامليها لن تفعل ذلك فهي ترمي الى التلاقح مع الآخرين ، كما يرمي الآخرون الى التلاقح معها ٠

وليس الحل في أن نهجر القديم كله لأنه أصل تخلفنا وسبب بلوانا كما يحاول البعض أن يقول فلم يكن كذلك أبداً ، بل فيه جوهر أصالة ونار ثورة ونبع قيم وحوافز نضال نحن أحوج ما نكون اليها جميعاً ٠

لا أدعي أنني سأكتب هنا وصفة سحرية فيها العلاج وفيها الشفاء ، ولكنني أستطيع أن أؤكد هنا حقيقة أن الانسان العربي ليس فيه نقص خلقي من أي نوع ، وان ارثه الحضاري من أغنى المواريث الانسانية ان لم يكن أغناها ، وهو ارث لم يتجاوزه الزمن كله ، وفي كثير منه خير كثير ، وان تاريخه الطويل على كثرة ما فيه من نكبات وكوارث وظلم وخضوع لأنواع من الاضطهاد والاستعمار ، لم يشهد ذوبان أو تلاشي أو انعدام أو حتى محدودية فاعلية المقومات الثقافية للشخصية العربية ، ومقاومتها وفعاليتها في استنبات مورثات ومحرضات ومكونات الارادة الصلبة الواعية والمقاومة العنيدة.

وان الثقافة العربية لم تكن في يوم من الأيام معزولة ولا منعزلة عن الثقافات الانسانية ، فقد عايشت ثقافات الأمم منذ أقدم العصور ، وصمدت للقائها ، وتفاعلت معها تفاعلا ايجابياً ، فثاقفتها في فترات ازدهارها وانحسارها ، أخذت منها وأعطتها اغتنت بها وأغنتها بحيوية وانفتاح واقتدار ، دون عقد ، ودون أن يؤثر ذلك سلبياً في ملامح هويتها أو في مقوماتومكونات أصالتها وكانت في لقائها الخصب مع تلك الثقافات تتواصل وتتفاعل بحيوية من موقع الثقة ، تتمثل ما تأخذ ولا تمتثل له ، فلم يتزعزع نزوعها الانساني ولم تكن يوماً تابعة ذلولا ، ولا متعالية قتولا ٠ وان الغزو استعداد في الأصل للتخلي عن الذات عند المغزو وتآكل في كيان الثقة ومناخ الحرية ، وتقييد لانطلاقة قدرات الفرد والمجتمع ٠ فما الذي يمنع الانسان العربي اليوم من أن يستعيد تواصلا واعياً مع تراثه الثقافي من جهة ، ومع معطيات واقعه وثقافة عصره وموحيات نضاله من جهة أخرى ، ليواكب التقدم بأصالة ، وليكون ذاته بعمق ، وليحرز خصوصيته ، ويكرسها في ثقافة هي رفد واغناء للثقافة الانسانية ، كما هو عليه أمره في معركته وواقعه وظروفه والظلم الفريد الذي يحيق به ؟ ما الذي يمنعه من تحقيق الأمن الثقافي الذي هو صمام أمن الأمة حتى لو بقيت على أرضها حرة ؟!

هل يكون هذا عبئاً من أي نوع عليه هو ؟! لا ٠ فيما أظن ٠ انما العبء يصبح ثقيلا وغير محتمل ، فيما يبدو لي ، بالنسبة لدوائر الاستعمار الامبريالية والصهيونية وسواها من أصحاب المصالح ، وبالنسبة لبعض فئات وأنظمة عربية ، تعمل على تفتيت الشخصية الثقافية العربية من الداخل لتحقيق وجود فردي أو لتلحق الأمة بأمم وتجعلها حقل مصالح للغير ٠

فأن يكون الانسان العربي مثقفاً فعلا ومتأصل الجذور في أرضه وثقافته ومتواصلا بحيوية مع عقيدته وواقعه المعيش ، أن نكون كما قال رجالاتنا أحراراً كما ولدتنا أمهاتنا ، وأن نطبق ديمقراطية سليمة ، وأن يقوم البدوي منا بسيفه « عمرنا » اذا أخطأ ٠ أن يكون الشعب العربي هكذا أمر يشكل كارثة على أعدائه وعلى الطفيليين الذين يمتصون دماءه ٠ ولكن هذا الذي يبدو لجهات ودوائر وفئات طفيلية على الحياة والتاريخ ، رهيباً ومرعباً ، آت لا ريب فيه ، آت لا ريب فيه ٠

* * *

مسيرة التعريب في الجزائر بين لماذا وكيف.!

د. أحمد بن نعمان

تعيش الجزائر في الوقت الحاضر وضعا لغويا وثقافيا أقل ما يمكن ان يوصف به أنه وضع غير طبيعي ٠٠٠ ورثت البلاد نواته الأولى غداة الاستقلال ، وهي نواة ضاربة بجذورها في أعماق الاحتلال الأجنبي الذي تميز بخاصتين رئيسيتين :

الأولى : طول المدة التي مكثها في البلاد حيث كانت الجزائر أول من وقع تحت وطاته سنة ١٨٣٠ وآخر من تحرر من قبضته بعد هذا العهد الطويل الذي لم يشهد له في التاريخ العربي مثيل ٠

الثانية : نوعية الأسلوب الممارس من قبل هذا المحتل الاستيطاني الدخيل ازاء هذا الشعب العربي الأصيل ٠

وقد كان لهذا العهد المديد والأسلوب الفريد أثر واضح المعالم ، ودور أساسي في خلق هذا الوضع (اللغوي الثقافي) القائم ٠

فقد أنكر هذا المحتل على شعبنا شخصيته المتميزة ، وانتماءه الحضاري والثقافي الى كيان الأمة العربية ، مستهدفاً تذويبه الكلي وادماجه العضوي ، في الأمة الفرنسية ، معتبراً اياه قطعة لا تتجزأ من فرنسا (الأم) تراباً ، وشعباً ، وقلباً ، وقالباً ! وانطلق المحتل من هذا الوهم (الذي ظل يمثل الحقيقة في نظره !) الى طمس كل معالم الشخصية الوطنية العربية المتميزة لشعبنا ، وازالة كل مميزاتها وسماتها الثقافية من الوجود ٠٠٠ مبتدئاً بمحاربة اللغة العربية التي ظلت لغة هذا الشعب ، ووعاء ثقافته الراقية ، ولسان عقيدته السامية ٠٠٠ منذ أن تبنى رسالة القرآن وعرف « حب الوطن من الايمان » على يد عقبة بن نافع وحسان بن النعمان ، واخوانهم في الملة ، أمثال طارق بن زياد من الأمازيغ الأحرار ، الذين تسلموا الأمانة ، وواصلوا نشر الرسالة في الديار وما وراء البحار ٠٠٠ فظل المحتل يحارب هذه اللغة بكلما أوتي من حول وقوة ، لازالتها من الوجود ، لتمثيلها أقوى السدود المنيعة ، في وجه عمليات المسخ والتذويب الفظيعة التي كان وما يزال يستهدفها ، وقد اندحر وزال من على الأرض وفي نفسه شيء منها !!

ولئن تمكن المحتل بالفعل من فرض لغته الأجنبية الدخيلة واحلالها محل لغتنا الوطنية الأصيلة في كافة مجالات الحياة اليومية والرسمية ٠٠ فانه لم يحقق كل أهدافه في القضاء على الروح الوطنية العربية المتأصلة في نفوس الجزائريين الوطنيين ٠٠٠ المتمسكين بلغتهم كتمسكهم الشديد



بعقيدتهم الاسلامية التي لم يرضوا عنها بديلا ،ودة امتزجت عندهم بالعروبة الى درجة عدم التمييز الواضح بين المفهومين (العروبة والاسلام)لدى الغالبية العظمى من أفراد شعبنا ، حيث لا يفرقون بين كلمة (مسلم) وكلمة (عربي)فعندهم كل عربي مسلم ، والمسلم لا يتصورونه الا ناطقاً بالعربية ! وهو خلط واضح الأسباب كما نعلم ، ولكنه بقدر ما ينم عن بساطة في الادراك ، فهو يدل دلالة قوية وقطعية على مدى تلاحم العروبة بالاسلام لدى الجزائريين بكيفية لا تقبل أية مساومة ، أو أي انفصام ٠

ولذلك كان على دولتنا الفتية أن تبادر في صبيحة يوم الحرية برفع شعار التعريب ، تحت الحاح الجماهير وفي طليعتهم الأحرار من الثوار الرافضين لكل أنواع التبعية للاستعمار الذي ظل يحن اليه بعض الصغار من أصحاب الدار !!

وظل التعريب مبدأ ثورياً وقضية وطنية بقدرما هي قومية وحضارية عربية ٠٠٠ ومن ثم كانت المناداة بالتعريب الحقيقي والشامل على المستوى الوطني والقومي ، لا تتعارض مع كوننا عرباً شعوراً ووجداناً في الأصل ٠٠٠ نقول هذا لأننا لاحظنا من حين لآخر بعض أصحاب النوايا الطيبة من المجتهدين المتحمسين ، يقولون كيف ننادي بالتعريب ونحن عرب أصلا ٠٠٠ ومن ثم ألفيناهم يقترحون استبدال كلمة (استرجاع اللغة الوطنية أو العربية) بكلمة (التعريب) ٠

والحقيقة أن المطالبة بالتعريب لفظاً ومضموناً ٠٠٠ لا تتعارض مع كوننا عرباً ، والعكس هو الصحيح ، أي نحن ننادي بالتعريب لأننا عرب ، ولولم نكن كذلك لما نادينا بالتعريب ! فالعروبة شعور قومي ووجداني ، والتعريب نشر للسان هذا الشعور القومي على أوسع نطاق ممكن ، وقد يكون الانسان عربي الشعور ، ولظروف معينة ـ وهذا ما حصل بالفعل لبعض أفراد شعبنا ـ غير عربي اللسان ، فيختل التوازن بين لغة الشعور ولغة التفكير والتعبير ، فيقع الانفصام في الشخصية (الفردية ، والجماعية) عند أحسن التقدير !!

ومن هنا يكون التعريب دعماً للعروبة وليس مرادفاً لها كما أنه ليس متعارضاً معها أيضاً ، والا فكيف نفسر الحركات التعريبية القديمة التي تمت في صدر الاسلام ، وسارت متوازية في المكان ، ومتعاقبة في الزمان مع العصور المختلفة للحضارة العربية الاسلامية طوال عهودها الزاهرة المشرقة... والدليل على ذلك أن التعريب الآن مطروح على الصعيد القومي العربي ، وليس على الصعيد الوطني فحسب ، ومن ذلك أن جامعة الدول العربية قد وضعت التعريب ضمن أحد محاور نشاطها القومي (حتى قبل استقلال الجزائر) كان من نتائج ذلك النشاط التعريبي انشاء مكتب لتنسيق التعريب في الوطن العربي ، عقد مجموعة من الندوات العربية حول هذا الموضوع على مر العشرين سنة الماضية ، ومن الناحية الاصطلاحية فللفظة التعريب معنيان متفقان في الاشتقاق ، ومختلفان نسبياً في الدلالة :

المعنى الأول : اصطلاح تقليدي معناه استعمال العرب للألفاظ الأعجمية بالنطق العربي ٠٠٠ واستمر مدلول التعريب هذا بمعناه الاصطلاحي لتحديد استعمال العرب للألفاظ الأعجمية وفتح باب الاضافات اللغوية على مصراعيه لادخال الآلاف من الكلمات الحضارية التي لم يكن للعرب بها عهد سابق ، وقد اعتمد علماء اللغة العرب هذه الطريقة كأسهل الوسائل لاغناء اللغة العربية بالمصطلحات المستحدثة في اللغات الأخرى ، الى جانب وسائل الاثراء اللغوي الأخرى المتمثلة في النحت، والقياس، والتوليد ، والاشتقاق ، والترجمة ٠

والتعريب بهذا المعنى الاصطلاحي الضيق يعني أخذ كلمة أجنبية بلفظها الأعجمي كما هي ، على أن تخضع لمخارج الحروف العربية وتلائم النطق العربي (باجراء بعض التعديل النطقي لها) ثم اعتمادها كلفظة فصيحة في القاموس العربي مثل :راديو ، تلفزيون ، أمبريالية ، استراتيجية ، فلسفة ، جغرافيا ، ميتافيزيقا ، اديولوجيا ٠٠٠الخ ٠



المعنى الثاني : وهو المعنى الشامل المتداول في أيامنا هذه نتيجة الوضعية الحضارية التي يوجد عليها العرب في المرحلة الراهنة ، ويعني التعريب بهذا المعنى الواسع : **العمل على نشر استعمال اللغة العربية على أوسع نطاق ممكن ، وجعلها أداة طيعة صالحة للتعبير عن كل ما يقع تحت الحس ، وعن كل العواطف والأفكار والمعاني التي تختلج في ضمير الانسان العربي المعاصر** ؛ وبعبارة أوضح : جعل اللغة العربية لغة الحياة في مختلف مجالاتها ومظاهرها ابتداء من نظم أبيات الشعر ونسج بيوت الشعر الى تركيب الصواريخ واطلاقها ، اختراع القنابل الذرية وتفجيرها ۰۰۰ مع التأكيد على **الاشارة هنا الى أن الانسان هو الذي يفكر باللغة وليست اللغة هي التي تفكر بالانسان ، وأقوى الأدلة على ذلك : الصين واليابان** (۰۰۰) وفي غياب التحديد الكافي للمقصود بالتعريب ۰۰۰ اختلفت المفاهيم وتباينت حول هذه القضية المصيرية ۰۰۰ فظل البعض يعتقد بأن التعريب مسألة محو أمية بالأحرف العربية ، وليست قضية وطنية وقومية ، وظن الآخر أنها مسألة اصلاح لسان وليست مسألة فكر وكيان وشخصية، أو أنها مسألة أشعار عاطفية، وليست قضية علم وابتكار وتقنية وأصالة حضارية تؤكد وتصرخ في وجوهنا قائلة : ان أمثال : الرازي، والخوارزمي وابن سينا وابن رشد وابن خلدون ... لم يتخرجوا ـ أبداً ـ في كمبرج والسربون !!هكذا اختلفت المفاهيم وتباينت المواقف حول هذه القضية الجوهرية ، من حيث البداية والنهاية ،ومن حيث انها وسيلة أم غاية (!؟) ۰

وفي هذا المناخ شرعت الجزائر في تحقيق التعريب الذي ظل يمثل أحد أهداف الثورة المستمرة ، كما عبر عنه الميثاق الوطني المجسد لارادة الجماهير الشعبية العريضة ، حيث قال : « ان اللغة العربية عنصر أساسي للهوية الثقافية للشعب الجزائري ،ولا يمكن فصل شخصيتنا عن اللغة الوطنية التي تعبر عنها ، ولهذا فان تعميم استعمال اللغة العربية واتقانها كوسيلة عملية خلاقة يشكلان احدى المهام الأساسية للمجتمع في مجال التعبير عن كل مظاهر الثقافة وعن الايديولوجية الاشتراكية ، وان الجزائر باستعادتها توازنها من خلال التعبير عن ذاتها الوطنية بالأداة المشروعة الأصيلة ، والمحكمة التجهيز ، ستساهم في اثراء الحضارة الانسانية بصورة أفضل وتستفيد في الوقت نفسه ـ عن دراية ـ من مكتسباتها وخبراتها ۰۰۰ ان الخيار بين اللغة الوطنية ولغة أجنبية أمر غير وارد البتة ، ولا رجعة في ذلك ، ولا يمكن أن يجري النقاش حول التعريب بعد الآن الا فيما يتعلق بالمحتوى والوسائل والمناهج والمراحل والمفهوم العام للغة مدعوة للقيام بالدور الذي يجب أن يعود اليها اذا عرف أبناؤها بعملهم الشاق ، وجهدهم الايجابي لتنميتها كيف يجعلون منها أداة ثقافية وعلمية تدفع مسيرة الجزائر الاشتراكية الى الأمام ۰۰۰

۰۰۰ ان التعريب المرتكز على الرغبة الشعبية، لم يفتأ يحقق من يوم لآخر تقدماً مرموقاً في الجزائر ، ويسمح لقطاعات واسعة خاصة ضمن الشباب أن تكتشف نفسها من خلال ممارستها للغة الوطنية ، وهذا يعني موضوعياً مكسباً واسع المدى ، بقطع النظر عن مزيته المشروعة ، ذلك أنه يشكل عملياً اجابة لأحد المطامح الأساسية التي كان يصبو اليها الشعب الجزائري أثناء الاحتلال الأجنبي ، كما يشكل في الوقت نفسه محيطاً ثقافياً ونفسياً حقيقياً ، من شأنه أن يساعد على اعداد جهاز الدولة والحزب والمنظمات الجماهيرية ،ومختلف الادارات والشركات الوطنية ، والأجهزة الرسمية ، والمؤسسات الاقتصادية لتعرّب بالفعل أكثر فأكثر مصالحها ، وذلك بما تتخذه من تدابير ملائمة ، ومن هنا وبمساعدة مبادرات القيادة الثورية الرامية الى التعجيل بالانجاز المنهجي لهذا المشروع العظيم ، يتجسم توحيد استعمال نفس اللغة في العمل والتعليم والثقافة ۰ وهذا هو الهدف الذي يتطابق ضمن أهداف أخرى ، مع استرجاع جميع المقومات التاريخية للأمة الجزائرية » ص ٩٤ ـ ٩٥ من الميثاق الوطني ۰ من هذه المبادىء والأهداف السامية الوطنية والقومية والمسلمات البديهية ۰۰۰ والرغبة الجماهيرية المتجاوبة مع الارادة السياسية ۰۰۰ انطلقت البلاد رسمياً وشعبياً كي تضع برامج مرحلية لتحقيق التعريب التدريجي في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية ۰ وكخطوة عملية أولى في هذا الطريق الثوري شكلت القيادة السياسية لجنة وطنية أسندت اليها دراسة قضية



التعريب من كل جوانبها ، وتقديم خطة جيدة لتعريب الادارة والتعليم والتكوين والاعلام والمحيط الاجتماعي في آجال محددة ، وقد عرضت هذه الخطة على الندوة الوطنية الأولى للتعريب المنعقدة في قصر الأمم بالجزائر في شهر مايو من سنة ١٩٧٥ حيث صادقت عليها بالاجماع ، واكتسبت بذلك عملية التعريب النامية نفساً جديداً وقوياً ، غير أن هذه البرامج ظلت تنقصها أهم مقومات الانجاز الفعال وهي تتمثل في العوامل المتكاملة التالية :

أولا ـ الشمولية : وتعني أن التعريب لاينبغي أن يسير بكيفية نقطية ، وجزئية ، في مجال دون آخر ٠٠٠ فهذه العملية لم تؤد ، ولن تؤدي الى النتائج المرجوة منها لتحقيق التعريب الذي تنشده الثورة ، ويعبر عن طموح الجماهير الشعبية ٠ فالتعريب الحقيقي يجب أن يكون كاملا ولكي يكون كاملا يجب أن يكون شاملا لكل المجالات الحياتية كما نص على ذلك الميثاق الوطني ٠

ثانيا ـ التزامن : والشمولية تتطلب التزامن بالضرورة ، ومعنى التزامن هو أن التعريب يجب أن ينطلق في كل المجالات الحيوية في وقت واحد ، حتى لا يقع التذبذب لسير حركته ، حيث يتحقق في مجال قد يصل الى درجة التضخم ، وينعدم في مجال قد يصل الى درجة الضمور ! ومن ثمة كان من الحتمي أن ينطلق التعريب في وقت واحد في معظم القطاعات الهامة ٠٠٠ مع الأخذ بعين الاعتبار البدء بالمجالات الحيوية المتصلة بقطاعات السيادة الوطنية ٠

ثالثا ـ التكامل : والتزامن يستدعي التكامل بالضرورة هو الآخر ، أي أن القطاعات المختلفة التي تنطلق فيها عملية التعريب في وقت واحد يجب أن تكمل بعضها بعضاً ٠ فتعريب التعليم يكمل تعريب التكوين ، وتعريب الادارة يكمل تعريب المحيط والاعلام ، وتعريب الاعلام والمحيط يكمل تعريب التعليم والتكوين والحياة الاجتماعية بكل مجالاتها (كما ورد في الميثاق الوطني بالنسبة للمقصود بالتعريب ٠٠٠)

واذا لم يراع شرط التكامل حدث الخلل في عملية التعريب ، وكانت النتيجة في بعض الأحيان عكس ما يتمناه المخلصون ، واذا عرف السبب بطل العجب !

رابعا ـ التعبئة العامة : والتكامل بدوره يتطلب التعبئة العامة ، لكل الفئات المعنية الموجودة في شتى القطاعات الحيوية التي يتوقف نجاح التعريب الحقيقي على تكامل بعضها مع بعض ، والمحك هنا هو الوطنية ، وليس اتقان العربية (٠٠٠)

خامسا ـ الخطة العملية والعلمية الواضحة : والتعبئة العامة تستوجب ـ هي الأخرى ـ وجود خطة شاملة وعملية ، واضحة المعالم ، بحيث تخرج التعريب من الخضوع الى العواطف النبيلة ، والنوايا الحسنة لبعض المتحمسين ٠٠٠ من أصحاب الهمم ، والمبادرات الشخصية (الضيقة ، المحلية) الى خطة وطنية محكمة ودقيقة تجعل من المبادرات الشخصية واجبا وطنياً يثاب على فعله ، ويعاقب على تركه ، وليس أريحية قد يثاب على فعلها ولا يعاقب ـ أبداً ـ على تركها !!

سادسا ـ الحزم والصرامة الثورية : والخطة العامة تسلتزم ـ بالضرورة ـ قدراً من الصرامة ، في المراقبة والجد في التطبيق ٠ لأن النوايا الحسنة وان كانت مستحبة ، الا أنها تبقى دائماً مسألة ميتافيزيقية لا تصبح واقعاً تعريبياً ملموساً ، الا بالعمل الثوري الذي يجسدها في حياة الناس المتعطشين الى المشاهدة وليس الى السماع ، والى اللمس وليس الى الحدس !!

ونتج عن انعدام هذه الاستراتيجية الشاملة للتعريب ، أن ظلت برامجه المرحلية تطبق على امتداد فترة الاستقلال بكيفية غير متكاملة ، وغير شاملة ، فكانت تسير بخطى ثابتة وجادة في بعض المجالات ، وتراوح مكانها في مجالات أخرى ! وتكامل النقص في توفر العوامل الضرورية المذكورة، مع التركة الثقيلة التي ورثتها البلاد من عهد الاحتلال المديد وأسلوبه الفريد ٠٠٠



كما سبق التحديد (٠٠٠) فجعلت التعـريب يصطدم بالعديد من الصعوبات ، والمعوقات الطبيعية والمصطنعة الموضوعة في طريقه وضعاً !!

ومع مرور الأيام ، وتقدم الثورة بالبلاد ، زالت العـوائق الطبيعيـة تلقائياً وبقيت العـوائق المصطنعة المتخيلة في الأذهان وحدها في الميدان٠ ومن أبرز هذه المعوقات (الخرافية) المستندة الى الحجج الواهيـة هـي :

أولا : التذرع بالاستعمار ليمثل أفضل الشماعات لتعليق العجز عن التعرب ، أو عدم الرغبة في التعريب ٠٠٠ وذلك بقولهم (المكرر منذ الاستقلال) بأنه لا يمكن أن نبني في بضع سنوات (٢١ سنة) ما هدمه المحتل الأجنبي في قرن وثلث القرن ! ونام هذا البعض متكئاً على هـذه العصا التي نخرهـا السوس من الداخل وهم لا يشعرون !! واذا كانت هذه الذريعة تتطلب بعض المناقشة والتفنيد (من باب ليطمئن قلبي على رأي سيدنا ابراهيم عليـه السلام) فنقول بأن هذا المنطق المبرر لاستمراريـة الاحتلال الفكري والتبعية الثقافية ٠٠٠ وكأننا به يريد من الثورة المستمرة أن تجمد في مكانها منتظرة أكثر من (١٣٠ س) كي تسترجع الشخصية الوطنية الحقيقية التي حاول أن يمسخها المحتل ، خلال هذه المدة الطويلة وما يزال (!!)

أوليس هذا المنطق هو الذي كان يتهم الثوار ابان الكفاح المسـلح بأنهم مجـانين متهـورون ، يريدون تحقيق الاستقلال (المحال) الذي عجز عن تحقيقه من سبقهم من الرجال على مر الأجيـال !؟ وقد كان حرياً بلسان حال هذا المنطق أن يقـول حينئذ (عند أحسن الظنون) : ان الثورة لاتنتصر على الاستعمار الا بعد مدة توازي مدة بقائـه في البلاد ! وبناء على ذلك ، كان على الثورة المسلحة (التي انطلقت سنة ١٩٥٤) أن تنتظـر تحقيـق المرحلة الأولى من الاستقلال سنة ٢٠٧٩ انشاءالله!!

والعجيب حقاً أن هذه الذهنية قـد حققت في فترة ما بعد الاستقلال نشراً للغة الفرنسية في بعض المجالات الحياتية (٠٠٠) تساوي ــ كماً وكيفاً ــ أضعاف ما حققه المحتل الأجنبي ذاته طول بقائـه المادي في البلاد !!

والحقيقة أن المنطق السليم للثورة المستمرة يأتي على طرفي نقيض من هذا المنطق القديم (٠٠٠) فالمنطق الثوري يقر ــ على العكس من ذلك ــ بأنـه كان من الحتمـي وسيظـل من الواجب أن تبقـى الجزائر رائدة في التعريب والثورة الثقافية ، مثلما كانت رائدة ــ بحق ــ في ثورتها التحريرية الخالدة التي لم يكـن جـلاء الاحتلال المـادي على يدهـا سنة ١٩٦٢ الا حلقة من حلقات سلسلتها التحريرية المديدة ، وبداية لمرحلة جديدة من مراحل التحرر الوطني في ميدان الاقتصاد والثقافة والفكر واللسان والأصالة ٠٠٠ واذا جاز لنا أن نقسم الاستعمـار (وهو كلمة في الحقيقة خراب ودمار) الى استعمار مادي ، واستعمار فكري ، بقطع النظر عن تكاملها في عملية التدمـير (٠٠٠) فاننا نقول بـأن زوال الجانب المادي للمحتل لا يعني بالضرورة زوال كل الرواسب الفكرية التي تراكمـت على مر أيـام الاحتلال !!

واذا كان الاستعمار المـادي ملموساً وقابـلا للمشاهدة الموضوعية والملاحظة المباشرة ٠٠٠ مـن طرف المستعمرين (بفتح الميـم) فان الاستعمـار الفكري غير ملموس ؟ وهو يصيب ذوات الأشخاص أنفسهم ، فيرون واقعهم من خلال مرايا شوههـا لهم المستعمر عن قصد ، واهداها لهم باسم الصداقة والموضوعية وهـم لا يعقـلون (٠٠٠) فيحققـون ـ نتيجة لذلك التشويه ــ في أنفسهم بأنفسـهم ــ دون شعور ــ ما قد يعجز المحتل ذاته عن تحقيقه فيهم بالطرق الترهيبية التقليدية المعروفة والمكشوفة !!

ومن ثمة يصبح القضاء على هذا النوع مـن مخلفات الاستعمار من أصعب مهام الثورة المستمرة، لأن الخصم فيه قد يكون هم الحكم ، والمفعول قـد يصبح هو الفاعل في ذات الحين !!



ونظراً لأن احتلال الفكر يتم متأخراً ـ عادة ـ عن احتلال الأرض ، فان خروجه الكامل لا يتم ـ بالتالي ـ الا متأخراً في الزمان ... والخطورة في هذا الأمر ذات علاقة طردية بطول فترة هذا الزمان (...!)

ثانياً : نقل التعريب من قضية تحريرية وطنية وهدف ثوري عظيم ، الى مشكل اجتماعي ، يتوقف حله على عاتق الدولة وحدها مع فئة محدودة من المواطنين ...

والحقيقة أن التعريب ليس قضية فئوية ، وانما هو قضية وطنية ، وهدف ثوري كما نص عليه الميثاق الوطني ... وطالما هو مبدأ ثوري فهو يهم كل الثوار بقطع النظر عن المواقع أو وسائل التحقيق ، أو اللغة التي يجيدها المسؤول (.. أياً كان مركزه) فأهداف الثورة كاملة ومتكاملة لا تقبل التجزئة ، ومن ثمة يجب أن يظل التمييز بالنسبة لهذا الهدف هو تمييز بين من هو مع الثورة والوطن ، ومن هو ضد الثورة والوطن ، استمراراً لمنطق الثورة ابان كفاحها المسلح ، حيث كان الذي يجمع الفئات الوطنية هو الوطن وأهدافه السامية ، والذي يفرق بعضها عن بعض هو موقفها مع ـ أو ضد ـ الوطن ونفس الأهداف ، بقطع النظر عن مواقع المسؤولية ، ووسائل التحرير والتعبير المستخدمة من طرف الطلائع الثورية ...

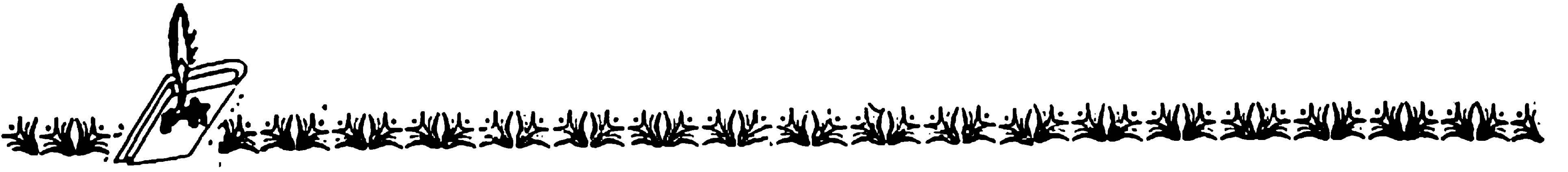
وطالما أن الثورة مستمرة في تحقيق أهدافها فالتكامل يجب أن يظل قائماً ، وفعلا ... والتاريخ في هذا المقام يجب أن يعيد نفسه حتماً ... واذا كان للاستعمار أشكال ، وأنواع .. فان الثورة واحدة ، والوطن واحد ، ومن ثمة يكون نوع الثوري والوطني واحداً ، وهو ان قبل التعدد في الشكل والعرض ، فانه لا يقبل ـ أبداً ـ التعدد في النوع والمحتوى والجوهر ...

ثالثاً : التذرع بقلة الامكانيات المادية والبشرية لتحقيق التعريب ... والحقيقة أن هذه الحجة اذا كانت مساعدة في الستينات على تجميد بعض مشاريع التعريب في الملفات ... فانها في الثمانينات أصبحت حجة للتعريب ، وليست حجة على التعريب ، لأن الامكانيات البشرية ـ الكمية والكيفية ـ أصبحت تفرض نفسها بقوة ، وأن الكفاءات ليست حكراً على فئة لغوية دون أخرى ، وأن الجزائر مليئة بالكفاءات والرجال العاملين المخلصين ، وذلك نتيجة المكاسب الثورية العملاقة التي أحرزتها الجزائر في مجال ديمقراطية التعليم ، وتعريب العديد من فروعه منذ السنوات الأولى للاستقلال...

ولعل الأرقام الناطقة التالية كفيلة بأن تقلب الحجة لصالح التعريب في الثمانينات بعد أن كانت ـ بحق ـ ضده في الستينات : ففي مجال التعليم الابتدائي بلغ عدد التلاميذ حوالي خمسة ملايين في المدرسة ، كلهم يحسنون اللغة الوطنية كتابة وقراءة واستعمالا ... أما في التعليمين المتوسط والثانوي بما فيه التعليم العام والتقني ، وتكوين المعلمين فالعدد بلغ ٩٧٣ ٧٤١ طالباً .

ومن هذا العدد ٧٠٪ ينتمون الى الأقسام المعربة ، و ٣٠٪ من الأقسام المنتمية الى الشعب التقنية ، كالفلاحة وبعض مراكز التكوين المهني ... يتابعون دراستهم باللغة العربية وحدها .

أما في التعليم العالي فقد بلغ عدد الطلبة عام ١٩٧٨ : ٥٤،٦٣٧ طالباً . منهم حوالي ١٢ ألف طالب من معاهد الحقوق وحدها ، وحوالي ١٠ آلاف من العدد الأول معربون ، بالاضافة الى الأعداد الأخرى المعربة تعريباً كاملا . (أي غير مزدوجة) والمتخرجة كل سنة من مختلف المعاهد كالآداب ، والعلوم السياسية ، والاجتماع ، والاقتصاد ... ونعتقد أن هذه الأرقام الملموسة (الرسمية) الصادرة عن وزارة التخطيط سنة ١٩٧٨ لا تترك أية حجة للتذرع بالامكانيات بعد أن أصبحت هذه الامكانيات حجة للتعريب وليست حجة ضد التعريب، مع الاشارة الى أن أول دفعة باللغة العربية ستتخرج هذه السنة (١٩٨٤) بعد توحيد تعريب التعليم في كافة فروع العلوم الانسانية في الجامعات الجزائرية ابتداء من سبتمبر ١٩٨٠ تطبيقاً لقرارات اللجنة المركزية للحزب في دورتها الثانية في هذا الخصوص .



رابعاً ـ التذرع بضعف الكفاءة للاطار المعرب :

وهذه المغالطة يكذبها الواقع ، ويؤكد تكذيبها المنطق ٠ أما تكذيب الواقع لها ، فهو التساوي في أسباب النجاح والفشل بالنسبة للاطارات المعربة القليلة التي قلدت المسؤولية بعد الاستقلال ، بالمقارنة مع الاطارات التي ظلت تستعمل اللغة الفرنسية مما يثبت (عند أحسن الفروض) **أن المسألة متعلقة بالانسان وليست كامنة في اللسان ، وبرهان الثورة التحريرية خير شاهد على ذلك ٠٠٠**
وأما تأكيد المنطق السليم لهذا التكذيب الذي يثبته الواقع ، فهو أن الكفاءة تأتي من التعود ، ولا يمكن للانسان أن يولد كفوءاً (!!) وهل كفاءة الاطارات الحالية هي نفس كفاءتها في السنوات الأولى للاستقلال ؟ قطعاً لا ! ولقد أثبت الجزائريون الوطنيون للاستعمار أنهم قادرون على تسيير شؤونهم بأنفسهم ، وأخذ مستقبل البلاد بين أيديهم على عكس ما كان يدعيه المستعمر العنصري ، بأن (العربي) خلق ليقاد ويسيَّر (بفتح الياء) ولم يخلق ليقود ويسيِّر ، بقطع النظر على الشهادة العلمية التي يحملها باللغة الفرنسية ، أو العبقرية التي يتوفر عليها هذا العربي الجزائري !!

فهل يعقل أن نمارس على بعضنا ، بل على أنفسنا تجربة استعمارية أثبتنا نحن بارادتنا الحرة خطأها بكيفية عملية وعلمية ، لا تقبل أن يجادل فيها عاقلان !؟

خامساً ـ التذرع بصعوبة اللغة العربية واستعصائها ، على الافهام والأذهان (٠٠٠) الى جانب أنها لغة شبه ميتة ، ومتخلفة ٠٠٠ لا فائدة تجنى من وراء تعلمها واتقانها سواء على الصعيد المحلي أو الدولي ٠٠٠

ومجرد نظرة موضوعية (من خارج المرآة المشوهة ٠٠٠) تبين لنا أن هذه الحجة (المركبة والمفبركة) لا تقل تهافتاً عن مثيلاتها الخاليات ٠٠٠ فحجة موت اللغة العربية وعدم جدواها المزعوم ، يكذبه وضعها الترتيبي السادس ما دون الآلاف من اللغات المنتشرة في أقطار عالم الشرق والغرب ، والتي لم تحظ بالمكانة الرسمية كلغة تعامل في الأمم المتحدة وهيئاتها المختلفة ٠٠٠ مثل اللغة العربية ٠

أما حجة الصعوبة والاستعصاء (٠٠٠) فان الأدلة الملموسة الدامغة على ذلك نجدها لدى الفرنسيين أنفسهم الذين يحرص البعض على تقليدهم في كل شيء مما يقولون ، وليس في كل ما يفعلون ٠٠٠ مع أن الفرق بين ما يقولونه لنا وما يفعلونه مع أنفسهم هو الفرق بين الموت والحياة !! هؤلاء الفرنسيون المثقفون الذين أصبحوا يجيدون اللغة العربية ، وقد أثبتوا للذين لا يفكرون بارادتهم الحرة (في مستعمراتهم السابقة) ان الاستعصاء والخلل يكمن في جهاز الاستقبال ، وليس في جهاز الارسال القوي الذي أثبت لنا هؤلاء الفرنسيون أنفسهم ، أنه جهاز في غاية الفعالية عندما يجد جهاز الاستقبال السليم !!

سادساً : المغالطة المكشوفة التي يجتهد أصحابها في جعل الاستقلال الثقافي (عن الاستعمار القديم والجديد) على طرفي نقيض مع الازدهار الاقتصادي للبلاد ، بدعوى أن تشتيت الجهود وتبديد الطاقات الحية والشابة في العمل على استرجاع الشخصية الوطنية (باعتبارها من الموضوعات الهامشية في نظرهم) سيحول دون تحقيق أهداف الثورة الصناعية والزراعية ، ومن ثمة وجدناهم ينصحون بتأجيل موضوع الشخصية الوطنية ، والاستقلال الثقافي الى أجل غير مسمى ، حرصاً على تحقيق الازدهار الاقتصادي ، وكأن بالخبز وحده يحيا الانسان ٠٠٠ !!

والحقيقة أن الاستقلال الثقافي ، واسترجاع الشخصية الوطنية التي مسخها الاستعمار ، وقد خرج من الدار بالنار وفي نفسه شيء منها ، هي مسألة وطنية (وبقطع النظر عن كونها جوهرية مصيرية ، وليست قضية هامشية) فهي مسالة شرف وسيادة وطنية ، والسيادة والشرف من الأمور والمبادىء (المعنوية) السامية التي لا تقبل ـ بداهة ـ أن يساوم فيها ، **أو يستعاض عنها بالترف أو العلف**



(وقد يجوع الحر؛ ولا ياكل مبادئه) وقبل هذاوذاك فان الموضوع طرح بكيفية معكوسة والأصح أن استرجاع الشخصية الوطنية وتحقيق الاستقلال الثقافي يتكامل بالضرورة مع التنمية الاقتصادية المنشودة للثورة ، ولا يتعارض معها أبداً ، وذلك للأسباب التالية : ان الثورة المستمرة الشاملة ذات الأركان الثلاثة : **الصناعية والزراعية والثقافية** كل متكامل لا يقبل التجزئة الا من ناحية المجالات وتقسيم العمل بين الثوار ، واذا كانت الثورة الثقافية أساس الثورتين الآخريين ، ـ بحق ـ **لأنها** عصب الوعي الايديولوجي الكفيل بتحقيق أهداف الثورة المنشودة ••• فان الاستقلال الثقافي المبني على استرجاع مقومات الشخصية الوطنية هو أساس الثورة الثقافية ، وبالتالي فلا يمكن أن تتحقق الثورة الثقافية الا بلغة الثقافة الوطنية باعتبارها النسيج الحيوي للكيان الوطني ، ومن هنا نرى أن الذريعة وضعت بكيفية مغلوطة (وهي أن الاستقلال الثقافي يؤدي الى التأخر الاقتصادي) والأصح هو أن توضع كلمة (عدم) قبل كلمة الاستقلال الثقافي لكي تكون المقولة سليمة ومتمشية مع التفكير التقدمي ، فنقرأ : (ان عدم تحقيق الاستقلال الثقافي سيؤدي الى عرقلة الاستقلال الاقتصادي والسياسي معاً) كما يؤكد ذلك الواقع المعيش للدول المتقدمة ، ذات السيادة الكاملة •

ومجمل القول انه لا شخصية وطنية بدون لغة وطنية مستعملة بالفعل ، ولا وحدة وطنية حقيقية بدون وحدة لغوية مطبقة بالفعل ، واللغة لا تكون رسمية بالاسم فحسب ، وانما هي رسمية بالقول والعمل ، ولو وصفت لغة بأنها رسمية دون أن تكون مستعملة استعمالا كاملا وحقيقياً في الحياة العملية والرسمية للمواطنين ، فان هذه الصفة الرسمية لا تعدو أن تكون شعاراً خالياً من المحتوى أقل ما ينتج عنه على صعيد الواقع : وضع غير طبيعي ، بل مأساوي تنعكس فيه القيم ، فتصير القاعدة استثناء ، والاستثناء يصبح قاعدة ، وتصبح الغلبة للغة الاستعمال (أو الاستعمار) وحماتها لأسباب مصلحية (بطنية) أو ايديولوجية (•••)(حتى ولو لم تكن هذه اللغة رسمية في الدستور) لأن العبرة هنا لا تكمن في التطبيل بالاناء ، وانما هي في الانتفاع بما في الاناء من ماء أو غذاء(!••) كما أن الوحدة الوطنية للأمم والشعوب ليست هي وحدة الجنسية ، والأجساد (الجغرافية) المحكومة بالنواميس الفيزيائية ، والقوانين الوضعية ، وانما هي وحدة القلوب المفعمة بالمشاعر الموحدة نحو الأسس والمقومات المحددة للشخصية الوطنية ، وفي مقدمتها اللغة الوطنية : بوتقة التاريخ ، وناقلة ثقافية الأمة خلفاً عن سلف ، وكذلك وحدة الألسنة والعقول المتحصنة ، والمتفتحة في الثقافة وبالثقافة الوطنية المتجانسة ذات الخصائص المتميزة ، والطابع الواحد ، والأساس الثابت •

واذا أمكن وجود (الفرنسي المسلم) أو (العربي المسيحي) في بعض الحالات • فلا يمكن وجود (الفرنسي العربي) أو (العربي الفرنسي) على الاطلاق ؛ لأن الفرد هنا **اما أن يكون عربياً أو يكون فرنسياً ولا مجال للخنثاوات** ، والانتماء الوطني والقومي مشروط باللغة **والثقافة وليس ـ أبداً ـ بالعرق ومكان الولادة !**

فكم من أمم بدون أوطان ، وكم من أوطان بدون أمم • ومن أجل اقامة الأمم في أوطانها وترسيخ وحدة قلوب أبنائها ، وانسجام أفكارهم ، يكافح الوطنيون ويضحون ، لأن الوطنية تغرق دائماً بالتضحية ، وليست أبداً بالجنسية (•••) تلكم باختصار بعض ملامح المسيرة التعريبية في الجزائر المجاهدة ، ولذلك ، ورغم ذلك ، ظلت المسيرة على الطريق ، وستظل كذلك الى أن تبلغ الهدف النهائي باذن الله ، وارادة الوطنيين ، والنجاح مضمون طالما ظل في طليعة المسيرة مجاهدون ساهموا في عملية تحرير الأبدان والحقول ، وما زالوا يكافحون من أجل تحرير الأذهان والعقول ، لاسترجاع أمجاد الأمة في الوطن ، ولا وجود لأمة بدون شخصية ، ولا وجود لشخصية بدون لغة وطنية مستعملة ، وذات سيادة مطلقة على جميع اللغات (المسماة أجنبية) ، في كافة مجالات الحياة الوطنية) •

أحمد بن نعمان
الجزائر في ١٩٨٤/١/٣٠

الشخصية : في القصّة الجزائريّة المعاصرة

دراسة تتناول الشخصية في خمس قصص

د. عبدالملك مرتاض

الشخصية : هـذا العـالم الذي تتمحور حولـه كل الوظائف والهواجس والعواطف والميول ، فالشخصية هي مصدر الشر في السلوك الدرامي داخل عمل قصصيٍّ ما ، فهي بهذا المفهوم فعـل أو حدث ، وهي التي ، في الوقت ذاتـه ، تتعرض لافراز هذا الشر أو ذلك الخير ، وهي بهذا المفهوم وظيفة أو موضوع. ثم انها هي التي تسرد لغيرها ، أو يقع عليها سرد غيرها ، وهي بهذا المفهوم أداة وصف أي أداة للسرد والعرض ، وببعض ذلك تتشكل ثلاثة مستويات حولهـا ، وقل انها هي التي تشكل هذه المستويات وتخضعها لأهوائها تبعاً للخيط الخلفي غير المرئي الذي يسيِّرها ويتحكم فيها ، والذي يكون وراءه شخص نطلق عليه المؤلف .

والحق أن هـذه المستويات الثلاثة تراهـا شديدة الترابط فيها . اذ تشكل لحمة منسجمة متدرجة من مستوى الى مستوى : فالوظيفة لا تكون ذات معنى الا اذا تبوأت مكانها في السلوك العـام (الحركة أو الفعل) للشخصية ، كما أن هذا الفعل في حد ذاته انما يستمد معناه آخر الأمر من الحدث المسدود ؛ ويذوب في نص يكون له من الصفات الخصوصية ما يجعله منطبعاً بطابع فني متفرد (٢) .

واذا كان المؤلف شخصاً تاريخياً فيزيقياً :شخصاً من لحم ودم وعقل يفكر ، فان الشخصية أداة فنية يبدعها المؤلف لوظيفة هو مشرئب الى رسمها ،فهي اذن شخصية السنية قبل كل شيء ، بحيث لا توجد خارج الألفاظ بأي وجه ، اذ لا تعدو أن تكون كائناً من ورق (٣) .

واذا كان كثير من القراء يحسبون الشخصية الكائن من الورق ، هي شخصاً فيزيقياً فلما يحمل النص القصصي في مألوف العادة مـن دلالات توهم ببعض ذلك(٤) ، وقد كان النقاد قديماً تحسب هذا الحساب وتتوهم أن الشخصيات الروائية القصصية كائنات حية يجب أن تعامل على أساس هذه الصفة، فتساءل بعضهم في سذاجة بادية : « ماذا كان يصنع هامليت أثناء سنوات دراسته »(٥) .

ولعل هذا المنطلق المضيء في تمثل الشخصية هو الذي أفضى بالروائيين والقصاص التقليديين في القرون الأخيرة ، بل الى ما قبيل الحرب العالمية الثانية الى منح هذا الكائن الورقي عناية لا تفوقها الا عناية النقاد بهم حين يتحدثون عن آثارهم . أما النقاد التقليديون اذن فكانوا يفصلون الحديث ، ويطيلون الوقوف أمام المؤلف مطبقين عليه نظرية الذي كان يجب أن يكون هـو موضوع عنايتهـم ، ومحور نشاطهم ، ومراكز اجتهادهم وذلك شأن من النقد مضى مع الزمـن ، وأصبح في حكم معالم التاريخ المنقرض . وأما المؤلفون ، وأقصد هنـا



الى المبدعين في فني الرواية والقصة ، فقد كانوا يستنزفون نشاطهم وينهكون خيالهم في رسم الشخصية حتى تبدو للقارىء شخصاً ذا صفات تاريخية ،مثل هذا السلوك الفني أفضى الى غلواء الشخصية واستئثارها بمعظم عناصر العمل القصصي ٠وذلك أيضاً شان من الحكي مضى مع الزمن ، أو يجب أن يكون قد مضى لشأنه الا لدى بعض من فاتهم الركب الخابط ، وتجاوزهم موكب التطور الزاحف ، فأمسوا يحنثون في ابداعهم الى أمس الدابر ، ويتعلقون بخيوط عهد لن يعود الى المثول أبداً ٠

وان البراعة ، والحق أقول ، كل البراعة كانت تمثل في أعمال القصاصين والروائيين التقليديين في رسم شخصياتهم ٠ فقد كانوا يبدعون في اثبات الشبه بين الشخصية الفنية والشخص الفيزيقي الحي ٠ وقد كان ذلك يتمثل في الحركة التي تقوم بها الشخصية ، والكيفية التي تسرّح بها شعرها ، أو الحركة التي تسوّي بها ثني سروالها ، أو ربطة عنقها ، أو اشعال لفافتها ، أو الكيفية التي تطلب بها شاي أو قهوة بالحليب ٠ كما كانت براعتهم كلها تتمثل في صياغة العبارات التي تتحدث بها هذه الشخصية ، أو العواطف التي تلتعج في صدرها والأفكار التي تدور في خلدهم ، مما كان يجعل القارىء في كل الأطوار ذا انطباع لذيذ عن مثل هذه الشخصية ، (أو الشخصيات) فيعرف من شانها ما استطاع ، ويلاحظ من أمرها ما شاء ٠ فالكتاب التقليديون ، بهذا الموقف ، كانوا يضعون قراءهم موضع الثقة ، جاعلين اياهم يعتقدون انهم في مساكنهم بين الأشياء الأكثر الفة ورتابة٠ فلا غريب يلاحظونه ، كل شيء مالوف وعادي ولا عناء يتجشمونه ، كل شيء سهل يسير(٦) ٠

وعلى أننا لسنا هنا بصدد الحديث عن الشخصية من حيث هي ثابتة أو نامية ، أو من حيث هي أساسية أو ثانوية ، أو خاملة بالمرة ، كما اننا لا نريد أن نتحدث عنها من حيث هي مسطحة ومكثفة ٠ كما اننا لا نريد ، أثناء ذلك ، أن نفصل القيل حول هذه الشخصية في العالم الابداعي التقليدي (ونحن لم نفصل في الحقيقة ، فيما جئناه في هذه العجالة الحديث تفصيلا يسمح برسم المعالم ، وتوضيح المجاهل) ، كما لا نريد أن نقول شيئاً عن الشخصية في العالم الابداعي الجديد (فانا لو جئنا ذلك لخشينا أن يستحيل أمر هذه الدراسة من دراسة الشخصية من حيث هي : تقنياً فنياً ــ ولعل ذلك حين سيحين حينه) ، وانما نريد أن نلقي ضياءما، على سبعة أعمال قصصية لخمسة من القصاصين الجزائريين المعاصرين نتناول من خلالها الشخصيات وسلوكها فيها ٠

والشخصية انما هي أداة من أدوات الاداء القصصي يصطنعها القاص لبناء عمله الفني ،كما يصطنع اللغة والزمان والحيّز ٠ ولكن شان الشخصية في رأينا عظيم ، على الأقل بالمفهوم التقليدي ، في العمل القصصي ، اذ أن العناصر الأخرى تكون بالضرورة مرتبطة بها متفاعلة معها، متأثرة بها ، أو مؤثرة فيها ولكن صلتها بها شديدة ٠ كل ذلك ونحن كما أسلفنا هنا انما نجاري أمر هذه الشخصية ، بل الشخصيات مجاراة تقليدية حتى نتلاءم مع وضعها الذي هو كذلك في جميع الأعمال التي عرضنا لها هنا فالنص يبدو في معظم ماعرضنا له في هذه المجموعات السبع ثانوي الشأن ، وانما العناية بنائها من هلال الى جانيت في (اجازة بين الثورة) ٠ فقد كانت غاية هؤلاء الكتاب أن يقنعونا ، على آداب الكتاب التقليديين ، بأن ما يكتبون فعلا وقع وواقعي ، وان الشخصيات التي تتحرك هي كائنات حية ترزق وتحيا ، وانها لم تك قط كائنات من ورق ، وهو ماتفرضه طبيعة الابداع الذي هو خيال خالص ٠ والواقع لا يكون واقعاً في عمل قصصي ما الا من حيث اقترابه من صورة الحياة دون أن يكون بالضرورة هو الحياة نفسها والا أصبح هذا الأدب تصويراً فوتوغرافياً باهتاً رتيب الشكل ــ فالصورة الأدبية يجب أن تكون أرقى بالضرورة من الحياة ، كاللوحة الزيتية التي ترسم مناظر أو شخصيات أو مواقف ، ولكن أبداً في صورة أروع أو أقسى أو أسمى من الواقع القاصر الجاف٠ ولا يزيد ، ولا نريد أن يحسب ذلك حاسب ، الى أن رسالة الأدب رسالة جمالية مثالية ، فذلك مذهب من الرأي لا يقول به اليوم الا مجنون أو شبهه ، وانما نريد الى أن الأدب يرسم الواقع في صورة أرقى من هذا الواقع فان كان قاسياً فالصورة الأدبية تكون أقسى ، وان كان جميلا فالصورة الأدبية تكون أجمل وهلم جرا ٠ أما ان نعمد الى واقع المجتمع فننقله بسذاجة وقصور ورتابة الى المتلقي ، فان هذا المتلقي لا يحتاج الى رؤية شيء يعرفه ، ربما أكثر من الباث نفسه، وانما يحتاج الى رؤية شيء لايعرفه، له علاقة شديدة بما يعرفه ٠ وهنا تكمن الصعوبة



في التوفيق بين نقل الواقع ، من عالم الواقع الجاف الضيق الى عالم الابداع الندي الأحب البديع• واذا كان من حق الواقع على القاص أن يتحدث عنه وينقله ، فان من حق الابداع الخلاق على هذا القاص أن يتمثله بعبقرية في عملية نقل هذا الواقع عبر سلسلة من الشفرات المعروفة لدى المتلقي ، وهي اللغة •

ومهما تكن درجة السمو في سلوك شخصيات هذه المجموعات السبع ، فان كتابها اتفقوا في محاور على رسم شخصيات نموذجية يمكن نقلها من عمل الى عمل دون أن يختل العمل القصصي كثيراً • فشخصية المعلم في « الأضواء والفئران » للفاسي يتمكن نقلها الى قصة « تحت السقف » للسائح الحبيب دون أن تلم على هاتين كارثة ادبية فان سلوك هاتين الشخصيتين متشابه الى حد بعيد ، ومنته الى غاية واحدة ، ومنطلق من مأساة واحدة هي انعدام السكن اللائق •

كما يجوز وضع شخصيتي الفلاحين في «الرجل المزرعة » لابن هدوقة «والسنابل » للسائح الحبيب في كفة واحدة • فكلا الفلاحين يعاني المذلة والاضطهاد والاستغلال : أحدهما من اقطاعي جزائري ، وأحدهما الآخر من اقطاعي أجنبي • بل يجوز أن نضيف الى هاتين الشخصيتين اللتين تؤلفان نموذجاً واحداً للشخصية : شخصية الفلاح هو أيضاً يعاني ما يعاني من الهوان ، وينتهي أمره الى ثورة لم تكلل بالظفر • واذا كانت النهايات لدى هذه الشخصيات مختلفة فان الوظيفة واحدة في القصص الثلاث كل من هذه الشخصيات يتعرض للاستغلال المفرط ، والظلم المنكر ، مما يجعل شخصية «الرجل المزرعة » تثور في هدوء وتحاول الفرار ، وشخصية قلبتان من شعير تثور بعنف ، ولكنها تقع هي أيضاً في قبضة كيد المستعمرين والشخصية الوحيدة التي لا تصنع شيئاً هي شخصية « السنابل» التي تستسلم لقدرها بحزن وتنتهي الى حتفها بيأس ومرض واهتمال • فالموضوع واحد ، والشخصيات واحدة، والتناوب متقارب •

ويتجلى بعض هذا أيضاً في قصتي «المجنونة» المنور و « عزيزة » لابن هدوقة • ففي المجنونة نجد الفتاة التي تحب الفتى الذي تعلم وتزوج امرأة أخرى ، وبعد لقاءات بين الحبيبين تنتحر الفتاة ، فتجعل حدا لحياتها ، وبعض ذلك ما يأتيه الفتى في عزيزة ، فبعد تواصل وتلاق ، ينشأ ما يحول دون زواجهما فيمسي الفتى طريح الفراش ، ويستسلم هو أيضاً كالمجنونة ليأسه ، ويصبح هو أيضاً مجنوناً فيقضي نحبه • واذا كان هذا لم ينتحر بالمفهوم المادي للانتحار ، فانه جاء ذلك بالمفهوم المعنوي له فأمر هنا يتعلق بموقف واحد ونموذج من الشخصية واحد • وقد تكرر هذا الموقف ، وهذا النموذج من الشخصية في قصتين لكاتبين اثنين •

بل اننا لنلفي الكاتب الواحد يتخذ نموذجاً معيناً من الشخصية يتناوله أكثر من مرة كما نلاحظ ذلك لدى ابن هدوقة حين يتحدث عن قضية الهجرة في « ثمن المهر » و « الرسالة » ففي كلتا القصتين يتعلق الأمر بفتاة تخطب ولا تبلغ غايتها من الزواج • اذ في الحالين نلفي شخصية الخطيب تغادر أرض الوطن ولا تعود : احداهما تموت متأثرة بالرطوبة والمرض والعمل الشاق ، والثانية تتزوج بأجنبية • انما الأرضية والطبيعة والاصباغ والأدوات والمناظر والوقائع كلها متشابهة جداً مما يجعل من العملين عملا واحداً ومن الشخصيتين نموذجاً واحداً متكرراً ليس غيراً •

وبعض ذلك ما نلاحظه لدى السائح الحبيب الذي نلفيه يكرر نفسه مراراً في مجموعتيه «القرار» و « الصعود نحو الأسفل » • حتى انه يجوز للمرء أن يغير شخصية من قصة الى قصة أخرى دون أن يختل بناؤها ، أو يلم عليها من ملمات الدهر ما يقلقها • فهو نموذج واحد للشخصية يتكرر أكثر من مرة حيث لاحظنا شخصية شريرة يتمحور حولها الحدث : وهي شخصية المدير العام لشركة وطنية ومغامرة غرامية أو جنسية مبتذلة تقع له مع أمينة سره • وهذا الديدن يتكرر في الأعمال القصصية التالية :

- **شجرة العليق**
- **ناس في الميناء**
- **حفل رسمي**
- **القرار**
- **عرائس الكاراكوز**
- **تصفية**



ففي كل هذه القصص نلاحظ نموذجاً واحداً من الشخصية المتسلطة ، والشخصية الواقع عليها هذا التسلط ، ففي كل حال نجد مديراً عاماً لشركة وطنية غنية وفي كل حال يتعرض عامل من المكتب النقابي الى شر هـذا المدير وحقده ، لأن العامل المستنير انما أراد أن يدافع عن المظلومين والمهضومي الحقوق من العمال الكادحين ، فهي صورة واحدة تتكرر للشخصية بوجهيها : الشرير والطيب • فالشر مصدره مدير متعفن مستهتر بالقيم والخير مصدره عامل طيب • ويتصارع الخير مع الشر وينتهي في الغالب بطرد العامل ، ولو موقتاً ، قبـل أن يثأر العمال له فيتضامنوا معه كيما يؤوب • (انظر الى ص ١٤) •

وبعد هذه الآراء التي عنت لنا ونحـن نقرأ هذه المجموعات نود أن نتوقف ببعض التفصيل ، لدى أعمال قصصية خمسة : عمل واحد لكل كاتب فنفرد له دراسة على حدة •

١ ـ سلوك الشخصية في « هلال » لمنور :

وتلتقي الشخصية في جملة مـن الخصائص والصفات والتصرفات ، ولا سيما في التعرض للظلم ، والثورة على الهوان ، والمعاناة من الاضطهاد أو الصراع من أجل الافلات من قبضة الفقر المدقع ، والتطلع ، في كل الأحوال اما الى حياة أمثل واما الى رفض الواقع القاسـي ـ لدى الحبيب السائح ، وأحمد منور ، ومصطفى الفاسي • ويمكن عد هذه الشخصية نموذجاً لدى هؤلاء الثلاثة ، وهي في معظم صفاتها اما عامل أو فلاح أو سقاء ، وفي كل أطوارها تتعرض ، كما أسلفنا للظلم المبرح والشقاء الممض ولا يلتقي ابن هدوقة مع هؤلاء الثلاثة الا في أعمال قليلة كـ « الرجل المزرعة » و « ثمن المهر » • كما لا يلتقي هؤلاء الا قليلا معه كـ « المجنونة » لمنور •

علـى حـين أن ابن هدوقـة ينفرد برسـم شخصياته ، جانحاً في كثير من الأحوال الى العمـق الفلسفي ، والنزعـة الانسانيـة الشاملة كما في «الانسان» و « الفراغ » و « الوصية » ، ودمعة قديمة، بينما نجد عثمان سعدي يحصر شخصياته كلها في بوتقة واحدة هي الوطنيـة والجهـاد • فكـل شخصياته من الفدائيين والمجاهدين والمناضلين • وهو يلتقي من هذا المنحى ، مع ابن هدوقـة في « المسافر » ، و « يد الانسان » ، و «ابن الصحراء»، كما يلتقي معه ، باعتبار آخر ، في القصص التـي كتبها عن معاناة الشعب التونسي في مجزرة بنزرت • كما يلتقي مع السائح في « البيت الصغير » ، ومع منور في « اجتيـاز خط موريس » ، ومـن بعض الوجوه في « عودة الأم » التي تضارع « الأشعـة السبعة » لابن هدوقة •

وانطلاقاً من هذه الملاحظات ، نستخلص بأن عناصر الالتقاء في الشخصية ، بـين القصاصـين الجزائريين (عبر هذه المجموعات السبع) علـى الأقل أكثر مـن عناصر الاختلاف • وان الائتلاف يشتد بين الثلاثة (منور ، الفاسي ، والسائح) أكثر مـن الاثنين (ابن هدوقة ، وعثمان سعـدي) • وبقدر ما يقترب هذان الاثنان من بعضهما بعض، يبتعدان عن أولئك الثلاثة • وبقدر ما يقترب أولاء الثلاثة من بعضهم بعض ، بقدر مايبتعدون عن ذينك الاثنين • ولكن يظل خيط ممتد يربط بينهم جميعاً هو الصراع من أجل العيش الكريم ، والنضال من أجل حياة أمثل ، أو الاحساس الحاد بمشاكل الحياة في شقائها وسعادتها ، وفي ضرائها وسرائها •

ان هلال منور شخص نصف عمياء ، لا تكاد تبصر الا بعين واحدة ومهنتها سقي المـاء للجيران بدراهم معدودة ، وقد ظلت هذه الشخصية الشقية تستقي الماء من العين لبعض أهل القرية أو أهل الحي القريب من مسكنها خمسة عشر عاماً • كان الهاجس الأول الذي يقارنها ولا يفارقها هو الزواج: هل تتزوج ؟ هل تستطيع ذلك ؟ كيف تستطيع ؟ وان استطاعت مالياً، من هي هذه الفتاة التي تستقبل الزواج بفتى أعور ؟ من هذه التي ترضى به اذن بعلا ؟ ثم أين يقطن ان ظفر بفتاة الأحلام ؟ أفي دار أبيه وامرأته لا تكن له أي حنان ؟ ان امرأة أبيه لن ترضى أن تراه في عش الزوجية • على الرغم من كل الخطوب المدلهمة ، والظروف القاسية استطاع آخر المطاف أن يلين في قلب أبيه وامرأته ، فيقترن بفتاة عرجاء ، ثم لا يلبث أن يولدها جارية ألفى فيها سعادته الضالة ، ولكن امرأة أبيه الشريرة ، وأباه المتخاذل يدبران لزوجه ما يدفعها الى مغادرة البيت وصبيتها وهنا تتأزم شخصية هلال وتتصارع مع الشر ولكن في الهواء ، اذ أن ضعفهـا وضآلة حيلتها يجعلانها تستسلم لليأس والهوان ، وتنتهي حياتها باحتراف التسول والتشرد في بعض شوارع قسنطينة الشعبية •



ان شخصية هذا الفتى الفقير الذليل البئيس هي الشخصية الأولى في قصة « هلال »، ولكن هذه الوظيفة التي أوكل اليها النص ان كانت تستجيب لما أراد لها هو ، فانها لم تؤثر في أنفسنا ببؤسها والظلم الذي صبه الأبوان عليها • ولعل ذلك يعود الى كونها هي نفسها مستسلمة في أصل تركيبها وتكوينها الى ما قدر لها ، بدون مقاومة ولا محاولة للنجاة من موقفها الشقي • فقد كان يجوز لها أن تمضي في سقي الماء للجيران وتكافح الى أن تحصل على غرفة ما في منزل ما تكتريها •

ثم ان الزوج كيف تغادر البيت دون أن تحاول الصبر أكثر؟ فقد كان يمكن للزوجين التعاون بالقيام بعمل ما من أجل التخلص من هذا الشر ، فما دام النص يثبت بان زوج هلال كانت نشيطة جادة في شؤون المنزل ، فما كان يحظرها من القيام ببعض ذلك لدى أسرة من هذه الأسر الموسرة والتي لاتبرح تنشد هذا الصنف من الغدم دون أن تعثر عليه ؟ ان عاهة العرج ، كما يفهم من النص ، ان كانت افضت الى اساءة لهيئة جمالها ، فانها لم تمنعها من العمل والكد في البيت ، فماذا كان يمنعها من المضي في بعض ذلك لتظاهر بعلها الشقي ، فيتخلصان من جحيم حقد امرأة الأب بحصولهما على غرفة ملائمة لحالها الرثة ؟

وهذه الشخصية بحكم هذا السلوك المستسلم، لا يمكن الا أن تصنف في جنس الشخصيات الثابتة، ابتدأت سلوكها ذليلة ، وأنهته ذليلة ، في اتجاه واحد : هو الاستسلام للقضاء والقدر ، بل الاستسلام لارادة الأب المتنكر لأبوته ، وامرأته المتغطرسة عليه • لقد سلكت خطاً مستقيماً لاينكسر ولا يميل ، بل كانت تمضي الى نهايتها المقدرة لها بشيء كثير من السرعة والرضاء ، أي بالتسلح بشيء ليس اسمه الا الاستسلام نتيجة لليأس الضارب في أعماقها بحكم تكوينها ، وهذه الشخصية بالاضافة الى ثبات سلوكها عبر خط مستقيم يبتدىء من أعلى وينتهي الى أسفل في انحراف (حتى لا يكون خطاً عموديا) ، فانها مسطحة ، لأنها لم تستطع مفاجاتنا بأي حركة في سلوكها المستسلم • فقد كان يجوز ، كما أسلفنا ، أن تصنع اي شيء الا أن تخضع لارادة امرأة الأب التي يصورها النص قوية الشخصية حازمة ذات سلطة نافذة •

ان شخصية هلال لأبسط شخصية وأشدها سطحية يمكن أن توجد على الأرض فلا تناقص في سلوكها ، ولا تبدل في ميولها ، ولا شيء مما يجوز أن يعطي للحركة الدرامية تأزماً حاداً يعصف بالمتلقي ويجعله شديد الاقتناع والتأثر بمايتضمنه النص ، متفاعلا معه ، متأثراً به • ولم يكن متنظراً بعض ذلك طالما كانت شخصية هلال هي نفسها عاجزة عن مواكبة الحدث منعدمة التأثير في اتجاه مسيرته •

□ طريقة عرض الحدث :

يصطنع النص في هذه القصة الطريقة البسيطة التقليدية في عرض الحدث حيث انه يتحدث عن الشخصية وهو يستعمل ضمير الغائب •

وهذه الطريقة تسمح بعرض الحدث بيسر وبساطة ، ولكنها تحرمه من الحيوية والانتقال الزمني • ان المتلقي يشعر بأن الحدث قد وقع وانتهى أمره ، وان المؤلف أو الراوي هو صاحب السلطان والأمر فيه : متحكماً ومهيمناً • ان استخدام ضمير الغائب في رأينا يغلق على الشخصية أبواباً كان يجب أن لا تغلق في وجهها • بل ان هذا الاستخدام قد يكون ضرباً من السلب الطبيعي لحرية سلوك الشخصية عبر مجاهل النص • فالراوي هنا هو البطل الأكبر ، لأنه هو الذي يديرها بأحكام وانها هي لا تعدو أن تكون دمية متحركة تخضع لسلطانه الصارم • ولعل الذي أفقد شخصية هلال كثيراً من الحركة البسيطة التي كان منتظراً منه أن ينهض بها عبر النص ، لأنه كان مسيراً ، ولم يك مخيراً ، كما يقال •

واذا كان معظم الرواة يصطنعون هذه الطريقة في عرض الأحداث التي تنهض بها الشخصية داخل القصة أو تقع على كاهلها ، وهي الطريقة الأشيع اذن فان ذلك لا يعني انها هي الأمثل بالضرورة فقد رأينا انها تساهم في اضعاف حرية الشخصية من جهة ، كما تفضي الى قوة حضور الراوي الذي نحس به عبر كل جملة تقال ، أو حادثة تحدث •

ولعل الذي زاد من رتابة هذا العمل القصصي في جانبه المتصل بسلوك شخصية هلال ، وهي الشخصية الأولى في هذه القصة ، ما اختاره الراوي من الزمن الماضي ، والماضي في مالوف العادة زمن ميت يفضي في الغالب الى افتقاد الحدث حضوره



وثبوته واستمراره . وان هذا الزمن الذي أسمح لنفسي بوصفه بالميت ، ليستقبلك في أول جملة تقرؤها من نص القصة :

« كان هلال يقطع منعطفات الزقاق في سير بطيء ، وخطى متثاقلة خائرة ... »(٧) . ولولا اننا نخشى أن يكون في حكمنا شيء من الشطط على النص ، لزعمنا ان هذا الوصف الذي نقرؤه في أول جملة من القصة ، انما يصدق على نفسه ، فالحدث في « هلال » فعلا بطيء متثاقل ، ولا يكاد يمضي الى أمام الا بخطوات وئيدة طوراً ومتثاقلة طوراً آخر . وقد تضافرت على هذه السير المتثاقل لخطى الحدث داخل الفني الذي هيىء لـه عدة معطيات منها أن طبيعة الشخصية التي اختيرت لهلال لم تكن تفرض أكثر من هذا التباطؤ وهـذا الجمود داخل اطـار الأحداث العاصفـة ، فهي شخصية بحكم طبيعتهـا الاستسلامية جاء اليهـا من كونها شخصية عوراء لا تستطيع أن تؤثر في الحدث ، فضلا عن أن تفرزه ، من أجل ذلك ألفيناهـا تقابـل كل حركة حديثـة بالاستسلام والحزن الى نهاية المطاف .

ثم لعل مـن تلك المعطيات أيضاً ما اختـار الراوي من زمان . فالماضي ، كما أسلفنا القيل ، لا يظاهر النص على التدرج السريع في اطار الحدث المرسوم ، كالحاضر الذي يجعـل الحدث مصاحباً للفعل ، أي اننـا نجد في العادة السلوك مصاحباً للزمن ، أي ان الحدث والسلوك يتزامنان معاً .

من أجل كل ذلك نلاحظ أن شخصية هـلال تصاراها داخل هذا العمل القصصي ، مصاحبـة الحدث، وفي أحسن الأحوال تندمج فيه على نحو ما. ومركب النقص الناشىء عن العاهة هو الذي قد يكون سبب لها هذا الضعف البادي ، وهذا الضعف أفقدها قوة الافراز الحدثي فما عدا ذلك السلوك الذي تسلكه شخصية هلال مع الأب بعد حادثة طرد الصاحبة والصبية من الدار ، والذي حاولت فيـه الشخصية الوقوف في وجه الأب المتخاذل ، لم تصنع قبل ذلك ، أو بعده شيئاً ذا بال يمكن أن يفضـي الى احراز حدث ما وحتى ذلك الموقف المتسم ، نسبياً ، ببعض القوة في أوله يستحيل آخر الأمر الى مذلة شنيعة .

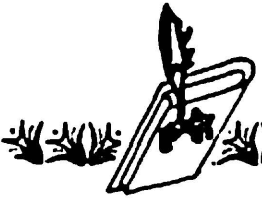
وكذلك لا ينشأ عن هذه الشخصية الضعيفة شيء يذكر ، فهي لم تستطع خلـق مشكلة واحدة كما لم تستطع حل مشكلة واحدة ، فوجودها كان تكأة لنسج أدبي قصاراه تصوير مأساة .

٢ ـ سلوك الشخصيـة في « الأضواء والفئران » لمصطفى الفاسي :

هناك عدة شخصيات تظهر على خشبة الأحداث داخل « الأضواء والفئران » كالمعلمة ، والتلاميذ والحلاق والسمان ... ولكـن هـذه الشخصيات لم تك متصودة لذاتهـا في النص ، وانما وردت لضرورة فنيـة كان لا مناص منهـا ، ولـذا فان شخصية المعلم هي المقصودة بذاتها ، وهي التي أريد رسمها بحيلة واتقان . واذ نعلم بأن معظم الرواة (المؤلفين القصصيين) هم في أصلهم من المعلمين أدركنا سر اختيار كثير من القصاصين لشخصياتهم من المعلمين والحق أن هذا يعود أيضاً الى عظم شأن المعلم في أي مجتمع متعلم متحضر ، فعلاقة المجتمع بالمعلمين علاقة يجب أن تكون حميمة .

وشخصية المعلم هنا متشائمة ناقمة من حالها، يائسة في حياتها يبدو ذلك اليأس في سلوكها وحديثها وأمانيها ، وهذا اليأس تولد له مـن واقع محتوم انفرض عليه، فحرمه من الحصول على منزل مقبول يتيح له أن يؤلف أسرة صغيرة يسعد بوجودها . ثم ان هذا اليأس يتجلى بعنف في سلوكه آخر المطاف الذي يتمثل في السطو على منزل ليس له . وهـو سلوك جشمه الانزجاج في سجن مظلم ، وأفقده في راي المجتمع الذي لا يرحم السجناء الاحترام الذي كان منتظراً أن يتبوأه معلم ممتاز .

وهـذه الشخصية ليست في شيء مـن جنس شخصية هلال لمنور ، بل هي شخصية قوية متفلسفة وثائرة ، وهذه الصفة أهم من كل الصفات . فقد كان منتظراً من شخصية معلم أن تكون مثالية شاحبة مستسلمة بل فانيـة في الأحداث ، ولكـن ما كان منتظراً ، وما يفهم من سلوك هذه الشخصية في بداية القصة ووسطهـا لم يلبث أن يتغـير فجاة فتقرر الشخصية السطو على مسكن آخرين وأروع مـن ذلك فانها حين تزج في السجن تعبر عن سعادتها في هذا السجن . وهذه فلسفة بادية في تفكير الشخصية التي كأنها بررت سطوها على ذلك المنزل ، وان الحدث وقع مع التعمد وسبق الاصرار ، كما يقول رجال القانون .



وهذا التغير المفاجيء ، وهو من حقها وواجبها معاً ، يجعلها شخصية متحركة تتمتع بارادة قوية ، ومبادرة عالية في السلوك وكان الراوي هنا ترك حرية التصرف لشخصيته لتعبر عن سخطها على الانتظار فكان ذلك مجسماً في هذا السلوك المفاجيء • ثم انها شخصية مركبة لما نلاحظ في تفكيرو سلوكها من تناقضات • فبعد أن كانت هذه الشخصية تلقن أصول الأخلاق لتلاميذ المدارس ، وتبث فيهم روح النزاهة والاستقامة وكل الخير ، ألفيناها تسلك غير ما تفكر وتنتهي الى السجن • ثم ان سلوكها في معظم مراحل القصة كان ينبيء عن شخصية مستسلمة شاحبة ، كما أسلفنا ، ولكن ذلك لم يصدق ، وتحولت من بعد ذلك الى شخصية مدمرة ترتكب العنف من أجل نيل مبتغاها •

والحق ان هذا السلوك له ما يبرره في واقع المجتمع الخلفي، فقد كان الناس في بداية الاستقلال لا حديث لهم الا عن السطو على المنازل الفارغة والاستيلاء عليها ، والتملك بما فيها من أثاث وهي الظاهرة التي اختفت اليوم اختفاء مطلقاً مع استتباب النظام ، من أجل ذلك نجد هذا الموضوع نفسه يشكل لحمة (تحت سقف) الحبيب السائح ، كما سنرى بعد حين •

□ طريقة عرض الحدث

وهذه أيضاً طريقة تقليدية تعدل على اصطناع ضمير الغائب ، وتقدم الشخصية للمتلقي جاهزة ، فكل شيء يمضي الى غايته بنظام معلوم ، والراوي هو صاحب السلطان ، وهو المتحكم في مسيرة الأحداث بقوة ولولا ذلك الحوار الذي كان يطالعنا من حين الى حين فيجعلنا نعرف الشخصية وأهواءها من خلال بعض ما تتحدث به لبهتت الأحداث وشحبت شحوباً • فالراوي ، كما يبدو ذلك من قراءة النص ، بحكم اصطناع هذه الطريقة في الحكي ، هو وحده الذي يعرف كل شيء عن الشخصية وخصائصها وتفكيرها ومصيرها أيضاً وهذه البراعة ان حمدت في العهود التي كانت الشخصية في العمل القصصي أو الروائي هي كل شيء ، فاننا لا نحمدها اليوم ، لأننا أصبحنا نمنح عنايتنا للنص أكثر من الشخصية التي يجب أن تتجلى قوة سلوكها من خلال النص نفسه ، ما دامت هذه الشخصية ليست شخصاً فيزيقياً ذا لحم ودم •

ولكن الذي خفف من وطيء غلواء الشخصية نسبياً ، ومن غلواء الراوي بوجه أخص ، هو ما اصطنع الراوي من زمن أغلبه يصاحب سلوك الشخصية ويواكب تفكيرها • وزاد النص خفة ورشاقة ذلك التنوع في الانتقال من ضمير المتكلم الى ضمير الغائب داخل زمن حاضر • وكان ذلك يبدو من أول جملة في القصة: « ويخرج من الباب الواسع هرباً من الصخب ، يجر رجليه المثقلتين بالارهاق اليومي ••(٨) فالمضارع هنا حال ، والحال حاضر، والحاضر حضور ، والحضور قيمة فنية متجددة ، لا ينفد عطاؤها ولا ينقضي زادها : فلو اصطنع الراوي عن خروج هذه الشخصية العبارة التقليدية: كان خارجاً من الباب ••• »

لكان قد صفع أذواقنا، وأفقد سلوك الشخصية أجمل ما فيه ، بقتل هذا السلوك بدفنه داخل ماض مظلم •

ولم يقف الأمر لدى هذا الحد من التعامل الحي مع الزمن ، بل جاوزه الى استعمال ضمير المتكلم ، وهو ضرب من الحوار الخلفي ، أو المناجاة الذاتية التي يطلق عليها الغربيون المونولوج ويتمثل ذلك في مقاطع كثيرة تنتقل فيها الشخصية من مركز استقبال للحدث ، الى مركز صنعه بتقمصها ضمير المتكلم ••• هنا نجدها حقاً مفرزة لعناصر فنية غنية ••• تجعلنا نتابع الحدث وكانه هي ،ونتابعها هي وكانه هو • ان مثل هذا الامتزاج الفني كان يسمو بالنص أطواراً الى مستوى فني رفيع •

ومن الأمور التي منحت نص « الأضواء والفئران » حيوية فنية شيقة ذلك التعامل الذكي مع الزمن فان النص عوض أن يحدثنا عن زمن الصيف أو زمن الشتاء بطريقة مفضوحة كان يعمد الى اخبارنا ببعض ذلك بوصف حال هذا الزمن فنفهم نحن فصله فهماً ، كما يتجلى ذلك مثلا في قوله « برودة المساء كانت تسري في عظامه ••• »(٩) فهذه البرودة هنا تكشف لنا عن زمن الشتاء ، لأن أماسي الصيف لا تكون في مألوف العادة الا رطيبة ممتعة ، لا باردة ، فالبرودة في هذا النص لا تعني الا بعض هذا الزمان ، وبعض ذلك ما يؤكده النص تارة أخرى حين يصف هذا الزمن بسلوك الشخصية التي تفزع في بعض تطوافها الى الجمة ، ثم تخرج منها وهي « تشعر بشيء من الحرارة في دمها منتصرة على برودة المساء »(١٠) •



فالبرودة هنا لم تذكر هدراً ، وانما وظفت لغايتين فنيتين :

احداهما أن هذه الشخصية لاتتورع في احتساء الخمر • وكل مدمن يلتمس لنفسه ألف عذر في الشراب ، ولا سيما في زمن البرد طلباً للحرارة التي تبعثها هذه المادة في الدم فيتدفأ ، فيسري فيه نشاط ورسيس • واحداهما الأخرى أن هذا الزمان برد وزمن البرد معلوم بين الفصول فلا مدعاة الى ذكره بحرفه ، ولا حاجة الى سرده بنفسه ، فالأدب ايحاء ورمز وذكاء مدسوس للمتلقي الذي حقه وواجبه أن يساهم في عملية الابداع •

وهنا تعامل أرقى وأذكى مع الزمن ، ويتجلى في وصف مادة أو شيء أو شخصية وبواسطة هذا الوصف ، أو تلك الحال ندرك دلالته الزمنية ادراكاً دقيقاً أو ادراكاً ما ، موحياً ، ويتمثل ذلك في مواطن من النص منها : « الصلعة التي تزداد مساحتها كل يوم » •

فالصلع ظاهرة تغزو في كثير من الأطوار ، الرؤوس بعد ادراك سن معينة ، فنادراً ما يغزو الصلع المرء قبل سن الثلاثين ، وذكره هنا انما يدل على السن المتقدمة لهذه الشخصية أي على زمن سلخته الشخصية من عمرها • ومثل ذلك ما يمكن استخلاصه من قوله أيضاً : «جذع شجرة كبيرة»(١٢) اذ لا يجوز تصور كبر الشجرة وضخامتها بمعزل عن الزمن الذي أتى عليها ، فالزمن وكره هما اللذان أفرزا صفة الكبر التي تتسم بها هذه الشجرة وجذعها ، فلو لم يصف الشجرة وتركها بدون تقييد لكان الزمن فيها أقل دلالة ، أو أبهم دلالة على الأقل ، لأننا في هذه الحال لانكون قادرين على تمييز الزمن الذي قطعته الشجرة من عمرها ، فالجذع يمكن أن يكون لأي شجرة تنفصل من طور الفسل ، ولكن بفضل هذا الوصف الدال على الكبر ، استطعنا أن نتصور عمر هذه الشجرة بأنه طويل ، أو طويل نسبياً ، أي اننا استطعنا تصور السنوات الطويلة التي سلختها هذه الشجرة من عمر الزمن•

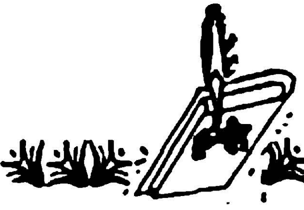
والشخصية هنا ، من حيث تعاملها مع الزمن، ومن حيث اندماجها في الحدث أو افرازها له ، نلاحظ انها تتسم بالهدوء والسكون ، أي انها تسلك في تعاملها مع الحدث سلوكاً فلسفياً فيه كثير من الرضا ، فالثورة النفسية انما تضطرم داخلياً ،ولا يشعر المتلقي ، بأي عنف ولا غضب ولا سخط الا حين تقرر الشخصية فجأة السطو على منزل غير مقطون ، واذن فالسخط لم يتجسم في أي سلوك طول القصة ، وانما تجسم في آخرها ، كما أن موقف الشخصية من السجن الذي ألقيت في غياباته كان موقفاً فلسفياً متسماً بالهدوء المشوب بالسخرية من القدر لم تك في حقيقتها رضاء بالقضاء بقدر ما كانت ضرباً من التعبير الحزين •

ومن خلال بعض هذه الملاحظات يتبين أن شخصية المعلم سايرت الحدث وواكبته دون أن تؤثر فيه شيئاً في معظم مسيرة القصة ، وانما أفرزته حين قررت السطو على منزل ، وترجمت النية الى سلوك، والهم الى تصرف ، وانها أذعنت له ، وأصبحت هدفاً لتأثيره الخارجي حين ألقي القبض عليها وقيدت الى السجن صاغرة ذليلة ، فهناك اذن مراحل ثلاث مر بها الحدث داخل هذه القصة ، وفي كل حال كانت الشخصية تتقمص سيرة تخالف السيرة الأخرى•

٣ ـ سلوك الشخصية في « اجازة بين الثوار » لعثمان سعدي :

تعج هذه القصة بالشخصيات ، ولكن معظم هذه الشخصيات لا تظهر على خشبة الأحداث الا مرة واحدة ثم تختفي • وهذا أمر منتظر في تقنيات القصة القصيرة التي لا تحتمل الاطالة في التقديم• واذا استثنينا شخصيتي مصطفى العريف ،والضابط علي الأسمر اللتين ارتسمتا بعض الارتسام لدى المتلقي ، فان الشخصية الوحيدة التي تنهض بكل شيء هي شخصية الفتاة الفرنسية جانيت •

وشخصية جانيت شخصية مغامرة مرحة متعلمة، رقيقة العواطف ، متأهبة تأهباً فائقاً لاستقبال أي عاطفة دافئة مخلصة ثم تحويلها الى بركان هائج من الحب العاتي ، فالشاعرية التي تهيمن على روح جانيت جعلت منها شخصية محبوبة تتطلع نفس المتلقي الى معرفة المزيد من أمرها ، والى متابعة مغامرتها التي لم تقصد اليها قصدا ، وانما وقعت لها اتفاقاً ، ولم يرد الراوي للقارىء أن يجهد نفسه ليعرف طبيعة جانيت من خلال السلوك والتفكير ، بل قدم اليه ذلك جاهزاً في مبتدأ القصة واراحة من كل جهد فاذا هو يعرف عن هذه الشخصية كل شيء، وكل ما جاء في القصة من بعد ذلك من أحداث رتيبة لم يك الا توكيداً لنهم هذه الشخصية من حب الطبيعة والناس والحياة •



والشخصية هنا ، تروي الحدث لغيرها بنفسها وطريقة الحكي لديها بسيطة ، تسرد ما وقع لها في رسالة تبعث بها الى صديقتها ارليت من الغزوات الى تلمسان ، ونتيجة لذلك، فان الشخصية هنا لاتساير الحدث وانما تحكيه حكياً ونتيجة لذلك فقد اصطنعت هي أيضاً الزمن للتعبير عن هذا الماضي وان كانت اصطنعت بحكم انتصابها للحكي عن نفسها ضمير المتكلم ، ولعل هذه هي القصة الوحيدة في هذه المجموعات السبع التي تصطنع بصورة كاملة ضمير المتكلم • وهذه الطريقة أضفت على الشخصية حيوية وخفة ، وجعلت المتلقي ، حسب ظني ، يتابع مسيرة الحدث بشوق ولذة ، وفي بعض الأطوار ، بنهم •

وبقدر ما كنا ألفينا شخصية هلال بئيسة ضعيفة ، لم تك الا من أجل استقبال الشقاء والهموم وجرعهما بدون الاجتهاد من أجل التغيير، ثم بقدر ما كنا وجدنا شخصية المعلم ، « في الأضواء والفئران » شخصية متشائمة يائسة ، لا تنتظر من الحياة شيئاً غير اجتراع الجعة والالتذاذ ، فان شخصية جانيت متفائلة ، باسمة ، تحلم بالسعادة في المستقبل ، وتتلذذ بهذه السعادة حيث تظفر بها لو كان ذلك في المغاور والكهوف والأودية والجبال والأكواخ ، ولو كان ذلك أيضاً في جو غريب عنها لم تألفه ولم يألفها ، بل انها كانت تسعد عبر شقاء الآخرين ، فهي تتخذ من جبن الكهل الفرنسي الذي كان ممتطياً الحافلة ، والذي كان يقعد بجوارها تتخذ من جبنه وقلقه متعة تتسلى بها ، فهو يصر على ابقاء نوافذ الحافلة مغلقة على الرغم من الصيف القائظ ، وهي تتجاهل جبنه وخوفه فتهم بفتح بعضها ، هنا تتأكد من جبن هذا الكهل البدين، الأصلع الرأس ، البارز الوجنتين ، ذي العينين الغائرتين في كتل الشحم وأخاديد التجاعيد المحيطة بمحجريهما »(١٣) فتلج في عبثها به من طرف خفي • تبدو في هذه المواقف ، شخصية جانيت ، بريئة وخبيثة ، ولكنها محبوبة في حالي براءتها وخبثها •

واذا كنا زعمنا بأن هذه الشخصية بحكم الحكي المتعلق بالماضي لم تصطنع ، بصورة أساسية، الا الزمن الماضي ، فان الحاضر كان ينجم أمامنا هنا وهناك من خلال المحاورات التي كانت تجري بينها وبين مصطفى العريف ، أو بينها وبين نساء الحي اللواتي استقبلنها بحرارة وود أو بينها وبين ابنة الفلاح الذي ألمت الشخصية على داره ،فنشأت بينها وبين هذه الفتاة مودة وصداقة ، قبل ذلك بينها وبين الكهل الفرنسي الجبان •

والشخصية ، جانيت لم يكن يعنيها شيء قدر ما كان يعنيها التمتع بجمال الطبيعة وتأملها ، فقد ألفيناها تخاطب العريف مصطفى ، حين نزلا المغارة التي يتفجر من حولها ينبوع من الماء الرقراق ،بعد أن تأملت جلال الجبل ، وهيبة الصخور ، وعمق الوادي ، وكثافة الشجر :

ــ ما أجمل المنظر !•• يا للروعة !(١٤) •

فهذه الشخصية،على عكس الشخصيات الأخرى لا تعاني الا مشكلة فراغ في عطلة ، فشاء لها أن تمضيها بين ثوار جيش التحرير ، فهي لا تعاني البؤس والعقد والذل والفقر كهلال ، كما لا تعاني اليأس والتشاؤم كشخصية المعلم المحروم في قصة « الأضواء والفئران » ! وانما تعاني ما تعانيه الفتيات الموسرات من هذا الفراغ المزعج الذي يلم عليهن أثناء فترات العطل فلا يطقن الحياة • فالشخصية هنا ، من هذه الرؤية ، لا تعاني مشكلة، والراوي نتيجة لذلك ، لا يعالج الا قضية تشبه الدعاية لجيش التحرير الوطني ، على الرغم من أن ما كتب حقيقة تاريخية ، ولكن الطريقة التي عرض بها الأحداث لا تخلو من رومانسية حادة فقد كان في غنى عن الوصف بالكلام ، بالوصف بالفعل • فارجاع الفتاة الى أهلها كان كافياً لاعطاء فكرة سمحة عن خلال جيش التحرير الوطني ، ولكن الراوي كان يترك الفعل والحدث والحركة ليغرق في الوصف ، وفي بعض الأطوار في الوعظ الرتيب ، ويتجلى بعض ذلك في حوار مصطفى العريف مع جانيت ، فقد كانت الفتاة في غنى عن أن يعبر لها عن حبه للجبال والوديان والصخور ، حب الأرض والوطن ، طالما كان هو نفسه أحد الثوار الذين يقاتلون من أجل تحرير الوطن فالذي يحمل سلاحاً، يقاتل من أجل تحرير الوطن ، فالذي يحمل سلاحاً، ويقاتل في معركة واحدة فقط من أجل الوطن يصبح في غنى عن زبرجة القول الجميل وصفاً للوطن ، وتعبيراً منمقاً عن حبه ، لفتاة أجنبية •••

وشخصية جانيت من حيث تعاملها مع الحدث، يتسم سلوكها بالهدوء والسكينة ، بل بالغبطة غير المعبر عنها ، فقد كانت تتمنى لو أن كتيبة من جيش التحرير الوطني تعترض سبيل هذه الحافلة، وتمسي هي في قبضة الثوار لتعرف حقيقة أمرهم



بعد أن خاضت الصحافة الاستعمارية في سلوكهم كل خوض باطل وكذلك نلفيهـا تندمج اندماجاً حالماً بالحدث ولكنها لاتؤثر فيه كثيراً بله أن تفرزه بأن تكون محور الصراع فيه • والذي أضعف في رأينا من مسار الحدث ان خلا خلوا مطلقاً مـن الصراع الدرامي، فالفرنسيون الذين كانوا يمتطون الحافلة، على الرغم من أنهم كانوا مسلحين بمسدسات ، لم يأتوا شيئاً ولم يبدوا مقاومـة ، وانما استسلموا خاضعين صاغرين اما الفتـاة فقد كانت تضطرم شوقاً الى العيش في كنف المجاهدين فكان لها ذلك وأما المجاهدون فلم يلاقوا أي جندي استعماري ، ولا حركي ، ولا خائن ولا مارق ، وانما كانـوا يتنقلون من حي الى حي في أمن وسلام •

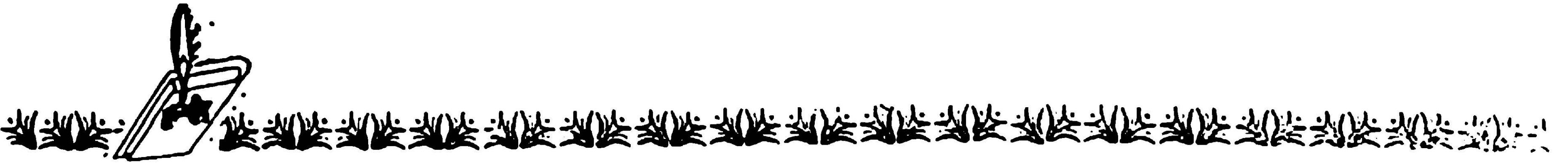
وقد كنا نتمنى لو أن الراوي جنح بالحدث ذات اليمين أو ذات الشمال ، فجعل من هذه الفتاة التي وقعت في قبضة جيش التحرير الوطني مصدراً للصراع بين الجيش الاستعماري والثورة ولو جاء ذلك لأصبحت هذه الشخصية شخصية مولدة للحدث دافعة اياه الى أمام بقوة وحيوية وخصوبة عرض أن تكون شخصية لا تأخذ ولا تعطي ، وانما تساير وتتابع فحسب •

والحق أن الحدث الحقيقي انتهى في بدايـة القصة بالقيام بوقف الحافلة المعادية واحراقها ، وأسر الفرنسيين المسلحين ، وتسريح الجزائريين، اذ لم يحدث بعد ذلك ما يعكر صفو الحدث أو يقوم دون تطوره ، بل يستحيل هذا الحدث الى حكايـة رتيبة تنتهي بدون نهاية لأن نهاية العقدة بالنسبة مثلا لشخصية الكهل الفرنسي الجبـان تتمثـل في سقوطه أسيراً بين أيدي من كان يهابهم ، وتتمثل بالقياس الى الفتاة في وجودها بغتة بين ظهراني من كانت تحلم برؤيتهم والعيش ، ولو للحظات قصار، في كنفهم ، وما بعد ذلك كله مجرد حشو وفضول ، اننا لو تمثلنا خطاً بيانياً يجسد أطوار الحدث داخل هذه القصة بالقياس الى حركة الشخصيات فيها ، لتوصلنا الى أن هذا الخط يتصاعد في أول عهـد الحدث بالقصة ، ولكن سرعان ما يهبط الى مستوى الصفر ليمتد أفقياً مـن بعد ذلك رتيبـاً لا يكاد يتصاعد ولا يتنازل الى أن ينتهي على حاله ،ويمكن أن نذهب ، من هذه الرؤية ، الى أن القصة انتهت في بداية أمرها ، وان النص الحدثي لا يجاوز هذه البداية ، أما ما وراء ذلك مـن النص فتسطيح وتأفيق •

٤ ـ سلوك الشخصية في « الرجل المزرعة » :

يختلف قانون الشخصيات هنا عنـه في جميع القصص الخمس التي عرضنا لها هنا في هذا الفصل، ذلك بأننا نلفي ثلاث شخصيات تنهض بأدوار متقاربة في عظم شأنها وهي الفلاح اللائذ بالفرار ، وابنه الثائر على الوضع الذليل ، والمعمر الناقم من الفلاح وأسرته فالفلاح يقرر فيها بينه وبين نفسه ثم فيما بينه وبين زوجه ، أن يزايل هذه المزرعة التي لم ير فيها الا الاضطهاد والهوان ، والاستغلال والذل وبعد أن يجمع أمره ، يتحرك ، فيتحرك معه الحدث ،بل انه هو الذي حرك الحدث أساساً ، وان لم يستطـع لدى نهاية الأمر التحكم فيه فهو الذي زمر أثاثه ، وحمله على الحمار ، وقاد أفراد أسرته الى نحو ما وراء مزرعة ليونارد ، فهو ، من هذه الناحية المحرك الأول للحدث والمفرز له الى نهاية المطاف • بيد أن شخصية ليونارد لم تستسلم ولم تذعن لارادة الفلاح فاذا هي تكمن له ، بعد أن علمت بالخبر بواسطة الجاسوس ، أبي رقية ، ثم تقود شخصيـة الفلاح والأسرة المواكبة له الى داخل المزرعة بقوة السلاح، لكن شخصية ابن الفلاح لم تستسلم هي أيضاً لارادة المعمر ليونارد ، فقررت وحدهـا ، ودون تخطيط سالف ، أن تطعن المعمر بالخنجر الذي كان مدسوساً في بعض سرابيلها • فالشخصيات الثلاث تتصارع فيما بينهـا : كل منهـا يريد أن يستبد بالموقـف الحدثي لنفسه حتى الابن لم يشأ أن يطيع أمر والديه اللذين أصرا على البقاء داخل مزرعة المعمر بعد فشلهما في الفرار ، ولكنه هو أيضاً يصر على مغادرة المزرعة الى نحو الثورة ، أو الى أي جهة أخرى الا أن يبقى يحيا تحت جناح المذلة والمهانة •

وشخصيـة الفلاح ، اذا حق لنـا أن نؤوب القهقرى اليها شخصية قوية ، قادرة على اتخـاذ القرار بدون استشـارة ولا ضعف • فهي تقـرر الرحيل ، كما أسلفنا ، قبل استشارة الزوج ، ثم هي تقرر البقاء لدى نهاية الأمر داخـل مزرعـة المعمر دون انصياع الى رأي الابن الشـاب الثائر واذا كانت شخصية الابن تبدو قوية ، فان قوتها في حقيقة الأمر طفحت بغتة حين قررت طعن المعمـر ثم حين قررت الذهاب الى غير وجه • فقوتها قصيرة الزمن في مسيرة الحدث ولكن تأثيرها كان خطيراً ، اذ استطاعت أن تغير مجرى نهاية الحدث فاذا هو يتخذ لنفسه طريقين كلاهما ينتهي الى خط بياني



متصاعد فالأب حتماً سيعاني مشاكل مدلهمة جزاء على ما قام به ابنه ، وعلى محاولته الفرار من المزرعةدون اذن المعمر والابن أيضاً لم تحل مشكلته، وانما ابتدأت بالبحث عن عالم جديد •

وواضح أن الشخصية الشريرة هنا انما هي شخصية المعمر ليونارد ، فهي من هذا المنحى ذات افراز حدثي خصب اذ بفضل الشر الذي جبلت عليه، والظلم الذي ركب فيها ، حالت دون خروج الفلاح وأسرته من المزرعة ، وهذا الموقف فجر ثلاثة احداث خطيرة تعرضها هي نفسها للطعن ، وتعرض أب الأسرة الى اهوال وطوائل تحس في القصة ولا ترى كما تضطر الابن الشاب الى مغادرة أسرته لأول مرة، على صغر السن : مغادرتها الى غير رجعة ولولا أثر هذه الشخصية اذن لما انتسج الحدث وارتسم مساره على هذا النحو في نص القصة وأما الشخصيات الباقية في القصة فهي ليست ذات شان وما تقوم به من أحداث لا يعني شيئاً ذا بال •

وأحسب أن الراوي وفق الى حد كبير في رسم الحدث بما اصطنع له من زمان فكنت تراه : طوراً يدل على حاضر ، وطوراً على ماض ، وطوراً على مستقبل • ويتمثل هذا في الحدث المضمن في نهاية القصة ، فان خيال المتلقي سيسرح ليعرف مصيري الابن الفار ، والأب المتورط ، بل مصير المعمر الجريح أيضاً •

وشخصية الابن هنا هي التي تقوم بدور الراوي ، فهي التي تقص علينا الأحداث ، من أجل ذلك اتخذت ضمير المتكلم مما أعطى حيوية لمسار الحدث لا تنكر ، كما أعطى قوة لحضور الشخصية داخل العمل القصصي وهذه الشخصية لا تمتلك أي صفات عالية ، فهي أمية لا تحسن القراءة والكتابة لأنها ولدت في المزرعة ولان أبناء الفلاحين لم يكونوا ينعمون بالتعليم ، في أي شكل من أشكاله ولكنها شخصية ذكية ، قوية ، ومتدفقة الاحساس أيضاً : فهي تجمع بين كل هذه الخلال • ولعل العاطفة الجياشة ، الطافحة ، هي التي أزجت شخصية الفتى ، الى أن تحب رقية بنت الفلاح المتعاون مع ليونارد المستغل ، الفلاح الخائن الذي كان يفشي أسرار الفلاحين ويذيع من أخبارهم ما ينتفع به هذا المعمر الحقود ، فشخصية الابن من هذا المنحى يمكن عدها ذات تأثير عميق في توجيه مسار الحدث وافراز بناته ، فلولا حب الفتى لرقية لما كان أنباها بما أزمعت عليه أسرته من رحيل ، واذن لما كان السر فشا لأبيها الذي سارع الى انباء المعمر الذي رصد الأسرة الفارة وأرغمها على الاياب • فمن هذا المنحى ، ولنكرر ، نلفي الفتى يدفع بالحدث منذ منتصف القصة ويوجه مساره توجيهاً عنيفاً نحو نهاية غامضة • فأبوه أزمع على الرحيل ، ولكنه هو أخبر عنه فتاته التي أخبرت أباها الذي أخبر صاحبه المعمر ، ثم أن أباه استسلم للمعمر ولكنه هو الذي رفض هذا الاستسلام فحاول قتل ليونارد ليخلص الفلاحين من شره المستطير •

ومن حيث شخصية الابن هي الراوية للحدث من أوله الى آخره ، ومن حيث فشت سر الرحيل الى رقية ، وقد كان الأب نصح له أن لا يخبر أحداً من أهل المزرعة حرصاً على نجاح الخطة ، ومن حيث ثورته على الوضع في المزرعة منذ أول وصلة ،ومن حيث ترجمة هذه الثورة الداخلية الى سلوك تمثل في طعن ليونارد ، فان هذه الشخصية هي المركزية ، ثم تليها شخصية الأب ، ثم شخصية ليونارد ، ثم أخيراً شخصية أبي رقية •

وتبدو شخصية الأب مكثفة مسطحة ، كما تبدو شخصية ابنه مثلها فقد فاجأنا الأب بموقفه المتخاذل لدى نهاية القصة حين رفض الفرار من المزرعة في الحين الذي فاجأنا فيه أيضاً ابنه بطعن المعمر ليونارد ومغادرة المزرعة وحده ، وهو موقف لم نكن نتصوره بأي وجه في بداية القصة حيث كانت شخصية الابن تبدو شبه محايدة ، مرحة ، لبقة : تسخر من ليونارد وتحلل الوضع المؤلم داخل المزرعة ، ولكنها لم تكن تبدي أي امارات للقدرة على اقتراف العنف والانتقال بغتة من موقف المذلة والتفرج ، الى موقف التغيير الفعلي ، فهي أيضاً من هذه الرؤية شخصية نامية غنية وأقل منها شخصية الأب ، أما شخصية المعمر فهي مسطحة من وجهة ، وثابتة من وجهة أخرى •

٥ ـ سلوك الشخصية في « تحت السقف » للحبيب السائح :

هناك شخصية واحدة هي التي تفرز الحدث ايجاباً ، وشخصية الشرطة تفرزه سلباً ، أي أن الطيب ، في هذه القصة ، يبحث عن مخرج من الضيق الذي يقاسيه في مسكنه (فيقرر بعد أن ألح في الطلب من أجل الحصول على مسكن لائق وفشلت



مساعيه ، واصيب بشيء من الخيبة المرة) الهجوم على مسكن هجره صاحبه منذ بعض الوقت في حي شعبي فقير ، فهو بهذا السلوك ومن وجهة نظر النص على الأقل ، يعد عنصر خير تعرض للشر والشر هنا أولا الضيق الذي يقاسيه واطفاله في المسكن ، وثانياً الشرطة حين تلقي عليه القبض وتسوقه نحو مركزها ذليلا متهماً بارتكاب جنحة ، فشخصية الطيب في حقيقة الأمر ، هي التي تفرز معظم الحدث داخل القصة ، وهي شخصية قوية الى حد ما ، استطاعت أن تقرر الهجوم على مسكن ليس لها ، ثم غامرت بأطفالها الخمسة وأقطنتهم اياه دون الخشية من العواقب · ولكن هذه القوة ان كانت تبدو في ارادة الفعل ، فانها لم تبد في معاناة المضايقة التي لقيها من قبل رجال الشرطة الذين لم يكن من همهم الا تطبيق القانون ، فقد خاطب الشرطة الطيب قائلا : ـ ما ذنبي أنا ؟ نحن نطبق القانون ···(١٥) فان شخصية الطيب تبدوحزينة، متألمة ، لا تتقبل الموقف الذي تورطت فيه الا على مضض عكس شخصية المعلم في « الأضواء والفئران» التي ظلت سعيدة مرحة ، على الحزن العميق الذي قد يحس من خلال تصرفها المشبع بالفلسفة ، حتى حين زجت بها الشرطة في غيابات السجن ، والنص هو الذي يصور لنا حزن الطيب واشفاقه مما تورط فيه :

« ربط الطيب يديه وراء ظهره وزفر ··· وبعد معاناة قال يغالب عبرة تكاد تخجله ·· »(١٦)

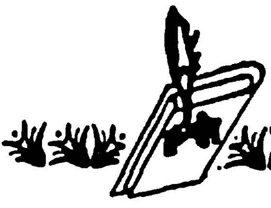
وشخصية الطيب في حقيقة أمرها معقدة الى حد بعيد ، وغنية الى درجة كبيرة : فبعد أن تبدو شخصية عادية يتسم سلوكها وتفكيرها بالهدوء في بداية النص ، يستحيل هذا الهدوء الى ثورة غير معلنة بالقول ، ولكنها معلنة بالسلوك وذلك حين تجمع أمرها تزم الرحال الى منزل غير منزلها شرعاً وقانونا ثم تستحيل هذه القوة في الارادة الى شيء من الضعف والندم لدى نهاية النص فهي من هذه الاعتبارات شخصية مكثفة لا مسطحة ونامية لاثابتة، ومركزية لا ثانوية ·

وقد اختار الراوي لها الزمن التقليدي الأكثر شيوعاً في الاكمال السردية ، وهو الماضي في أغلب أطوار النص · ونتيجة لذلك فان هذا الراوي هو الذي يحكي نص الحدث وينسجه ، أو لايذر المبادرة للشخصيات الا حين يقع بينها حوار ، أو تنسب بينها مواجهة · ولكن هذا الحوار كان قوياً ، متنامياً ، يظاهر النص العام على دفع الحدث المرسوم نحو نهايته بتوفيق · والحق أنه لولا هذا الحوار الرشيق الذي خفف من ثقل وطأة الراوي وحضوره في النص، لكان ثقيلا تقبله ، لأن اصطناع مثل هذا الزمن ان كنا نستخفه ونستملحه في نصوص ألف ليلة وليلة والمقامات وسائر الأجناس الأدبية السردية القديمة ، فاننا لم نعد نرتاح لمثل هذه الطريقة الرتيبة في عرض الأحداث ، فهي الطريقة التي لاتكون بطلا صنديداً فيها الا الراوية وحده، فبقدر ما يطغى حضوره هو ، يضؤل حضور الشخصيات المقصودة بالذات ، ويضعف النص الذي ما كان الا خدماً لهذه الشخصيات وان كنا نذكر بأن الرؤية النقدية المتطورة ، المواكبة للرؤية الفنية المتطورة للابداع السردي ، تدين العناية الشديدة بالشخصية وترفض حضورها المتسم بالمغالاة ووجهتهم في ذلك أن النص السردي نص ابداعي ، وان الشخصية فيه مجرد أداة فنية مظاهرة له ، وان الغاية في كل شيء هي النص وحده الذي لا ينبغي أن يكون خارج اطاره شيء من الأشياء وهذه دعوى لا تخلو من تحامل ومكابرة فان النص السردي يجب أن يحمل حقيقة فان لم يستطع فقيمة فان لم يستطع فدلالة فان لم يستطع فجمال فني وهذا أدنى ما يمكن أن يتمثل في نص سردي فان جردنا النص من كل الصفات ، ولم نلحق به الا الصفة الالسنة القاصرة فاننا نوشك أن نسلبه نفسه نفسها ·

وعلى أن العناية بحبك خيوط الشخصية والمغالاة في رسم معالمها وكانها حي يرزق ، يبصر ويعقل، أمر لم يعد له اعتبار الا في أسلاب التاريخ· فغلواء الشخصية وهيمنتها على النص أمر أصبح ممجوجا مستسمجا، لأنه اما ان يفضي الى الوعظية، واما الى المباشرة ، واما الى الابتذال في نسج خيوط الحدث التي ليس من الضرورة أن تكون محبوكة متينة ما دام الأمر قسمة بين النص والشخصية ، ولا حق لأي منهما ، في رأينا ، ان يستاثر باكثر مما ينبغي له ·

وهذه استطرادة نستسمح القارىء الكريم عليها ، ولكنه في نهاية المطاف هو الغانم ·

ونعود الان الى حدث عن أمر الشخصية عبر نص « تحت السقف » لنقرر بأن الشخصية الثانية



التي تبدو على خشبة الأحداث انما هي الزهرة ، زوج الطيب • ولكن هذه الشخصية لا تنهض بأي شان خطير في مسار النص ، فهي مذعنة لرغبة بعلها الطموح ، مطيعة لأوامره ، واثقة فيما ينهض به من سلوك وفيما يتدبره من أموز الأسرة • فالزهرة من هذا المنحى ، شخصية قصاراها مواكبة الأحداث والتكيف معها في النعماء والبأساء ، أمر بعلها بالرحيل الى المنزل الجديد القديم ، منزل يشبه أطلال الشعراء ولكنه أوسع من الغرفة الوحيدة التي كانت تؤوي هذه الأسرة المؤلفة من سبعة أنفار أمرها اذن بالرحيل فارتحلت (وهي تشبه الى حد بعيد شخصية زوج الفلاح في الرجل المزرعة) • منذ عهد قريب • لم تحاول مثلا أن ترفض العودة الى غرفتها السابقة ، كما لم تحاول من قبل أن تنصح لزوجها بعد التورط في فعله ليس لها كبير معنى •

أما شخصيات الأطفال والامرأة ، والشرطة فهي بدون دور يذكر ، لأن الشرطة هنا لا تتصرف بوحي من ارادتها الشخصية ، أو تنتقم من هذا العامل الذي كان بالأمس مجاهداً يزعم النص ، بدافع شخصي ، فهي بحكم وظيفتها لا تنهض بفعل الا في اطار من القانون ، أي في محاولة لترسيخ العدالة ، واحقاق الحق ، واشاعة النظام العام في المجتمع وهي بهذا المفهوم لا يجوز أن تكون طرفاً خصماً للعمال كما يزعم النص لأنها حين أخرجته لم تحتل منزله ، وانما حافظت عليه لصاحبه الذي يمتلكه• فهذا أبسط منطق الأشياء ، وأبسط مفهوم النظام العام داخل دولة محترمة : فماذا كان يريد النص من الشرطة التي جعلها هنا خصماً لدوداً ، وعدوا حقوداً : أكان عليه ؟ وماذا ؟ كان يحدث لو لم تتحرك ؟ انها لم تأت بعض ذلك لكان المرء اذا خرج الى السوق ، فانه لا يعود الى داره الا وهي محتلة • اننا مع تعاطفنا العميق مع هذا العامل الا اننا نلاحظ بالاضافة الى ما لاحظناه من عدالة موقف الشرطة من وجهة نظر قانونية ، بأن الضعف يأتي الى هذا الموقف من أن هذا العامل يقدمه النص على أنه كان يعمل بشركة سونطراك ومثل هذا التقديم قد يسقط من دعوى النص كل مزاعمه • فالفاسي عالج مشكلة السكن من خلال شخصية معلم محروم، وهو شيء طبيعي ، ومنور عالجها عبر شخصية سقاء فقير أعور ، وهذا أمر يعد من التوفيق ، أما أن نعالج مشكلة السكن في الأعوام الأولى من السبعين في الجزائر فنجعل بطلها الضحية عاملا في أغنى شركة على ذلك العهد بالجزائر وأعطفها على عمالها، وأرفقها بهم ، وأسخاها عطاء لهم فان هذا الاختيار لا يخلو من حرمان • لقد كنا نعلم أن هذه الشركة كانت توفر السكن للعزاب من عمالها ، فما بالك بأولي الأبناء الخمسة والستة ؟ ثم ما بالك بالمجاهدين الأبرار منهم ؟ كان يجب أن يتخذ النص من شخصية أخرى ، لا تنتمي الى سونطراك ،مجالا لمعالجة هذه المشكلة •

ويتخذ الحدث هنا اتجاهاً أفقياً مع ميل الى التصاعد المتدرج الى أن يبلغ غاية قمته ، ثم يهبط الخط الى مستواه الأدنى بعد احتلال المسكن الجديد الواسع ، ولكن لا يلبث هذا الخط أن يتصاعد فجأة جملة واحدة ، على شكل عمودي ، ببلوغ الحدث منتهاه من التأزم لدى وقوع أب الأسرة في القبض وظل الخط متصاعداً في اتجاهين : اتجاه يمثل الأسرة التي يجهل مصيرها ، واتجاه يمثل الأب الواقع في قبضة الشرطة ، أي أن الحدث ينتهي بدون نهاية ، أي أن نهايته لم تظفر بحل لكل المشكلة التي نسج النص من أجلها •••

وهران في ١٩٨٣/١٢/٢٨

احالات

١ ـ تمثل هذه الدراسة فصلا من كتاب ، لا يبدو مخطوطاً ، اجرينا فيه دراسة على سبع مجموعات قصصية لخمسة من القصاصين المعاصرين أولى اتجاهات فنية وايديولوجية مختلفة •

2 — R. Barthes, Introduction à l'analyse structurale des récits, in Communication n° 8 (1936) P. 6.

3 — O. Ducrot, T. Todorov, Dictionnaire encyclopédique des Sciences du langage, P. 286.

4 — Id., P. 288.

5 — Id., P. 286.

6 — N. Sarraute, l'Ere du soupçon, PP. 158-159.

٧ ـ احمد منور ، الصداع ، ١٠٥ •

٨ ـ الفاسي ، الأضواء والفئران ، ٥٣ •

٩ ـ م • س ، ص ٥٥ •

١٠ـ م • س• ص• ٥٨ •

١١ـ م • س •

١٢ـ م • س •

١٣ ـ تحت الجسر المعلق ، ١٢١ •

١٤ـ م • س • ص • ١٢٩ •

١٥ ـ السائح الحبيب ، القرار ، ٥٠ •

١٦ـ م• س • ٤٨ •



من أيديولوجيا الاندماج إلى الوعي الثوري

عمار بلحسن*

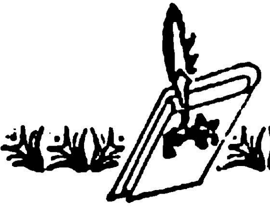
صحيح ، أنه لدى شعب صودرت حريته السياسية يصبح الأدب المنبر الوحيد الذي من فوقه يستطيع هذا الشعب أن يسمع صوته وصوت صرخاته ووعيه ٠

هذه القاعدة عامة وتسري على العمليات التي قام بها النظام الكولونيالي الفرنسي عبر كامل مراحله في الجزائر ٠

فبعد انتهاء عمليات التفقير الهائلة والمرعبة التي قامت بها البورجوازية الزراعية الاستعمارية في حق الفلاحين الجزائريين ببناء مزارع الكولون والمستوطنين على أنقاض ملكيات القبائل والأعراش والأراضي الجماعية ، عن طريق الوسائل القمعية كالمصادرة ووضع اليد ، والوسائل القانونية عن طريق نشر المبادىء الرأسمالية وتطبيق قانون البيع والشراء الحر ، على المساحات الشاسعة الخصبة للقبائل الفلاحية والرعوية وللفلاحين الصغار والمتوسطين ٠

بعد انتهاء عمليات الاستعمار الزراعي وتكريس البورجوازية الزراعية الاستعمارية لسلطتها في الأرياف بتحالف مع القياد والباشاغوات والملاك العقاريين، أصبح الفلاح الجزائري في دائرة العدم ، يقتله احساس برعب التفقير ، وقد بدأ الحقد الوطني تجاه الشرط الحياتي المعيشي الذي حوصر فيه عن طريق وجوده ٠ لقد تحول الى عامل زراعي في مزارع الكولون ، يشتغل من نجمة الفجر الأولى الى الثامنة ليلا ، بثلاث فرنكات ومكلف باعالة العائلة وجنود الاحتلال وفرنسا كلها بعرقه وانتاجه ، وخضوعه ، واذا رفع هامته كان السوط والكلاب والجندرمة وأجهزة القمع قبالته ، ان روح الجزائر والوطن تحدث أمامه عبر آلاف المزارع التي يملكها الغزاة ، لقد تحول الى خماس معدم ، الى فلاح فقير تحاصره قوى الجوع والقمع وتريده أن يموت ، لأن الاستعمار الاستيطاني الراسمالي يطبق سياسة الابادة بالمعادلة المعروفة التي طبقت في أمريكا ، اسكان الأوربيين ــ تدمير الأهالي ٠

★ قاص وكاتب ، له عدة كتب ومجموعات قصصية : « حرائق البحر » و « الاصوات » ــ قصص ، ودراسات حول الثقافة والمثقفين والايديولوجيا والادب في الجزائر/من مواليد ١٩٥٣ ــ مسيردة تلمسان ــ الجزائر ــ ٠



وبعد تفقير وتدمير النظام الحرفي في المدن وتحويل الحرفيين الى عمال بدون وسائل الانتاج وتكوين احتياطي اليد العاملة للصناعة الرأسمالية في فرنسا عن طريق جيوش العمال العاطلين عن العمل ٠

وبعد تطبيق سياسة التجهيل وتدمير المدارس وسجن المثقفين ومحاربة الهوية والتراث الوطني عن طريق محو التاريخ وضرب اللغة العربية واغلاق الأبواب أمام أطفال الجزائر والحكم عليهم بالاعدام من الناحية الثقافية ٠

بعد عمليات الاحتلال الاقتصادي والاجتماعي والسياسي تقدم الايديولوجيا الكولونية عبر صورها وأشكال وعيها صورة نموذجية لتجربة استيطانية واستعمارية « ناجحة » لقد أصبحت الجزائر فرنسية ، وانتصرت ايديولوجيا الاندماج واحتفل القوم الغزاة بالعيد المئوي لاحتلال الجزائر !!

ولكن ، وككل ايديولوجيا رجعية فانها تتعامى عن الحقائق وعن التطور الحقيقي لكل فكر داخل شروطه الاجتماعية الاقتصادية. ان الوضع الكولونيالي في أزمة على كل المستويات ؛ لقد خلق الطرف الذي سيحفر له القبر ٠ ان الجزائر تنضج لفجر آخر ، ترى كيف كانت التناقضات على المستوى الايديولوجي والثقافي وكيف بزغت الفئات المثقفة الوطنية لاسيما في الميدان الأدبي وكيف تبلور الوعي الوطني المناقض جذرياً للانتلجانسيا الكولونيالية ومنتوجها الأساسي : الايديولوجية الاندماجية ٠

١ ـ من ايديولوجيا الاندماج ٠٠٠

يمكن رؤية الايديولوجيا وشبكة الأفكار التي حركت الاستعمار الفرنسي في الجزائر، كايديولوجية اتكأت في بدايتها على أن النمط الأساسي الذي يجب أن يسود هو الاستعمار الاستيطاني أي تطبيق سياسة تدمير السكان الأهالي ـ واسكان الأوربيين وتوطينهم عن طريق خلق ما يسمع المعمرين العسكريين ، يقول الجنرال بيجو مخاطباً أعضاء البرلمان الفرنسي : يجب أن تستمروا لأنكم لا يمكن أن تحافظوا في افريقيا (الجزائر) على الجيش الذي قام بالاحتلال ، والضروري للمحافظة عليها اذا لم يكن لديكم استعمار قوي فلا يمكنكم الحصول على هذا الجيش الا بتكوين سكان عسكريين أقوياء ٠

ان هذا يتطلب ضرورتين هما : حركة هجرة مستمرة ودائمة من أوربا ، وحركة تدمير وتصفية دائمة للسكان الأصليين ، ولكن يبدو أن هذا الأمر خصوصاً الشرط الأول لم يتحقق لاختلال التوازن بين المجموعتين من الناحية السكانية فلم يتعد السكان الأوربيين سنة ١٨٦١ تبعاً لاحصاء هذه السنة ١٩٢٧٣٦ نسمة بينما كان السكان «الأهالي» ٢،٧٦٠،٩٤٧ ٠

ان فشل هذه السياسة رغم وجود القوة والاحساس بالتفوق العنصري والتقني أدى الى مراجعة للسياسة الاستعمارية والى تعزيز التناقض داخل الايديولوجيا الاستعمارية بمناداتها بايديولوجيا جديدة هي الاندماج أي الاعتراف بضرورة وجود الآخر يعني « الأهالي » كطرف حاضر داخل الجزائر ٠

اذن فليترك الاستعمار ايديولوجيا التدمير ، وليبن فكرة استعماره وسيطرته على الجزائر على « المهمة الحضارية » لفرنسا ونشر المدنية والتقدم وأفكار الثورة الفرنسية ، فعلى « الأهالي » أن يلتحقوا بالنظام الاستعماري وأن يصبحوا مواطنين ، لهم الحق في المواطنة والحضور والعيش ٠

في ايديولوجيا الاندماج يبدو السكان الأهالي ، كمواضيع متخلفة سلبية وكفاعلين هامشيين عليهم أن ينضموا الى ركب الحضارة عن طريق الانسلاخ عن مجتمعهم ، وتأييد الديموقراطية الفرنسية والادارة والحكم الاستعماري ، عليهم أن يتعاونوا من أجل أن « يندمجوا » في الحضارة ومبادىء التقدم بعيداً عن تاريخهم وعاداتهم وثقافتهم وعناصر هويتهم » !

وقد بدأت عملية « ادماج » الأهالي عن طريق اللحظة الأولى في هذه الايديولوجيا الاستعمارية وهي « ادماج » الأشياء والنظم الاقتصادية ـ الاجتماعية ، وهذا بتغيير

القوانين الاسلامية والأعراف والتقاليد التي تدير وسيلة الانتاج والثروة الرئيسية في المجتمع الجزائري : الأرض ، لقد أصبحت الأرض سلعة ، بضاعة في شبكات العرض والطلب، باستطاعة الكولون أن يحصلوا عليها اما عن طريق الشراء ، أو الوسائل القانونية ، كعقود الملكية الفردية ، أو المضاربة ، الخ..

ان عنصر التملك الفردي ومبدأ الملكية الفردية المقدس قد بزغ في المجتمع الجزائري كانتصار لاحدى المبادىء البورجوازية الفرنسية •

أما اللحظة الثانية من هذه الايديولوجيا فهي ادماج الانسان أي الأهالي وتدمير ثقافتهم وثقافة مجتمعهم ، يجب « برجزة » الوعي واحلال الوعي الاستعماري وقوة الحضارة الفرنسية محل « ثقافة الفلكلور » التي تشكل تراث وحضارة السكان الأصليين ، ان تاريخ الجزائرالمستعمرة يتلخص في الدولةالرومانية ودولة الاحتلال فقط ، أما قرون الحضارة البربرية والعربية فقد محيت بجرات أقلام ايديولوجيي الاستعمار ومؤرخيه !!

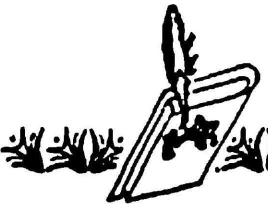
على المستوى الأدبي والفني كان لهذه الايديولوجيا وأفكارهاوصورها وميكانزماتها كتابها وأدباؤها الذين دافعوا عنها وأعادوا انتاج صورها الفنية عبر روايات ونصوص وقصائد أدبية وشعرية •

فقد أنتج الوضع الكلونيالي فئات من المثقفين والأدباء يمكن تحديدهم في مجموعات، ابتدأت في عمليات الكتابة باللغة الفرنسية ووضعت الجزائر كاطار لأحداثها ووصفها ونماذجها الفنية ، فهناك أدباء الاحتلال الذين أعادوا انتاج ايديولوجيا الاستيطان وتطبيق معادلة قتل وتدمير الأهالي اسكان الأوربيين في روايات تقدم الجزائري الأهلي كهمجي وبربري يحمل روح الشر والحقد والحرب ، وكشخص لا يمكن الحوار معه لأنه مضاد بالأساس للحضارة والتقدم انه مناقض للانسانية ، وأفكارها فهو الجهل والبربرية متخلف ، وبارد وغير متكيف ، لذا يجب تدميره وسحقه لأنه المتحدي العظيم للحضارة ويجب فهم الحضارة هنا على أنها السيطرة الاستعمارية •

وقد ظهر الجزائري هنا ، في الروايات التي كتبت ، كجزء من الديكور ، كشيء تافه، يجب تجاهله ، انه نخلة أو جبل أجرد ! ويظهر هذا في المدرسة الأدبية التي عرفت عبر التاريخ الأدبي للجزائر المستعمرة ، « الجزائريون ـ ليزا الجيريانست » •

طبعاً عمل الاحتلال الفرنسي على تكوين وحدة أثنية وقومية غير مسلمة هي طبقة المحظوظين من الاحتلال انعكست عبر هذا الأدب في النماذج الفنية والصور الأدبية التي تطالب بادماج الجزائريين في النظام الفرنسي والقيام باعادة انتاج صور الحضارة داخل وعيهم كما حاولت تقديمهم على أساس أنهم مواطنون فرنسيون يتمتعون بكافة الحقوق ، مغطية الاستغلال والقمع النائم تحت السطح، ان جل الروايات والأعمال الأدبية التي كتبها كتاب أمثال « لويس برتراند » ، و « روبير رونهو » الذي يعتبر الأب الروحي لهذا الاتجاه ، حاولت طرح الجزائر كمستوطنة ومستعمرة مستقلة عن فرنسا ، طبعاً بسيطرة الأوروبيين وبكل النظام الكولنيالي ومؤسساته، وهذا باعلانها لماسمته بالاستقلال الجمالي لأدبها وفنها عن الأدب الفرنسي بما لها من ملامح محلية وصور شمال افريقية وديكور جزائري بحت •

ولكنها في الحقيقة وهذا ينطبق على الرواية بالخصوص كانت أمينة لفكرة الاندماج كمحرك أساسي للايديولوجيا الاستعمارية فقد أعادت الروايات« الأهلية » الانمساخ السياسي للمواطن الجزائري في رحلته المتعبة والهمجية واستيلابه خلال عملية ادماجه : تحوله الى خائن في منظور جماهير السكان الأصليين ، ان روح الحوار بين المجموعتين الأوربية والأهلية في هذه الروايات لم تكن الا تعبيراً عن القوة الحضارية لفرنسا ومهمتها المزعومة في تمدين وتحضير السكان ، وادماجهم في الوسط الثقافي ـ الحضاري للثقافة الأوربية الرأسمالية ، وهذا تعمية لعمليات الاقتلاع والتدمير التي تمارسها فعلياً على المستوى الاقتصادي ، الاجتماعي ، السياسي والثقافي • ان الاندماج هو المبرر الايديولوجي « الصلب » الذي وجده النظام



الاستعماري لتكريس وتبرير القمع والاضطهاد الوطني الشامل والمعمم ، من أجل انتصار فكرته الأولى : الاستعمار الاستيطاني وخلق الجزائر الفرنسية ·

وقد كان الصراع داخل هذه المدرسة عامل ظهور مدرسة أخرى ابتداء من سنة ١٩٣٦ ، سنة انتصار الجبهة الشعبية وصعود الفاشية في أوربا الى الحكم في ألمانيا وايطاليا ، وتفاقم أزمة الاستعمار الفرنسي على المستوى الاقتصادي والاجتماعي بارتفاع حدة الوعي الوطني ، ونمو الحركة الوطنية وبلورتها لأهداف استقلالها نسبياً وطرحها لغط وطني ، لم تتحد آفاق تطبيق أهدافه بعد.

ان جزء من الانتلجانسيا وخصوصاً من المثقفين اليساريين كونوا « مدرسة الجزائر العاصمة » وهذا عن طريق بروز مجلاتهم ك « ريفاج » و « فونتين » و « شمس » و «سيمون» و «الجيريا» و « ميديتيراني» الخ·

وقد كان ايمانويل روبلاس هو الأب الروحي لهذا التيار التقدمي في الأدب الفرنسي في الجزائر ، فقد عمل على فتح الأبواب للكتاب الجزائريين من أمثال محمد ديب وكاتب ياسين ومصطفى الأشرف ومولود فرعون ، الخ ··

على كل لم تمثل مدرسة الجزائر الأدبية خروجاً عن ايديولوجيا الاندماج – رغم يساريتها وتقدمية الكثير من عناصرها ، فتبعاً لها – وهذا لربما سيطرة النزعة المضادة للفاشية على اهتماماتها وانتماءات كتابها المؤسسين ، قلت تبعاً لها لم يكن الوقت ، وقت جزائر مستقلة ، بل هي تراب فرنسي لا بد أن تسود فيه الصداقة والحوار وعملة ثورة ١٧٨٩ ، مساواة أخوة ، حرية كتطبيق ، لا كشعار أجوف !

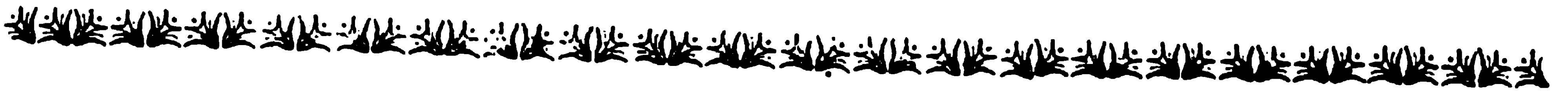
وبعد الانتصار على الفاشية من طرف الشعوب الأوربية وكل الانسانية كانت الجزائر تدفن موتاها الخمسة والأربعين ألف بعد حوادث ٨ ماي ١٩٤٥ التي تمثل منعرجاً هاماً في مسيرة الحركة الوطنية والوعي الوطني وأشكال وعيه من أدب وثقافة وفن ، والتي عجلت أساساً بتبلور رؤية وطنية لحل مسألة الاستعمار وتحقيق الاستقلال عن طريق الثورة الوطنية التحريرية ·

بينما كانت أحداث ماي ١٩٤٥ ، تفعل فعلها في الوعي والحركة الوطنية وتكرس نهائياً والى الأبد القطعية بين المجموعة الأوربية المتمثلة خصوصاً في البورجوازية الزراعية الكولونيالية والبرجوازية الصغيرة الشوفينية المؤيدة لايديولوجيا الاندماج كان المستوى الأدبي يتململ وينتج مثقفين وايديولوجيا أيضاً ···

فالظروف الاقتصادية السياسية وصلت الى مرحلة التأزم القصوى على المستوى الاقتصادي الاجتماعي · ان هناك تناقضات حادة تذير المجتمع الجزائري المستعمر ، بتناقض بين العمال الزراعيين والكولون من جهة والتناقض بين الفلاحين المعدمين والفقراء والمتوسطين والكولون والاقطاع وكبار الملاك الجزائريين من جهة ثانية والتناقض بين الطبقة العاملة عمالا وبطالين والاستغلال الرأسمالي وبين مجموع فئات الشعب الجزائري الوطنية وبين قوى الاستعمار والاستيطان يفتح آفاقاً للثورة وللوعي الوطني الثوري ·

وقد انعكس هذا على المستوى السياسي في تطور الحركة الوطنية وتبلور وفرز القوى الوطنية من القوى الاندماجية وتبلور خط وطني ثوري داخل هذه الحركة ، هذا الخط الذي سيبرز ويتكرس مع أول نوفمبر ١٩٥٤ كلحظة لتفجر الثورة الوطنية التحررية تحت قيادة جبهة التحرير الوطني والمناضلين الوطنيين الثوريين المؤمنين بالكفاح المسلح وسيلة لتحرير الجزائر والحصول على استقلالها ·

في الميدان الأدبي ، كان التناقض بين التيار التقدمي والتيار الرجعي ينضج في مدرسة الجزائر الأدبية فابتداء من سنوات ١٩٤٧ – ١٩٤٨ بدأت مجلات هذا التيار تحتضن كتاباً تجدية وجادة وذات وعي ثوري كاطار لانتاجاتها الأدبية ، فهل هناك بوادر ولادة تيار أدبي جديد خصوصاً وسط المثقفين ، والأدباء والكتاب باللغة الفرنسية ؟



يقول محمد ديب لمجلة الأخبار الأدبية سنة ١٩٥٣ :

« يبدو لي أن هناك أدب وطني بالمعنى الواسع للكلمة هو في طريق التكوين والظاهرة الأكثر دلالة هو أن هذا الأدب يتكون باللغة الفرنسية في بلد ذي تقاليد وثقافة اسلامية ـ عربية ما زالت تعطي بصعوبة مؤلفات باللغة العربية والقبائلية •• »

ونظراً لجهل وعدم معرفة محمد ديب ربما بالكتاب الذين نشأوا في أحضان الحركة الاصلاحية الجزائرية فان تقييمه لهذا الأدب يبقى محل تساؤل ونقاش كما أن وطنية الأدب المكتوب بالعربية هي وطنية بديهية ولو أن هذه الوطنية اتكأت بالأساس على النزعة الاصلاحية والتراث التقليدي العربي الاسلامي في الأدب أشكالا ومضامين ، وهذا لعزلتها عن التقدم والتطور الذي حصل في الأدب العربي في المشرق وقد لعبت هذه الثقافة والأدب العربي دوراً كبيراً في بلورة الوعي الوطني والدعوة الى الثورة، هذا الدور الذي لاينازع فيه أحد والذي ثمنه فرانز فانون ومحمد الميلي في كتاباتهما ••

ان اشكالية نشوء الأدب الوطني باللغة الفرنسية هذا الأدب الذي يمثل حقيقة أدب الثورة الوطنية التحريرية باقتدار رغم استعماله الفرنسية لغة تعبير ، تطرح المسار الصعب حقيقة لتطور الأدب الجزائري الحديث وتعبيره عن الثورة وعن الجماهير الوطنية في حركة نضالها ضد الاستعمار والاضطهاد الوطني •

ففي وسط مبادىء مدرسة الجزائر الأدبية وداخل خصائصها الأساسية وتناقضاتها بين النزعة الايديولوجية الاندماجية والنزعة الوطنية الثورية •• ظهر الكتاب الحاملين للوعي والهوية الوطنية والمعبرين عن الجماهير في سعيها للاستقلال ، وتكوين وحدتها الوطنية قبالة الآخر ، أي المستعمر ، ويتلخص هذا في البحث عن ، الأنا ، أي عن الهوية التاريخية للشعب الجزائري •

هكذا بدأ مالك بن نبي في اعادة تثمين الاسلام ومبادىء الثقافة والدين والقيام بحركة تفكير من أجل اثبات انتماء الجزائر للتاريخ العربي الاسلامي ومن أجل اظهار تاريخ فعل وتأثير هذه الثقافة عليها واكتساب هويتها الثقافية والحضارية •

كما بدأ مولود فرعون في كتابة صور الارتباط بالأرض والوطن وعشقه لها بينما كان مالك حداد يكتب عن الانتماء للشعب الجزائري وتوحده مع الأهالي والجماهير الشعبية في حين كان كاتب ياسين يعيد تكوين ـ نجمة ـ اي روح الخصوبة والحرية وديالكتيك الماضي ـ الحاضر ـ المستقبل : الجزائر الأبدية وتمجيد روح الأجداد والجماهير •

ان الفكرة الأساسية التي حركت ونشطت الأدب الوطني هي البحث عن الأنا وتأسيسه بالرجوع الى الأصل والينبوع والتاريخ واسقاط وجوه الحاضر والمقاومة التي عرفتها الجزائر عن طريق اعادة انتاجها عبر روايات ونتذكر هنا ثلاثية محمد ديب كثلاثية تعيد انتاج مأساة التفقير ، التي مارسها الاستعمار على الجزائر وجماهيرها من كادحين (الدار الكبيرة) وفلاحين (الحريق) وعمال (النوال) وتطرح الثورة كحل للأزمة الاستعمارية من منظور اشتراكي يعتمد بالخصوص على الجماهير وطلائعها •

ان البحث عن الأنا وعن الهوية التاريخية للشعب الجزائري كان خط هذا الأدب عبر جل مؤلفاته وقد وجد حله في سيطرة موضوع الانسان الجديد الذي يجد تحرره في النضال التحرري وفي أسلوب الأدب الواقعي الملتزم الذي كرس الواقعية النقدية والاشتراكية وأعطى للأدب الجزائري آفاقه الثورية التجديدية •

ان الثورة الوطنية انتصرت في الأدب الجزائري وعملت بالتالي على اسقاط ايديولوجية الاندماج وأدبها وهذا في ديالكتيك تجلت فيه العلاقة الوطيدة بين الأدباء كمثقفين ثوريين والشعب والجماهير كقوة ثورية أساسية لا بد أن تجد تعبيرها ولسانها على المستوى الثقافي والأدبي والأديولوجي وبهذا كان الوعي الوطني الثوري ، بديلا صحيحا أثبتته التطورات اللاحقة للجزائر : انتصار الثورة وتجذير تطورها التقدمي وظهور الوطنية وتعميق محتواها الشعبي في أدب ثوري جزائري حديث •

وهران

رواية التفكّك

من خلال يوميات سالمة وليليات الطاهر الغمري

مخلوف عامر

إذا لم يكن كل عمل أدبي قابلا للنقد ، وهي مقولة صحيحة الى حد كبير ، فانه بالمقابل ليست كل محاولة نقدية قادرة على أن تلج الى أعماق الأثر الأدبي وتسبر أغواره وتتبع ثنياته ومنعرجاته • واذا كنت أقدم ـ هاهنا ـ على أن أسجل انطباعاتي حول رواية بوجدرة « التفكك » التي كتبها باللغة العربية ، فاني أود أن أشير منذ البدء الى أن ما سأقوله ليس نهائيا ،فقد يشوبه نقص كما قد تكتنفه عدم الدقة • وليس في هذا ما يدعو الى الغرابة ما دامت حركة الابداع والنقد كلتاهما تتميزان بالاستمرارية لا التكرار أو من المفروض أن تكونا كذلك• وبمعنى أوضح ، تتميز العملية الابداعية والنقدية بأنهما نسبيتان قابلتان لاعادة النظر في ظروف أخرى لاحقة •

ومما لا خلاف فيه بشأن النقد أن يكون تقويما نظريا وجماليا ، في حدود قدرة صاحبه على الوصول الى هذا التقويم بشطريه • ومن الضمانات الأساسية التي تساهم في انجاح المحاولة النقدية أو على الأقل تنتشلها من الضياع في هاوية التحليل الاحادي الجانب ، أن تكون قراءة النص اندماجاً كلياً فيه واتصالا مباشراً بحركته الداخلية ثم أن تكون لهذا القارىء/الناقد قدرة الانفصال الواعي عن النص ليتمكن من تحريكه في رحابة ذهنية •انها ـ بايجاز ـ أشبه بعملية الوصل والفصل التي يتحدث عنها « محمد عابد الجابي » في كتابه :« نحن والتراث » •

هذا على المستوى النظري وهو ما سأحاول أن أطبقه على الرواية المذكورة ، ولكن فرق بين ما هو نظري ، وبغض النظر عن مدى صحته وبين القدرة على تجسيده عملياً أثناء الكتابة • ليس هذا الكلام تبريراً لما سيقال ولا محاولة لاثبات البراءة ، بل هي حقيقة لا مجال لانكارها •

وأعترف مسبقاً انه لمن الصعوبة أن يكتب عن أعمال رشيد بوجدرة ، وقد حاولت جهدي أن أطلع على ما قيل عن روايته « التفكك » لمزيد من الاستفادة ، غير أني ـ حتى كتابة هذه السطور ـ لم أقرأ سوى مقالين • أحدهما لمحمد ساري نشر في مجلة المجاهد الأسبوعي والثاني كتبه « جيلالي خلاص » ونشر في النادي الأدبي بجريدة الجمهورية •

وبدا لي أن الأخوين قد ركزا على عرض أحداث الرواية ، أكثر من تركيزهما على المناقشة •

□ يوميـات سالمـــة :

أسميتها « يوميات » نظراً لأن سلوكات سالمة وتصرفاتها علنية ، وكأنها تجري في وضح النهار ، خاصة اذا ما قيست بالحياة السرية التي يعيشهـا « الطاهر الغمري » وهي في كل ما تقوم به تنتسب الى الحاضر وتشير اليه أكثر مما تنتسب الى الماضي.

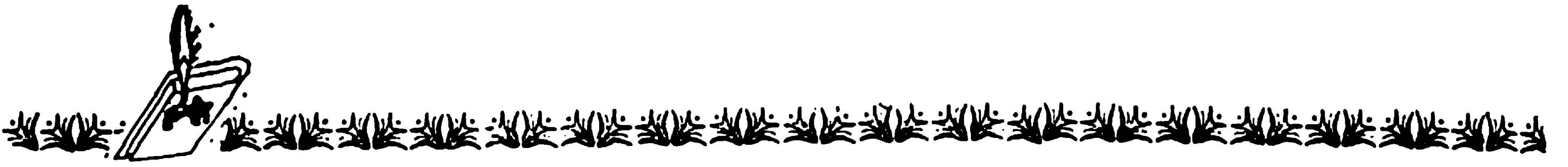
سالمة تشتغل في المكتبة الوطنية ، محافظة الخزانة العامة ، تعرف القراءة بين الأسطـر والحبر السري يعرفها ، وهذا ما يؤهلها للبحث عن الحقيقة وادراكها ، وليس مـن حق أحد أن يخادعهـا وهو لا يستطيع حتى وان أراد ٠

تقص على الطاهر الغمري تفاصيل حياتها، فهي تنتمي الى أسرة مفككة ، أبوها شيـخ يعيش بعقلية طفل ، أمها ورعة ، عمتها فاطمـة عاشت طول عمرها ولم تتزوج ، لها أخت مطلقة تشتغل في ورشة خياطة ، أخوها لطيف طبيب يعاني مـن شذوذ جنسي بالاضافة الى اخوتها الاخرين ٠ أما الذي يشد انتباهها أكثر ويبدو انه أثر ويؤثـر في مجرى حياتها فهو أخوها البكر ، ذلك السكير الذي كان يتعاطى الخمر يومياً ويترصد للضباع فيقتلها ٠ وقد ورثت عنه سالمة العلب التي كان يستخدمهـا لتربية البق بغرض انشاء سيرك له ٠ مات وقـد أحيط موته بسرية تامة من طرف أبيه جبناً وخوفاً من المستعمرين وأشيع عنه انه مات بتأثير الخمر ٠

سالمة تعيش بعقلية البرجوازية الصغيرة المشتتة الفكر بين الماضي والحاضر ، بين ثورتها النفسية الداخلية وسعيها من أجل البحث عن الحقيقة وبين اتصالاتها بالطاهر الغمري الذي يمثل فكراً وتاريخاً محددين ٠ صلتها به تتم عبر زيارتها لبيته القديم وبواسطة الهاتف العمومي وعن طريق قراءتهـا لليلياته التي يكتبها ٠ وهذا الجو يذكر بجميلـة وعلاقتها بمذكرات « الشباح المكي » عند الطاهر وطار في روايته «العشق والموت في الزمن الحراشي» ٠

بوجدرة يستخدم تيار الوعي ويطلق للتداعيات النفسية تتدفق في غير انتظام وفي ذلك دلالتان على أقل تقدير : أما الأولى فتكمن في أن هـــذا التداخل أو التفكك يصبح في حد ذاته تماسكاً على مستوى الأسلوب ، وليس تعارضاً انما هو تناقض يمنح العمل صفته الدرامية المؤثرة ٠ وأما الثانية فتكشف عن مدى صدق المعاناة ومعايشة الكاتب لما يريد أن يقوله في الأثر الأدبي الى درجـة تجعـل القارىء يستشف بل ويعيش في يسر حالة أشبـه بالتجربة الصوفية ٠ (الصوفيـة بالمفهوم الذي تقتضيه طبيعة الانتاج الفني) سالمة هي أيضاً الجزائر بما تحمله من تناقضات وما يمور فيها من قيم اقتصادية واجتماعية وسياسية وهي في الوقت نفسه نموذج المرأة الجزائرية ـ العربية بكل ما تعانيه من مشاكل وما تعيشه من تمزقات داخلية بين تقاليد الماضي وقيم الحاضر والمستقبل ٠ هذه المرأة التي شوهت حقيقتها النظرة الجنسية وصارت تتعرض يومياً لمضايقات الرجال لكـن سالمة لا تبالي كثيراً بمثل هذه المضايقات ، وهي منشغلة بما هو أهم ٠ انها نموذج المرأة التي تبحث عن الحقيقة ، تستقي المعرفة يومياً وتتطور باستمرار ٠ وما يلفت النظر أيضاً أن هذه البرجوازية الصغيرة يظهر تأثيرها بشكل واضح على الطاهر الغمري وكأنها منذ البدايـــة تسعى جاهدة لاخراجه من العزلة والانطواء ليندمج في المدينة الجديدة والحياة الجديدة ، وينبذ الأفكار العقيمة والتقاليد البالية ، ويتحقق لها ذلك بالفعل عندما تتوصل الى أن تبعث به الى الحمام حيث ينظف جسمه من أدران الماضي ويلبس ثوباً جديداً ٠

يبدو أن سالمة التي يدل اسمها على البراءة والنزاهة والسلامة من الأمراض وغيرها تتوفر على رصيد من الثقافة التاريخية التي تسمح لها بنقد وتقييم أعمال الحزب الشيوعي الجزائري من خلال الطاهر الغمري ٠ وفي حديثها اليه تواجهه بسيل من الأسئلة ولعل أكثرها اثارة للحيرة والعتاب معاً هو قولها : « لماذا لم تقودوا الثورة ؟ ثم لا تلبث أن تجيب ولعل أكثر الأجوبة اثارة أيضاً هو قولهـا : « مر القطار وهم يترقبون بنيتهم الحسنة في قاعة الانتظار يترقبون تفجر الثورة العالمية »(ص ١٧٢) وهكذا ترد على لسان سالمة معظم الانتقادات التي توجه عادة الى الحزب الشيوعي الجزائري ، وتبدو



هذه الانتقادات أحياناً منفصلة عن الاطار العام الذي يحكم أسبابها الحقيقية ، كغلبة العنصر الفرنسي على مكوناته في فترة تاريخية سابقة وما خضع له من تأثير للحزب الشيوعي الفرنسي بقيادة « موريس توريز » وأطروحة الأمة الجزائرية في طور التكون بالاضافة الى تأثير الستالينية عامة . ان السؤال الذي يؤرقها باستمرار هو : « لماذا لم يبادروا بالعمل المسلح ؟ » « هل فاتتهم طبيعة الاستعمار ؟ هل سبب هذا الخلل الهائل : كان عدم وجود طبقة عاملة قوية وواعية ؟ هل لا بد للثورة الوطنية من مرحلة انتقالية تقودها البرجوازية الصغيرة وأحزابها ؟ » ص ١٧٢ .

والواقع أن تفكير هذه الفتاة يعد مثالا للعقلية البرجوازية الصغيرة المتذبذبة المتفككة وهي في الوقت ذاته صورة لواقع الجزائر كما يفهمه رشيد بوجدرة . ولعل هذا الفهم عند الفتاة مرده الى أن صلتها بالطاهر الغمري صلة واهية لا تتسم بالعمق وتتجلى أقصى درجاتها في القراءة . والقراءة وحدها لا تكفي والصلة على المستوى الفكري المحض ضرورية ولكنها ستظل عرجاء ما لم تطعم بالممارسة المنظمة ولا يمكن أن تصبح ثورية الا اذا انتحرت .

حاضر الجزائر في نظر بوجدرة يتميز بسيطرة البرجوازية الصغيرة بالتبعثر والتشتت والتفكك . فهل مرد هذه الرؤية الى أن صلة الكاتب بالتنظيم الذي هو امتداد طبيعي للطاهر الغمري ، لاتتجاوز القراءة والانتماء الفكري ؟ انها مسالة لا يمكن القطع بصحتها حالياً ، ولكنه احتمال أميل الى ترجيحه .

□ ليليات الطاهر الغمري :

هذه شخصية تاريخية يبعثها بوجدرة الى الحياة مرة أخرى ، كان الطاهر الغمري مدرس قرآن ، انخرط في جمعية العلماء المسلمين سنة ١٩٤٥ ، ولكن تصرفات كثير من الشيوخ والأئمة لم ترضه اذ راحوا باسم الدين يتصيدون الولائم ويتحلقون حول موائد الأطعمة اللذيذة ، وطنية ممزوجة بطبقية . في الوقت الذي يظهر فيه تعاطفه مع الفلاحين الفقراء ويدعو الى ضرورة توزيع الأراضي عليهم ، يتهمونه بالكفر والالحاد غير أنه ظل مصراً على رأيه الى أن انضم الى الحزب الشيوعي سنة ١٩٤٧ . فقد زوجته وابنتيه في حوادث مايو ١٩٤٥ ولكن ذلك لم يثنه عن النضال المستمر الدؤوب الى أن حمل السلاح وباشر الكفاح المسلح الى جانب رفاقه .

يستحضر الكاتب صورته وقد سكن بيتاً قصديرياً لا يرضى بغيره بديلا يتجول في الحدائق ويتتبع الحمامات ، يملك ثلاث بقرات يحلبها لكي يبرر خروجه الى المدينة . يبدو منشغلا بكتابة ليلياته تجسيداً للسرية والعزلة وهو بذلك انما يكتب التاريخ بطريقة أكثر موضوعية . يزور سيدي عبدالرحمن حيث يتحين الفرص لرؤية العذارى ليعود بعد ذلك فيمارس العادة السرية وفاء لزوجته .

« لم يكن ليحمل بطاقة تعريف ولا أي شيء آخر يعرف الى هويته » ما عدا تلك الصورة البالية التي يجعل منها الكاتب واسطة لاجراء حوار طويل بين الغمري وسالمة ، وهو حوار تتحدث فيه سالمة عن نفسها وعن أسرتها « ولكنه هو ما حدثها يوماً عن مثل هذه الأمور بل كان يقصر حديثه عن أصدقائه في الكفاح ورفقائه في الحزب واخوانه في الثورة ويبذل ما في استطاعته لاعطاء فكرة موضوعية عن التاريخ وبلورتها ... أما عن طفولته وعن حياته الخاصة فلم ينبس يوماً ببنت شفة ، بل كان يكتب ويكتب ... وصريف القلم » ص ٩ من هم الرفاق الذين يفضل الحديث عنهم ، وتظل صورتهم تتبع خطاه وتلاحقه أينما حل وارتحل ، الرفاق الذين تضفي عليهم الرواية مسحة بطولية مأساوية . ؟

بو علي طالب عامل واع ولحام ماهر تمزق تحت شظايا القنبلة الزمنية التي كان يصنعها ، الحكيم الأجنبي الذي سهر على معالجة الطاهر الغمري من المرض الذي كان يعاني منه وقد كان مصيره أن ذبح بسكين حافية ، على الرغم من اخلاصه ومساهمته النضالية .

الألماني الذي ليس ألمانياً ولكنه لقب كذلك لأنه أسر في ألمانيا وكان أشقر الشعر .

سيدي أحمد كان يعلّم اللغات وينظم خلايا الحزب داخل المعهد حيث كان يدرس ، ألقي عليه القبض سنة ١٩٥٧ ، عذب مدة عشرة أيام ، ثم أحرق حياً ٠

هذا القسم الذي أسميته ليليات الطاهر الغمري يبدو أكثر اتصالا وانسجاماً من سابقه ولا غرابة في ذلك اذ نظرة الغمري الى التاريخ تختلف ـ بداهة ـ عن نظرة سالمة له ٠ ان طريقة الكتابة نفسها تتميز عندها بكونها جملة متصلة اتصال التاريخ ، فهو لا يعرف التوقف لحظة ، يتحول الفصل الى جملة واحدة بلا نقطة ولا فاصلة ولا أي اعتراض ٠ وفي هذا الأسلوب تجديد ذكي يخلق فيه انسجاماً بين الشكل والمضمون ٠ بوجدرة باحيائه شخصية الطاهر الغمري على هذا النسق يكون قد أحيى فترة تاريخية طالما تتجاهلها كتب التاريخ الرسمية والمؤرخون الرسميون ٠ غير أنه أحياه منفعلا بالتاريخ أكثر مما كان فاعلا فيه ٠ وسالمة نفسها تظهر مؤثرة أكثر منها متأثرة ، الأمر الذي قد يخالف طبيعة الأحداث ٠

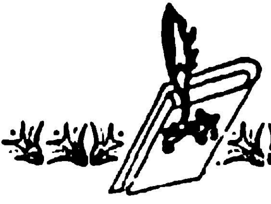
وغالباً ما يحاول الفنانون أن يتنصلوا من كونهم مؤرخين ، ولكن الواقع أن الفنان يؤرخ بطريقته الفنية الخاصة ، وبوجدرة في هذه الرواية ارتفع بوقائع تاريخية الى مستوى فني ٠ لولا أن هذه الوقائع تشتم منها رائحة المبالغة أحيانا وتكاد تسقط في المغالطة ولو بنية حسنة ٠ فهو عندما يشير الى أن الطاهر الغمري كان يترأس اجتماع اللجنة المركزية ثم قام لتأدية الصلاة وأوقف الاجتماع ، انما كان يتظاهر بذلك ولم يقم به عن اقتناع ، وهو ما يستشف من العبارة الواردة على لسان سالمة : « تتذكر يوم اجتمعت اللجنة المركزية وتركت المنصة وأنت ترأس الاجتماع ورحت تتوضأ وتصلي ركعات العصر وترجع ، وكل أعضاء اللجنة في انتظارك » ص ٥٨ فما أعتقد أن حدوده الفكرية كانت بلغت هذا المستوى ٠ ثم ان هناك كلاماً تلفه مسحة ضبابية كقوله : « أعني أن التاريخ مبني على تناقض أساسي ٠ لا نفهمه الا بعد مروره ٠٠٠ ولا يمكن استيعابه على الفور ، ولا يمكن لمسه ويصعب علي أن أمنطق كلامي هذا ٠ ماذا يفعل المعذبون ؟ انهم بأمس الحاجة الى الطليعة ٠ وهيهات أن تعرف الطليعة الفقر أو الجوع ٠٠ وفي الأمر أيضاً تناقض فادح ٠ ما العمل ؟ وهي بأمس الحاجة الى من يحركها ويدعمها ويشهر السلاح بأيديها ٠٠٠ الخ » (ص ٢٣٣) ٠

وأنا بدوري لا أستطيع أن أمنطق كلامي ولا أن أجعله أوضح مما هو عليه ، وأبسط ما أفهمه من الاشارات السابقة والتساؤلات التي تبدو محيرة ، انها تسعى الى أن تضعنا في مأزق يستحيل الخروج منه ، وكأنه يدعونا الى اغلاق نوافذ الحلم أو الى الاستسلام الى حالة من التفكك لا تماسك فيها ٠

وكل ما يمكن قوله بهذا الصدد أن الطليعة الحقيقية بامكانها أن تستوعب التاريخ وأن تعرف الفقر والجوع ، ولا أدل على ذلك من الروح النضالية التي كان يتحلى بها الطاهر الغمري ورفاقه ٠ وبوجدرة نفسه يشهد لهم بتضحياتهم الجسام ٠

وهناك مثل يتردد بكثرة في صفحات الرواية « هل يستقيم الظل والعود أعوج ؟ » حقيقة أنه لا يتسنى ولا يمكن للظل أن يستقيم في هذه الحالة الا أن اعوجاج العود يرجع الى أسباب أغفلت الرواية بعضها ، وقد يقال أن ليس من مهمة الأديب حل مثل هذه المشاكل ولا ينبغي له ، ولكن في اعتقادي أن الكاتب ملزم بحل المشكل الذي يطرحه فيما يكتب وهو أضعف الايمان ٠

ومهما يكن فان الجانب المتعلق بليليات الطاهر الغمري يأتي فيه الفكر منسجماً الى حد كبير وينساب فيه الأسلوب بشكل أكثر انسجاماً عبر تداعيات نفسية متصلة وطويلة ٠ اسلوب يتسم بالجدة والقدرة على تطويع الاداة اللغوية الى درجة مدهشة ، يكثر فيه التداخل والتداعي والتعرجات والالتواءات وتتزاحم فيه الأقواس والتكرار وتختلط البداية والوسط والنهاية حتى لا نكاد نميز بين حدود كل منها ، انه بايجاز التفكك بمفهوم فني موفق ٠



ويعمد الكاتب في كثير من الأحيان الى الاغراق في وصف الجزئيات والتفاصيل ، وان تجلت في ذلك امكانياته في القدرة على الوصف والقدرة أيضاً على تطويع اللغة لهذا الوصف ، الا انـه يضفي في الوقت نفسه مسحة ستاتيكية تبعث على الرتابة والملل أحياناً ، ولماذا يبدو الموقف أكثر وضوحاً وانسجاماً عندما يتعلق الحديث بالماضي ،في حين يشعرنا بنوع من التفكك والضبابية عندما يتعلق الأمر بالحاضر ؟

ربما لا لأننا نفهم الماضي جيداً بعد مروره فحسب بل أيضاً ــ وهذا هو المهم ــ لأن الماضي يسهل الانتماء اليه ، وهذا الانتماء من طبيعته أن يكون على مستوى الفكر المجرد ، مما يخول لفئات كثيرة ــ وان هي اختلفت ضمن الفكر الواحد ــ أن تتبناه وتنتسب اليه ·

أما الواقع المعاش فيقتضي حضوراً واعياً ومنظماً ، ولعل هذا ما يفسر عزوف بعض الكتاب عن الواقع الحي واللجوء الى الماضي ، حتى غدا التفكير عبارة عن حالة تذكر · وهذا الواقع هو الذي « أرهب طرقه الكثيرين » خلافاً لما ورد في صفحة الغلاف الأخيرة لأن الموضوع الذي طرقه بوجدرة ليس جديداً ، ورواية « اللاز » للطاهر وطار تعد رائدة في هذا المجال ·

واذا كان الميل الى التجريد خاصية ضرورية للفنان ، فانه بالمقابل يصبح عند بعض الفنانين مطية للقفز على الحواجز وتمييع القضايا الجوهرية والتهرب من تقديم موقف محدد وهناك ظاهرة تطغى على الرواية ، وهي أن بوجدرة لا يكاد يتعرض الى شخصية من شخصياته الا وتكون مصحوبة بالمشكل الجنسي ، واذا كنا لا نختلف في أن الجنس واحد من « الثالوث المحرم » الا ان وروده على هذا المنوال قد يجعله هو الأساس مع أن الكاتب لا يفكر بهذه الطريقة · وفيما يتعلق بمسألة الجنس هناك معادلة دقيقة بين المبدع والمتلقي ،وادراك المعادلة المذكورة أمر ضروري للكاتب قبل المتلقي ، حتى لا يفهم عمله بشكل معكوس وهو محتمل بالنسبة للقارىء في العالم الثالث أكثر من غيره ·

وعلى سبيل المثال ، نعرف من خلال الرواية أن الطاهر الغمري كان يمارس العادة السرية وفاء لزوجته ، ولكن القارىء لايستطيع أن يتبين هذه الحقيقة الا اذا كانت لديه معلومات سابقة ، أو سمع تصريحاً من الكاتب ، وفي الحالتين لا فضل للرواية · وأكبر الظن أن القارىء العادي سيتخذ من هذه الظاهرة حجة لتكريس الاعتقاد السائد عن كون الانسان الشيوعي اباحياً ضعيف الأخلاق ·

وبقدر ما كان الكاتب يطلق العنان للتداعيات النفسية تنساب في يسر ، بقدر ما نلمس تكلفاً في الجانب اللغوي ، اذ كان كما يبدو يسعى جاهداً لحشد أكبر عدد ممكن من الألفاظ المعجمية القديمة· وهو ما يشكل عقبة لا تسمح للقارىء بأن يتبع حرارة التداعي بصفة طبيعية عادية سهلة ·

قد يرى بوجدرة أن من حقه استخدام أية لفظة يحتوي عليها القاموس ، وقد تساعده الظروف والامكانيات على أن يتفرغ للبحث في المعاجم وترصيف المترادفات ولو كانت غريبة ، وربما كان يرمي من وراء ذلك الى تحدي بعض الأدباء الذين يكتبون بالعربية وهذه الاحتمالات لاتنفي عن بوجدرة كونه واسع الاطلاع على التراث العربي الاسلامي كما لا تنفي عن الرواية أيضاً أن فيها محاولة استعراض للعضلات اللغوية ·

ان صح ظني فهي ظاهرة أقرب الى الذاتية منها الى الموضوعية ، ولا تعدو أن تكون احدى الشطحات التي توحي بها طبيعة البرجوازية الصغيرة· واذا كان المثقفون ينتمون اليها فهم كثيراً ما يدينونها نظرياً ، ولا ينجون من شراكها عملياً ·



وكل ما أتمناه أخيراً أن يكون كاتبنا الكبير رشيد بوجدرة وهو كبير بشهادة النقــاد الكبار أن يكون ميله الى الكتابة بالعربية بدافع خدمة اللغةالعربية والرواية بالعربية عن اقتناع ، لا بدافع الذاتية والتنافس المجاني الذي كثيراً ما يصاب بهالأدباء ٠

أقول هذا لأن أديباً في مستوى رشيد بوجدرةليس أمامه سوى أن يضيف جديداً تلو جديد ٠

هكذا نترك سالمة وحاضرها المتفكك ، كما نترك الطاهر الغمري وقد أحياه الكاتب ثم أماته من أجل أن يقدم بعض الاضاءات التاريخية ٠

ولكن لماذا يسود التفكك وتبقى سالمة طائشةعلى الرغم مما يوحي به اسمها من تفاؤل ؟ اذا كان الأمر يعود الى طبيعة الفنان كما تحددهاالعبارةالواردة على لسان « ماهلر » في الرواية : « **الفنان رجل يسدد خطاه في الظلام ، فلا يعرف الام يهدف، وفيما اذا سيهدف يوما الى شيء** » ٠

اذا كان الفنان على هذه الحال ، فقد ضاعمنه الخيط وتاه في كهف مظلم ٠ والفنان الأصيل هو الذي يستضيء بنبراس الوعي عندمــا يسددخطاهفي الظلام،فيعرف الام يهدف ويظل هادفادوماً٠

وصحيح أن التاريخ مزيج من الحتمية والصدفة ، ولكن الصدفة اذا ما تكررت تصبح قانوناً ٠ وفي الأخير ، لعل الأسلوب في رواية « التفكك » أنيكون من أبرز العقبات في طريق القارىء فقد بلغ درجة من التعقيد لا مبرر لها ، وحتى أن الرواية ـ بسبب ذلك ـ تبدو وكأنها مترجمة الى العربية٠

مخلوف عامر



انفجارات

أحمد حمدي

بين الانفجار الباطني والتأجج

أحمد ختاوي

تحجر الضوء الأخضر تحت عيوني ،وأناأطوي آخر صفحة من مجموعة أحمد حمدي « انفجارات » ولعل هذا التحجر جاء نتيجةتارجحي بين ركام المصطلحات النقدية التي أحصى عددها « داميان غرانت » ونقلها خلدون الشمعة في كتاب له ب ٢٥ مصطلحا للواقعية فقط · وظني « الأجوف » أن مثلهذا العمل قد أخذ بالدراسة من قبل ، غير أن ايماني بوجوب المساهمة لدفع حركتنا الأدبية الى الأمام ـ خاصة ونحن نعلمافتقارها الى الدراسات النقدية جعلني أجلسالقرفصاءتاهبا لخوض غمار مضامين هذه المجموعةالتي تعد بحق احدى اللبنات الأساسية في ارساءودعم صرح الكلمة المجنحة في الفترة ما بين الستينات ووسط السبعينات ، حيث تمتدقصائد المجموعة عبر مسافة تقدر بتسع سنوات من (٦٥ الى ٧٤) حسب تواريخالقصائد ·

هذا ولا أزعم أن تأهبي يساوي تأهب الفارس المغوار الذي يشق الأمصار ،وانما هي محاولة استقراء ما جادت بهمخيلةالشاعر أحمد حمدي ، حسب امكاناتي ومؤهلاتي المتواضعة لأن العملية النقدية ـ في اعتقادي ـ يم يسبح في غوره السابحون ، والسابحون معروفون ، معلومون ، لكن من وجهة أخرىكما يقول المثل الشعبي « من قطرة للقطرة حتى تصير غدير » ·

ومن هنا فأنا أغرف غرفة وآخر يصب دلوا، وثالث ينهل ، ورابع يسبح علىالسطح، وخامس لا أدري ماذا يفعل ، وهكذا تدور مطحنة العملية الأدبية ·

وعلى صعيد مواز أشير الى أن النقد ـ في قناعتي ـ لم يعد طرحا ركامياللمدارس، بقدر ما هو غوص الى أغوار المادة الابداعية، لأن كل متلق يشعر بالنشوة أو الاشمئزازمهما كانت درجة المامه بالمدارس النقدية ، وتجواله عبر ضفافها ، والا كيف نفسر الذوق الجمالي لدى الانسان الذي يطرب لنشوة البارود وأغرودة الشحرور ؟ !··· أو لزقزقة « الرشاش » وهو يحصد الأكباد ، بصرف النظر عن الطريدة : عدوأ ·· غزالا وديعا · أو طفلا ، أو قطة جميلة لا تعرف من الكون غير الشمس والدفء ومداعبات الأطفال ·

أقول هذا من باب التواضع دوما ، اذ أمقت كل رجل عرف حرفا فأردفه بكبرياء لا تضاهي في ثقلها سعفا ، كما لا أدعي لنفسي أنني سأستطيع ولوج خبايا المجموعة، بقدر اجتهادي ـ حسب المستطاع ـ ·

تتربع المجموعة على٤٨ صفحة منالقطع الصغير ، تختزن في أحشائها ٢٤ قصيدة ·

□ الأمل والانتماء والحسرة :

تتوزع رحلات أحمد حمدي على عدة خرائط في وطن واحد كبير ٠٠ يسوده القلق والتطلع الى الأفضل ٠٠ والحسرة وشدة الانتماء ، فهو يناجي في يأس حبيبته في«نخلة الميلاد»أول قصيدة في المجموعة ، حيث لايستقر ـ شأنه شان بدوي راحل يبحث عن الكلأ ، وكلأ حمدي يكمن في كونه مبعثرا بين بيادر الأمل والفقدان ، الأمل المطارد ، ليطعم به ظمأه وشوقه ٠٠ وهكذا نجده يبحث عنه في كل الأقبية ٠٠ وأخيرا يعثر عليه بعد أن أضناه التجوال ـ في ركوبه للقدر المحموم ـ صهوة فرسه التي جابت أراضي الفيافي :

آه عيناك اليك ٠٠
منذ أن قشرت خوفي
وركبت القدر المحموم
في ليلي
عرفت الحب
أطفالا
واقواس قزح

يظفر بالحبيبة فيعانقها ، بعد شوق ، ويجيء الميعاد « يسقي نخلة الميلاد » وتكتمل الرحلة التي نعيب عليها الشاعر ، لأنه أبدى تخوفه واندهاشه ، وهو الذي ركب المخاطر، على عكس الفارس المغوار :

صديء الرعب
وغام الليل
كدست فواتير المآسي ٠٠
فوق جفني ٠٠

وتمتد رحلته بين المآسي والتطلع ليشرف في « حارة الأشواق » على آخر بقعة فيها » يقطع نفس المسافة ، يحدوه نفس الأمل ٠٠ لكن هذه المرة دون جدوى :

عبرت حارة الأشواق ٠٠
زائغ العينين ٠٠
أمضغ الصبار ٠٠

وفي « أغنية » يجدد الثقة بنفسه ،محاولا محو آثار الهزيمة ٠٠ لكنه لم يفلح دوما ، ويظل مهزوما بالرغم من محاولاته ٠٠٠ ويجر ثوب الحنان الرث :

وما نمنا
وطيفك في جفني ٠٠
تمثال حب
ليلي اغتاله الأرق ٠٠
واغتالني
في ارتيابي
الشوق والقلق
نامت نجوم
من أجل عينيك ٠٠
رائع ٠٠ عبق ٠٠

وفي « تائه في مملكة القلق » تزداد به هوة الاغتراب سحقا نحو متاهات لم يكن ينتظرها ٠٠ تبتعد به المسافات بالرغم من محاولته امساك طيفه وطيفها الذي أضحى فيما بعد دخانا يواريه أزمنة وأمكنة ٠٠٠ يبعد «عن مرافئه ، حيث ترسو آماله وأمانيه المنتظرة سفن الشمس المطلة ، والفجرالمنتظر ٠٠ فلا يلبث أن يشد على فرسه المنبعثة ومجدافه المكسور ٠٠٠

ويجد أن الغناء في مثل هذه الظروف من ضروب العبث ، فيستسلم ، وأن الصراخ في بئر مهجورة أمر مستحيل كذلك :

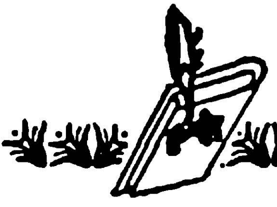
ويجف حلقي
فتموت أحلام الطفولة ٠٠
في المخاض ٠٠

وهكذا يرفع الراية البيضاء :

وأنا أضيع بدون ركبي
أتيه في قلقي
ودربي

ويظل الشاعر يبكي ويستبكي ٠٠٠ ويصرخ ولا من يجيب عبر « غزال » «تحدي» الى أن يصل « قمر الظهيرة » المهداة الى ناظم حكمت ، فيسكب عبراته على هذا الشاعر الفذ ، يعلن من خلال دموعه أنه لن يسكت ولو سكت المغني :

سكت المغني
وما سكت



ولم يفتأ الشاعر يعلن تحديه وانتماءه بالرغم من نكساته ، وهو الفقير الذي يشد زند لوركا في « فقير على صليب لوركا »كانه « يستشهده » ويجعل منه مرافقاً لرحلتـــه المأساوية المنكوصة ٠٠ عله يكون شاهداً أمام التاريخ الذي يخطو خطوات الى الوراء :

تختفي شوارع المدينة ٠٠
ويركض التاريخ للوراء ٠٠

ثم لم يلبث كذلك يدعو اخوانه ، وهم من زمرته ـ الى الوقوف على أعتاب الحقيقة واستنطاقها ، بعد أن يبدي أسفه الشديدعلى موت لوركا الذي أدرك سرها :

يا اخوتـي
لوركا على الصليب مات ٠٠
لأنه أدركها ٠٠
ساحرة الحياة ٠٠

وتزداد الهوة اتساعاً ، ويبقى المنحـى واحداً لا يتغير ، تموت كل أفراح الشاعر في المهد ، تشدهـا مخالب الزمـن الرديء ٠٠٠ الصديء ٠٠ تمنعها من اللعب كالطفل المدلل ٠٠ تدغدغها بيد من شوك وخوف وحزن ٠٠ هذا ما تترجمـه حروف قصائد « مشكلة « هاملت خارج المسرح » و « سلة الدخان » التي يجول فيها الدخان عارياً دون أن يأبـه بمن حوله ، وهل للدخان رداء؟ ! يشق شوارع الصمت والصراخ واللطف والقسوة والناس في جلودهم يسبحون في برك السنين العجاف الملأى بالذكريات الجميلة والقبيحة ٠٠ والشاعر في بيداء يبحث عن همسة تأتي من حيفا ٠٠ الهمسة التي غادرت قلبه ٠٠ وعـن هاملت المخطوفة من أحضان حبيبها والناس مجتمعون ٠٠٠ يتبارون حول مائدة الشطرنج في الساحات الواسعة المكتظة بالدموع والأفراح وقلــق الأمهات ، وعن الوجه المغموس في الوحل الى آخر بقعة في الجبين ، لكنه يبدي دوماً تحديه وصموده ووجوده ٠

□ الصمود والانفجار والانبعاث :

من عبرات الشاعر يطل الفجر ٠٠٠٠ وتنهمر الأبحر ٠٠ وتنفجر الينابيع ،وتصحو سماؤه ٠٠ ويحيا الانبعاث ٠٠ فبعد مخـاض طويل تتحول مجاري قصائده في المسار الثاني للمجموعة الى روافد « انبعاثية » بعدما ظلت أمداً طويلا حبيسة اليأس والكآبة ، ويغدوبها صاحبها غدوة أصيل محفوف بالتفاؤل والظلال الوارفة ٠٠ لكنهـا لا تدوم ٠٠ هذه جملـة أطروحات الشاعر في الشطر الموالـي مـــن المجموعة ، وسنرى ابتداء من قصيدة«قصائد الى الفلاح » كيف يتخلص أحمد حمدي مـن قيود الصقر ـ مؤقتاً ـ وعيون التماسيح ،دون أن يخلع ثوب تحديـــه الى أن يبزغ فجـــر النصر ٠٠٠ فينبعث مـــن جديـــد ويصحو مـــن غفوة اليأس منتقماً مـن زمـن كـان العقم فيه سيداً والفقراء عبيداً ٠٠ وسط دهاليز الصخر يشعل ثقـاب النصر للفلاح ويرسم ابتسامة الشفاه اليابسة ٠٠ والسنابل الظمأى ، يسل الشاعر سيفـه ، يحصد ظمأ السنين في كبرياء المتنبي وشهامة عنترة ٠٠ ويتنبأ بفجر جديد لفلاح جديد :

رغم سنين العقم ٠٠
تمتلىء الخوابي الكبيرة ٠٠
بالزيت ٠٠
والطحـين ٠٠

ويتابع الشاعر نجواه للفقراء٠٠ فيحدثهم في « أحاديث للفقراء » :

اتيت رغم الليل ٠٠
وعالم الدمـــار
وهذه الأشباح ٠٠
والبخـــور
حديقتي كانت
وكنا حولها ندور
وكانت السلاحـف
حاقدة « تقاوم »

وينغلق الصمت (صورة للشاعر ـ انتهت) من الصمت ذاته ٠٠ وينغلق الفجر ، مـــن الفجر ذاته ٠٠ هذا الفجر الذي ظل مكبوتاً كالمراهق الذي يخشى قهقهات الفتيات ٠٠ وترسم الحروف وتتفتح رؤى العاشق ، وهذه عيون الشاعر تتفتح على حقل منفجر ٠٠ وسماء منفجرة ٠٠ وأرض منفجرة ٠٠ وكون منفجر في « انفجارات » :



ركبت حصان التحدي
وبعثرت في النسغ
حبا كظل سحابة ..

الى أن يقول، في مقطع من نفس القصيدة:

واخلع هذي الأساطير
ما طحلبت في عروقي
فيسقط في القاع
صمت الفواصل ..
تحت الحوافر
اكبر مثل الشجر
فيصخب صوتي ..
يدحرج كل هذر
ويسبق كل كلام ..

وتمر على الشاعر سحابة عابرة في « كوحشة صبي » ممزوجة بمزنة ، وضباب وحزن لكن الناقوس يقرع ، فيعوضها بنفح زهرة في « الحزينة » عندما ينعتها بالعظيمة ، ويضعها عروسة على هودج النصر :

وانت عظيمة اكثر
من الماضي الكئيب ..
ومن جراحاته ..

أما القدس الحبيبة وهو عنوان احدى قصائد المجموعة ، فيعانقها – رغم محنها – يحاول فك أغلالها ، داعياً العرب في صرخة وتأجج الى قطع أظافر مختطفيها

فاصرخ يا دمي العربي ..
تفجــر
أحرق التاريــخ
ان القدس
فاتنــة
ومبيتــه

وليسمح لي الشاعر أن أعيب عليه بعض الشيء مباشرته ، وخفقاته في هذه القصيدة بالقياس مع قصائد المجموعة التي امتازت فنيا بنفحات شعرية ، اذا أخذنا بعين الاعتبار المدة الزمنية التي كتبت فيها القصيدة ١٩٦٧.

هذا ويرتبط الشاعر كلياً – عبر غدوته هذه – بأشعة أفراحه التي انشقت من الأتراح والتمزق الذي عاشه في مرحلته الأولى ، وهذا يتجلى واضحاً من خلال قصيدة « في مقلتيك » المفعمة بالتفاؤل ، في حين يعاوده الضجر في « كتابة على الجدران » فيتحسر بقوة أمام ما يزرع من دمار على الوجه الوضاء ، وهو المنتمي الى قائمة الفقراء ، يحاول التخلص من تمزقه ، وآهاته ، غير أن النوب وما تفرضه المآسي الحياتية لا تدع وجهه يصحو ويبتهج :

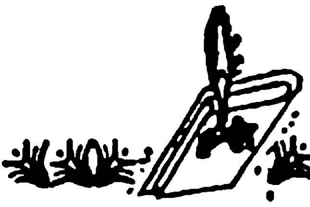
وانت يا حبيبتي الم ..
يجرح جبهتي
في موسم الحضارة
يغتالنــي
فارتمي في صوري القديمة ...

ويضرب الشاعر بمطرقته الغليظة على الطاولة « الكبرى » كقاض عادل ، لاحظ ضجيجاً وسط القاعة ، والقضية المطروحة أمام العدالة جوهرية وهامة :

سقط الاقطاعي
دم
العدل .. العدل ..
سقط الظلم ..

ويكبر ايمان الشاعر بقضيته التي يحملها على كاهله المثقل بالقضايا، كل القضايا التي تجرح أحشاء الفقراء والمستضعفين في الأرض، كما يعظم وجده ، ويدنو عيده ... المنتظر المرتقب فيما الأحزان تقبع على الضفة الأخرى تراقبه كعسكري مأمور .. ولايستسلم هذه المرة حين يسافر الى « جيكور » قرية الشاعر بدر شاكر السياب التي ارتبطت كثيراً بأشعاره ، والى «أنشودة المطر » قصيدة السياب المشهورة ، فيستوحي منها أحمد حمدي رؤاه، ويجتلي منها صبحه التائه ، في نعي للشاعر السياب المهداة اليه قصيدة « كان غريباً على الخليج » .

وينتظر صبحه دائماً في « الصباح فوق الجبال»،وهذه المرة من فيتنام ، موقع الأبطال،



الذين لقنوا الغزاة أروع الدروس في التضحيات والنضال ، ويتنبأ ببزوغ الفجر :

والمعتدون
خفاش ليل لا يدوم
يتسللون
الى المدائن في الظلام ..
والصامدون جنودنا
يتقدمون

وتأتي قصيدته « زهرة الياسمين » مشحونة بالحزن الذي لم يفارقه أبداً ، ممزوجة بضياء الشموع التي أشعلها الشاعر في غياهب سجن كربه .. وتعتبر هذه القصيدة أعمق قصائد المجموعة لما تحمله من شحنات شعرية وصور مؤثرة .. تمكن فيها الشاعر من الغوص الى قاع قضيته ، في نسج متماسك، ولعل ما أفردها – فنياً – كونها تحمل أقرب تاريخ الينا ١٩٧٤ وتجيء بعدها (ليس فنياً) « الفقراء والرماح » المؤرخة في ١٩٦٥ ،وهي آخر قصيدة في المجموعة ، يبحر فيها الشاعر صوب عالم الفقراء – ويعلن انتماءه لهم – يعصره الشوق الى يوم منتظر ، يرافق فيها ابن بطوطة والسندباد في رحلاتهم .. ياكل لقيمات خبز معتقة بالسمن والعدم والضباب والجوع القاتل .. هذه الكسرة ، لا تصل الشاعر اذ يقول :

ونحن الفقراء
يا رفاق
قلوبنا بالظما المحروق
لعالم الخيرات والضياء .

□ كلمة اخيرة :

اذا جاز لي أن أقول كلمتي في أحمد حمدي من خلال مجموعته « انفجارات » أقول أولا انني عمدت عنوة الى أخذ جانب واحد فقط – في المجموعة . وهو الجانب التحليلي – بقطع النظر عن كونه نفسياً أو اجتماعياً ، غير أنني من جهة أخرى أشير الى أن المجموعة تمتد من ٦٥ الى ٧٤ ما عدا سنتي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ المقيمتين .

الملاحظة التي يمكن ابداؤها بشأنها ، أن الشاعر ظل انهزامياً بنسبة كبيرة الى آخر سطر في المجموعة، بالرغم من محاولته السيطرة على قواه التي لم تسعفه ، ومرد هذا – في اعتقادي – أن أحمد حمدي لم يتماسك كثيراً وأطلق العنان للحزن الذي طغى على المجموعة، حيث تكررت لفظة « قلق » ٤ مرات في قصيدة واحدة ولفظة «حزن» عدة مرات عبر المجموعة، مما يفسر بوضوح أن انفجارات حمدي باطنية وأن القاموس المستعمل في تصفيف صور ورؤى قصائده لم يخرج عن اطار الحزن والقلق والانتصار المكبوت .

أما الانفجار الذي عنون به الشاعر أحمد حمدي مجموعته لم يطف على سطح الواقع وظل انفجاراً في بئر مهجورة . حقاً انفجرت قصائد المجموعة ، أو حاول حمدي أن ينفجر من خلالها ، الا أنه لم يستطع الخروج من شرنقته ، وهذا لا ينقص من قيمة الشاعر الفنية ، بقدر ما يدعوني الى القول بأن المجموعة – فنياً – بعيدة عن هذا الظن ، وانما ما أعنيه أن حمدي كان صادقاً فيما طرحه من خلال قصائد المجموعة ، مع ملاحظة ارتفاع نسبة تشاؤمه الى حوالي ٧٥ بالمائة . وهذا يقودنا كذلك الى القول بأن الشاعر استوعب ايما استيعاب المرحلة التي طرحها ولو تعدى بعض الشيء عتبات التشاؤم لأدرج في قائمة المتفائلين ، والشعر التقدمي – في تصوري – يجب أن ينقل التفاؤل أكثر.

ومما تجدر الاشارة اليه كذلك أن الشاعر استطاع أن يتحكم في اللغة ويلولبها وليسمح لي أخيراً ، وان جئت بما لا تتطلبه العملية النقدية ، لأنني – كما أشرت في بداية هذه المجالة – أنني لا أؤمن بتراكم النظريات النقدية بقدر ماأؤمن بالغوص الى أعماق الأعمال المطروحة .

كما أن هذه الوقفة غير كافية لتقييم عمل مثل هذا وغيره ، ولتبق نيتي في الختام انني ساهمت – مهما كانت المساهمة – في دفع عجلة حركتنا الى الأمام .

احمد ختاوي
الجزائر

البعد الاجتماعي في مجموعة الصّداع

للقاص : أحمد منور

محمد زتيلي

أرى أنه من الصعب علي أن أتناول العمل الادبي من جميع جوانبه شعرا كان أم قصة أم رواية • لأنني في الواقع ضد الدراسات التي تقول كل شيء ، ولكنها في النهاية لا تقول شيئاً ، ولا تفيد أحداً لا القارىء ولا الكاتب •

ولذا فسوف أتناول جانباً واحداً في دراستي للمجموعة القصصية التي تحمل عنوان : الصداع للكاتب الجزائري ـ أحمد منور ـ وهو الجانب الاجتماعي أو البعد الاجتماعي في المجموعة • وأعتقد اني سوف أصل الى هدفي بشيء من الهدوء والأناة والاحتكام الى العقل •

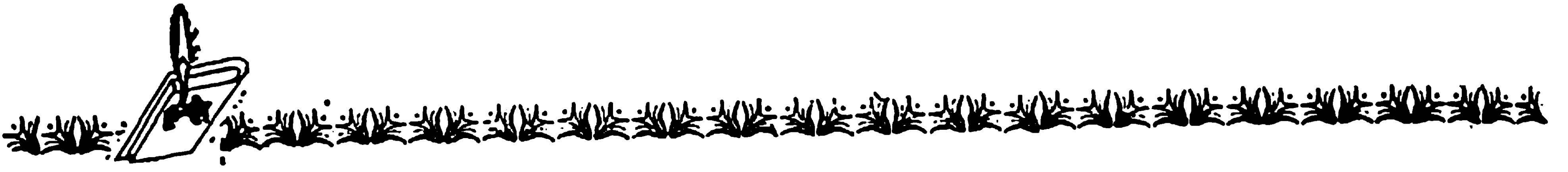
□ هذا البعد

وبدءاً لا بد من توضيح المقصود بالبعد الاجتماعي ما دام هذا المصطلح شائعاً ومستعملا استعمالات متعددة القصد ، اني أهدف في تناولي لهذه المجموعة الى أن أكشف وأحدد القوانين والعلاقات والظواهر الاجتماعية التي تشكلت في المجتمع الجزائري ما بعد الاستقلال ثم مدى قدرة الكاتب على تصويرها من جهة والابداع من داخلها من جهة أخرى •

وبتعبير آخر أحاول أن أكتشف مدى قدرة الكاتب على التعبير عن مجتمع جديد يمر بمرحلة انتقالية صعبة ، تتميز بظهور التناقضات الصارخة في كل المجالات ثم انسحاب أو نبوع ذلك على أو من نفوس الأشخاص الذين طرحتهم قصص المجموعة سيما وانها ـ أي المجموعة ـ كما قال عنها الدكتور عبدالله الركيبي ـ تعبر بصدق عن مرحلة ما بعد الاستقلال •

وفي محاولتي هذه سوف أختار الشخوص طريقاً للوصول الى الهدف • بمعنى دراسة المرحلة من خلال حياة الشخوص الذين عاشوها، أو دراسة الشخوص من خلال المرحلة ، حياتهم تفكيرهم ، العلاقات العامة والخاصة التي تربطهم ببعض • كل هذا ينبع من ايماني بأن القصة أو الرواية قادرة على اعطاء صورة واضحة عن مرحلة معينة قد يعجز علم التاريخ عن تصويرها ، كل ذلك عن طريق تصوير المجتمع البشري المتحرك بمستوياته وسلوكات أفراده وحيواتهم •

أي أن الأديب عندما يكتب عن مرحلة معينة فان ذلك يتم عن طريق تمثل الحياة العامة والعلاقات المتقاطعة التي تنعكس بالضرورة على حياة الفرد• من هنا يمكننا دراسة مرحلة معينة بكل اشكالياتها المتعددة ، المستوحاة من حياة أفرادها ، كل ذلك طبعاً اذا افترضنا مسبقاً حسن الطرح ، والفهم العميق ، والصدق في التمثل والتعبير •



هـذه المرحلة

باختصار ـ ان مرحلة ما بعد الاستقلال تعني خروج البلد الى مرحلة جديدة هي معركة البناء الوطني ، وهي بالنسبة لبلد اختار الاشتراكية تعني دخول هذا البلد مرحلة تنموية يطلق عليها الفكر الاقتصادي الاشتراكي مصطلح ـ المرحلة الانتقالية ـ التي ليس لها عمر أو زمن محدود • وهي تطول أو تقصر بحسب الأوضاع والامكانيات والارادة السياسية والجماعية • وينعتها الفكر الاقتصادي خاصة بمرحلة بروز التناقضات في مختلف الأصعدة كاحدى سماتها المميزة ، أي أن هذه المرحلة بصفة عامة هي مرحلة البحث عن الاستقرار • ومن هنا فان التوتر الذي يسود حياة الفرد والجماعة خلال هذه المرحلة لا يمكن بأي حال فصله عن السمة التي تميزها من جهة ، وعن الآثار المباشرة عليهم من جهة ثانية •

وعليه نطرح التساؤل التالي ، الى أي حد استطاع ـ منور ـ أن يعكس في مجموعته ـ الصداع ـ انسان هذه المرحلة ؟

ليتسنى لنا الاجابة عن هذا التساؤل لا بد من رحلة ولو سريعة رفقة أبطال القصص ، واكتشاف همومهم وطموحاتهم • ثم محاولة ربط كل ذلك بالمرحلة ربطاً غير آلي ، وهو ربط غير آلي لأن البطل عند الأديب ليس ناتجاً أو افرازاً للمرحلة فقط ولكنه ـ وهذا هو المهم ـ صانعها ومحاورها بشكل من الأشكال • سوى أنه ، وفي الحالتين ، تظل المرحلة البداية والنهاية في عملية الخلق والصراع التاريخيين • ومن هنا تأتي دراسة الشخوص بالطريقة التي سلف ذكرها لنتساءل فيما بعد ما اذا كانت تلك الهموم والمشاغل تعطينا صورة كافية عن معايشة المرحلة الانتقالية ذات التناقضات المجتمعية والطبقية على وجه الخصوص ، من خلال الصراع الدائم لارساء أرضية أكثر فعالية وصلابة وهذا على مستويين الأول الطموح والثاني مستوى الممارسة •

وأعتقد أنه من مهام الدراسة السوسيولوجية تصوير مدى قدرة انسان المرحلة على التأقلم أو التكييف ، أو الرفض ، والممارسة لمجموعة العلاقات الناشئة في مجتمع متحول ، وذلك من خلال التحلل والتوغل العميق في نفسيات الأشخاص ، والكشف عن الزوايا المظلمة والمضيئة على السواء ، في عملية التصادم والتي تنتج عنها غالباً اما بقاء الظاهرة على حساب الانقراض البطيء للاخرى واما موتهما معاً وبروز ظاهرة ثالثة بديلة • كل ذلك يمكننا معرفته بعد كل دراسة سوسيولوجية للأثر القصصي على وجه الخصوص ، نظراً للامكانيات الفنية التي يتمتع بها هذا اللون بالذات في هذا المجال • يمكننا تقسيم المجموعة الى فئتين ، القصص الاجتماعية و (**أو المجتمعية**) والقصص التاريخية ، مع العلم بأن هذه التفرقة ليست لها حدود مطلقة ، وقد لجأنا اليها فقط لضرورة منهجية • وتحت عنوان القصص الاجتماعية يمكننا ادراج العناوين التالية (تذكرة السينما ـ التقويم السنوي ـ الذئب ـ أكل البصل ـ عودة الأم ـ الصراع ـ المجنونة ـ هلال •) •

أما القصص التاريخية فهي (**اجتياز خط موريس ـ قلبتان من الشعير ـ الأرض لمن يخدمها**) وهذه القصة الأخيرة يمكن اعتبارها الجزء الثاني لقصة (قلبتان من الشعير) ، باعتبارهما تعالجان قضية الأرض في مرحلتين مختلفتين : مرحلة الاقطاع والاستغلال من طرف المعمرين • مرحلة الثورة الزراعية التي أعادت الأرض لمن يخدمها •

ان (سعيد) في قصة (**تذكرة السينما**) يشعر برغبة عارمة في أن عدم امتلاكه لثمن التذكرة يجعله يبحث عن وسيلة تمكنه من ذلك • وأخيراً وأمام قسوة والديه واللا مبالاة المتسترة خلف القيم الأخلاقية والتي قابله بها خاله ، الضيف ، وجد نفسه أمام حتمية بيع الحذاء ودخول « الفيلم » حافياً • وبالرغم من أسلوب التقرير والسرد وعدم ترك الأبطال يظهرون على السطح ليعبروا عن ذواتهم الا أن الأشخاص في هذه القصة يعطون صورة صادقة عن صعوبة المرحلة التي يعيشونها ، من فقر وسلوك غير مسؤول ، وعدم وجود قاعدة تحكم التصرفات والعلاقات بين الأفراد •

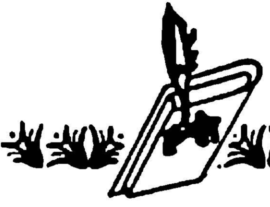


فالطفل برغبته البريئة والمشروعة في المغامرة ومشاهدة الفيلم · والأم بقسوتها وعوالمها النفسية المليئة بالعقد الموروثة والمركبة · والخال الرجل العادي القاسي العنيد الأناني ، وأخيراً الشرطي ـ رجل النظام ـ وقد صوره الكاتب طيباً · فهو في البداية لم يترك الطفل يدخل الى قاعة العرض حافياً ، الا انه وبعد أن عرف قصة حصوله على ثمن التذكرة أشفق لحاله، كل هذه النماذج من الأشخاص هي نماذج المرحلة المتحولة ·

فقسوة الأم مثلا لم تأت اعتباطاً · بل ان عنصر الصدق والعفوية هو الذي جعل الكاتب يصورها كذلك · فالمعروف أن المرأة في الطبقات الفقيرة لم تعرف الرقة الا في حالات شاذة ، وذلك لأن قسوة الحياة المعيشية والمادية تنعكس بكل ثقلها على السلوك الجماعي فتجعله يغلب عليه طابع القسوة والتشنج ـ فالطفل ـ سعيد ـ رمز للتطلع المسحوق في مجتمع متحول أما الخال والأم فيمثلان بالنسبة للطفل المجتمع والظروف الصعبة أما الشرطي فان تذبذبه بين التطبيق الحرفي للقانون ـ وفي هذه الحالة يلحق الظلم بالطفل ـ وبين وضع الظروف المادية في الحسبان خلال عملية التطبيق ، يمكن اعتباره تذبذباً غير مجاني بل على العكس تماماً ،لقد استطاع ـ منور ـ أن يطرح ـ فنياً ـ ظاهرة تعاني منها المجتمعات المتحولة في هذا المجال ·قدم لنا الكاتب كل ذلك عن طريق تصوير عفوي صادق لتصرفات الشخوص وليس عن طريق مقولات نظرية · والقصة عموماً صورة من واقع الطفولة خلال مرحلة ما بعد الاستقلال ، وقد نجح القاص في جعل حركة الأشخاص داخل القصة سريعة ما داموا من الأطفال الذين لا يميلون الى الثبات في مكان واحد · أما عن شخص ـ الذيب ـ في القصة التي تحمل نفس العنوان ، فان جوها العام لا يكاد يختلف عن القصة السابقة ، سوى أن موضوعها فهي تطرح قضية الجوع لدى الأطفال وبعض تصرفاتهم نتيجة لذلك (اذن أفضل أن أبقى في السجن ما دام الخبز متوفراً) ص ١٥ ·

وهذا الموضوع مرتبط أساساً بمرحلة صعبة وقاسية تمر بها المجتمعات المتخلفة · فجوع الفرد والطفل ليس ظاهرة عادية ، وليست من قبيل الصدفة ، ولذا فقد طرح القاص قضية الجوع طرحاً عميقاً في هذه القصة بالذات وذلك من خلال الأشخاص الذين اختارهم التقديم فكرته وتصوير قطعة نابضة من الحياة · فالطفل والحاج (صوفة) والكلاب والقطط والاسكافي كلها شخوص تحمل دلالات عميقة في القصة ، فالطفل الضائع وسط عالم الجوع والظلم ، الباحث عن الأكل يقابل بالحاج (صوفة) رمز الفرد الباحث عن الثورة دون الاهتمام بالغير ويظل حمدان الاسكافي النقيض الكامل للطفل ، فهو جائع ولا يريد أن يأكل الخبز الا بعد التأكد من أنه غير مسروق أي الخبز الحلال·

وتتكامل صورة الجوع في لقطة رائعة قدمها لنا القاص ، صورة الكلاب والقطط الجائعة وهي تأكل الخبز المسروق · ان ذلك يعني توحد الانسان بالحيوان في مأساة الجوع أي أن الانسان اذا جاع تحول الى حيوان شرس · والقصة بالرغم من أنها أعادت الينا أجواء قصة (البؤساء) (لفيكتور هوجو) · يسجن (جان فال جان) من أجل سرقة خبزة ، ويسجن الطفل سعيد من أجل نفس الفعل · فقد حملت شخوصها دلالات عميقة عن الواقع المجتمعي لفترة من التاريخ وارى أن هذه القصة تصلح لاخراجها قصة مصورة للاطفال ، وهذا الاقتراح لا ينتقص من قيمة القصة ، ولكنه يعبر عن اعجاب حقيقي ، والعلاقة بين البطالة والجوع هي علاقة السبب بالنتيجة · وقد عالج منور مشكل البطالة في قصة (أكل البصل) ، فالبطالة من الأمراض التي تعانيها المجتمعات وتواجهها وجهاً لوجه في مرحلة البناء الوطني · فبطل القصة مغترب في فرنسا وعائد الى الوطن بغية الاستقرار الدائم وفي غمرة يأسه من العثور على عمل بدأ يفكر من جديد في العودة الى ديار الغربة · الا أن نصائح الأهل وأقوالهم تقنعه (بأكل البصل حتى يفرجها الله ويأكل اللحم) ص ٣٦ ولكنه بعد أن يجد عملا في شركة ما بعد طول انتظار ، تقف البيروقراطية حائلا دون تحقيق الأمل ، ويجعل منه هذا المرض المتفشي في الأجهزة الادارية للدول النامية كرة تتداولها المصالح المتعددة كل ذلك من أجل اتمام تحضير أوراق ملف التوظيف · وتنتهي القصة بفشل البطل في الحصول على العمل نتيجة تلك الممارسة السلبية · وأرى أن هذه النهاية جاءت ناجحة فنياً بحيث أن البطل لم تكن له وسيلة ممكنة للتغلب على



المشكل ، وكذلك لأن البيروقراطية في البلدان التي تمر بالمرحلة الانتقالية نحو الاشتراكية لا يمكنها القضاء على البيروقراطية بالسهولة التي يمكن ان تتصور ، أي أن الكاتب لم يحاول أن يخدع منطق المرحلة وكذلك القارىء ، بافتعال نهاية سعيدة ٠ فالبيروقراطية ظاهرة ما زالت متفشية ،وبالمقابل فالقضاء عليها يعتبر من ضرورات الخروج من المرحلة المتخلفة لأنها وجه من وجوهها ، وعليه فقصة ـ أكل البصل ـ ستظل وثيقة أدبية واجتماعية وتاريخية لفترة معينة ، ومن بين الشخوص الذين نجح الكاتب في تصويرهم في المجموعة بطل قصة ـ التقويم السنوي ـ فهو موظف بسيط مسالم ، ذو اهتمامات وطموحات محدودة وتميل القصة نحو طابع الفكاهة بحيث صور القاص بطلها ذا تصرفات بلهاء ومجانية كما أن ضمير المتكلم الذي يسرد الحدث حسب تنصيف تقريري ـ الحالة المالية ـ الممتلكات ـ الهوايات ـ الآمال ـ التطلعات ـ قرب القصة من بعض الطرق الصحفية المتبعة في الكشف عن هموم مواطنين من فئات مجتمعية معينة وذلك بأسلوب أدبي رفيع مما يجعل الطريقة أو الشكل المتبع وسيلة ساعدت القاص على الوصول الى الهدف ٠

وتقترب قصة ـ هلال ـ من هذه القصة في كون كل منهما محاولة لتصوير نماذج بشرية تنتمي الى مرحلة ومجتمع معينين ويتضح من نهايتها انها قصة واقعية ، وان القاص قد عرف البطل معرفة قريبة أي يبدو أن الكاتب قد انتزع هذه القصة من الواقع ثم أعطانا تصريحاً يكشف هذا في النهاية ـ بعد شهور طويلة كنت مارا في أحد أزقة قسنطينة الضيقة ، فلفت نظري رجل مسكين أعمى يجلس في زاوية الشارع ويهذي بكلام يدل على أنه مجنون، وكان يضرب الأرض بعصاه ويهدد ويتوعد وأحيانا يضحك فوقفت هنيهة وأمعنت النظر فيه فاذا هو هلال المسكين وقد آل حاله الى هذا المآل ٠ فهلال شخصية ريفية كما يتضح من القصة ـ وهو مستغل من طرف والده وزوجته اللذين يعاملانه معاملة الطفل الصغير الذي لا حول له ولا قوة الى أن أدى بهما الى تطليق زوجته ـ في غيابه ـ نتيجة خصام نشب بينها وبين زوجة الوالد ٠ وأخيراً طرد هلال من المنزل نهائياً ، وبالرغم من أن الشكل الفني الذي اختاره الكاتب هو شكل الحكاية أو الأحجية ،نظراً للنهاية والقفزات الزمنية سيما زمن النهاية البعيدة عن زمن الحدث العام ، الا أن القصة تظل عقلاملتصقاً بالواقع شاهداً عليه ، ومؤشراً لصعوبة المرحلة وتذبذبها الذي ينسحب على حياة الأفراد فيسحق البعض وينجو البعض الآخر ٠ أما قصة « **الصداع** » التي تحمل المجموعة عنوانها فهي في رأيي قصة رمزية سوى أن القارىء قد يفهمها بمدلولاتها البسيطة دون أن يكلف نفسه عناء فك الرموز هذه الرموز التي أعطانا الكاتب مفاتيح الدخول الى جوهرها وقد مر عليها الدكتور عبدالله الركيبي في مقدمته لمجموعته مروراً عابراً دون محاولة للوقوف عندها قليلا وكان عليه أن يفعل ذلك سيما وان الكاتب قد أعطى المجموعة عنوانها مما يؤكد لنا أنها ليست قصة مجانية ، وأن وراء الشخوص رموزاً ودلالات مجتمعية، أو مرحلية ٠ فبطل القصة صوره القاص في حالة قصوى من الضياع ، ويصادف في غمرة ضياعه امرأة فيلاحقها وفي بيتها يكتشف أنها ـ عاهرة ـ ويمنعه «**الصداع**» من أن يفعل شيئاً (ياللصداع المجنون أنه يقطع علي الطريق أبداً ويحطم كاسي قبل أن أرتوي)ص٧٦٠

ان بطل الصداع رمز للانسان الضائع الباحث عن شيء ما يقوم به ، وفي ذروة ذلك الضياع يتراءى له حلم ـ فكرة ـ ثم يتكشف له في النهاية أن حلمه مجرد وهم وأن الوصول الى تحقيقه أمر ليس سهلا، وان السبب المنعقد من ذلك الضياع يجب مواصلة البحث عنه بالرغم من « **الصداع** » (ولكن كان همي أن أخرج من هذا الزقاق المظلم الذي لاتراه الشمس) ص ٧٧ ٠

وعليه فان صعوبة الامساك بالحلم هو المعادل الموضوعي لصعوبة الخروج من المرحلة ٠ ويبقى الشارع المظلم الأرضية التي يقف عليها البطل والتي ينطلق منها في آن واحد ٠ وما الصداع الذي أصاب البطل في هذه القصة الا لأن الامساك بالحم ظل أمراً صعباً وان الضياع ظل يؤرق البطل فالصداع مرحلة الضياع والحم ٠ واذاً فالقاص ـ أحمد منور حين أطلق هذا العنوان على مجموعته قد حقق كثيراً من النجاح ، كما أن الدكتور عبدالله الركيبي حين قال عن المجموعة ـ انها تعبر بصدق عن مرحلة ما بعد الاستقلال كان صائباً الى حد بعيد ٠ ومن القضايا المطروحة على الساحة ما بعد الاستقلال قضية اللغة



واسترجاع الهوية الثقافية ، ولم ينس الكاتب أن يفرد هذا الموضوع بقصة فيها كثير من المباشرة والخطابية ولكنها مع ذلك تطرح القضية بشيء من الجرأة ، خاصة وان مفاتيح فك الرموز لا تحتاج الى بذل جهد ، وهي تصلح في رأي ـ مثل قصة الذيب ـ أن تخرج قصة في كتيب صغير للاطفال شريطة أن يعيد الكاتب النظر في النهاية ، فعودة الأم الأصلية لا يتم عن طريق فرش الدرب لهـا بالورود والأزهار لاستقبالها استقبالا لائقاً بها ، ان هذه النهاية غير ديناميكية ولا تدعو للفعل ، ان الأم التي تنتظر فرش الطريق بالأزهار كي تعود ستظل غائبة الى الأبد ، ، كما أن فهم البطل لعودة الأم الأصلية فهم محدود لأنه يقصره على تزيين الجدران ، وتمثل الأرض القضية الأولى التي تواجه البلدان حديثة الاستقلال· لأن الأرض تعني المشكلة الزراعية وهي عصب الاقتصاد الوطني ، وان هذه المشكلة كانت وما زالت احدى العقبات الصعبة التي تقف في وجه البناء الوطني ، يتطلب تجاوزها فهماً عميقاً وارادة صلبة لاحداث ثورة ، والأديب وهو يسهم بدوره في هذا المجال يجد نفسه مطالباً بذلك، وقد حاول منور في قصته ـ قلبتان من الشعير ـ و ـ الأرض لمن يخدمها ـ أن يطرح هذه القضية فجعل القصة الأولى لتصوير المشكلة والوضعية في عهد الاستقلال الكولونيالي والاقطاعي للارض والفلاح الجزائري ، والقصة الثانية للثورة الزراعية التي وضعت حداً للمرحلة الأولى وأدخلت القضية الزراعية بتحريرها للخماس ومنح الأرض لمن يخدمها عهداً جديداً ، فالممر في القصة الأولى يستفيد من الأرض ويستغل الانسان ثم ينفذ أحكاماً طاغية ·

ولم تقل قسوة استغلال الاقطاع عن ذلك بكثير· أما في القصة الثانية فتصادفنا الثورة الزراعية وتطبيق أحكامها (رئيس البلدية وضابط الثورة الزراعية) ثم الاقطاعي المعرقل للثورة ،والسيارة، رمز الثورة المتقدمة ، حين تصادف الثعبان في طريقها ، رمز الثورة المضادة ، أو أعداء الثورة ·وقد داسته السيارة ليموت نهائياً بعد أن تلقى ضربة قوية من قبل · والقصتان بتصويرهما الدقيق للوضع والصدق في الطرح ، استطاعتا أن تعطينا صورة كافية عن مشكلة الأرض في البلدان المتحولة نحو الاشتراكية · ولم ينس الكاتب أن يعود بنا الأيام الحرب ، والبطولات التي قام بها الجندي الجزائري خلال الثورة التحريرية الكبرى وهذا في قصة (**خط موريس**) ، الخط الجهنمي المعروفة قصته تاريخياً · سوى أن الكاتب تناول موضوعه من منظور الحدث الخارجي فقط ، فصور البطولات كما يفعل صاحب الكاميرا دون أن يتغلغل داخل القشرة ، وهذا من واجبه ككاتب ومثقف ، أي ألا يكتفي بتصوير الحدث الثوري من الخارج (**البطولات**) وأن يذهب الى أبعد من ذلك فيضع اصبعه على (الفكرة) أي خالق الحدث نفسه ، وهذا ما حاول أن يفعله الروائي الطاهر وطار في (اللاز) وقد حقق شيئاً من النجاح · وتبقى (المجنونة) القصة التي طرح فيها القاص قصة حب في مجتمع متحول، فأكد (منور) فيها قدرته على سبر أغوار النفس البشرية وتفجير جانبي الخير والشر فيها بعاطفة صادقة وعميقة ، وروح شعرية شفافة ، وهي على عكس ما ذهب اليه الدكتور الركيبي في مقدمته حين اعتبرها مغرقة في الرومانسية ، فهي قصة منتزعة من الواقع المضطرب المتحول ـ كما أسلفنا ـ ولعل السبب الذي جر الدكتور الى أن يطلق حكمه ذلك ، نجاح الكاتب في هذه القصة بالذات ، في أن يرتفع بالأبطال درامياً ، وأن يتمكن من تفجير احساساتهم ، وتصوير دقائقها وحتى لو صح أن نطلق على مثل هذا النجاح سمة الرومانسية ، فهي رومانسية ثورية ، فالأديب يظل أعرجا ما لم يتمكن من الوصول الى مستوى رفيع من الدراما ، وما انتحار (المجنونة) في النهاية الا دليل على أن المرحلة المعاشة هي مرحلة صعبة ، وان نهاية المرحلة ما زالت بعيدة ، ولذا فضحاياها مازالوا يتعاقبون· ونلمس في هذه القصة نجاحاً كبيراً حققه الكاتب في استعماله للغة والحوار · يذكرنا بامكانيات نجيب محفوظ على الخصوص ، كما أن هناك تشابهاً كبيراً بين بطل هذه القصة في علاقة حبه بالمجنونة ، وبين المعلم في (نهاية الأمس) لعبدالحميد بن هدوقة في علاقة حبه التي فجرتها من جديد التلميذة ابنة عشيقته الغائبة · وأخيراً فقد برهن أحمد منور بمجموعته هذه على أنه أديب هادىء وعميق،ويعمل بعيداً عن التهريج · فحضوره متواصل وامكانياته في تقديم الأفضل ملحوظة وسوف تبقى هذه المجموعة وثيقة أدبية شاهدة على المرحلة ·

محمد زتيلي

قسنطينة اكتوبر ١٩٨٠

من ذكريات الثورة الجزائرية :

تجربة جديدة

د. عبدالله ركيبي*

دلفت بنا السيارة داخل المعتقل ·· كان الاخوان المعتقلون قد خرجوا كلهم ، احتشدوا أمام عنابرهم ·· كانت أعمارهم مختلفة بيد أن معظمهم من الشباب ·· نظروا الينا محاولين أن يعرفوا هؤلاء الجدد الذين انضموا اليهم ·· لعل البعض يتوقع أن يرى أخاه ، أباه ، أحد أصدقائه أو أقاربه ·· حاول البعض منهم أن يقترب منا فصاح فيه قائد الفرقة :

ـ مكانك ·· لا تقترب ··

وتساءلنا : ـ انها بداية لا تبشر بخير ··

ـ ماذا تنتظر منهم غير هذا.. نحن في معتقل..

ـ أليس هناك حرمة للمعتقلين.. انهم بشر..؟

ـ أنت تعيش في وهم ·· متى احترمونا ؟؟ متى أقاموا لنا وزناً ؟؟

ـ الاحترام لا يأتي بسهولة ·· لا بد أن يفرض عليهم ·· وما قامت ثورتنا الا لتحقيق ذلك ··

وبدأ قائد القافلة ينادي على أسمائنا أمام مدير المعتقل وهو ضابط ألماني (شارك فيما بعد في الاعتداء على مصر في حرب السويس) وعندما انتهى من مناداتنا قدم له كشفاً بأسمائنا ثم انسحب مع جنوده ·· وهنا اندفع الاخوان نحونا يعانقوننا في حب ومودة ·· يصافحوننا في تعاطف صادق لا نظير له ·· ورأينا الكثير من الاخوان الذين سبق أن عرفناهم ·· سي عبد القادر ·· حمود · بو حافص ·· فرحات ·· سليمان ··· وغيرهم ممن درسنا معهم ·· كانوا يهتفون بأسمائنا وقد استبد بهم فرح طاغ ·· كانت الأسئلة تنطلق من أفواههم جميعاً في وقت واحد مصحوبة بألفاظ الترحيب :

ـ مرحباً ·· أهلا ·· كيف ألقوا القبض عليكم ؟؟

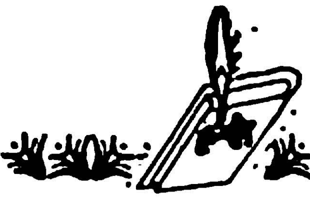
ـ هل ضربوكم كثيراً ؟ ·· اننا في شوق الى أخبار الشعب ··

ـ قبضوا علينا داخل المدرسة ··

★ انهى دراسته الجامعية والعالية بقسم اللغة العربية ـ جامعة القاهرة ·
★ شارك في تاسيس اول اتحاد للكتاب الجزائريين بعد الاستقلال ·

مؤلفاته :

١ ـ مسرح الطغاة « مسرحية » ·
٢ ـ نفوس ثائرة « قصص » ·
٣ ـ قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر ·
٤ ـ القصة الجزائرية القصيرة ·
٥ ـ تطور النثر الجزائري الحديث ·
٦ ـ دراسات في الشعر الجزائري الحديث ·
٧ ـ احاديث الأدب والثقافة ·
٨ ـ الشعر الديني الجزائري الحديث ·
٩ ـ الأوراس في الشعر العربي ·



ـ وبعد ذلك ٠٠ ؟

ـ عذبونا كثيراً ٠٠ ضربونا ٠٠

ـ نقلنا الحجارة على أكتافنا ٠٠

ـ أطلقوا علينا الكلاب ٠٠ جردونا من ملابسنا ٠٠

ـ ان مظهركم يدل على ذلك كله ٠٠ يا للسفاحين ٠٠ !

ـ وأين سي العربي ؟؟

ـ تركناه في المستشفى « بمغنية » ٠٠ عذبوه عذاباً أليماً حتى فقد وعيه تماماً ٠٠ لم يتحمل المسكين العذاب ٠٠ تركناه في حالة سيئة للغاية ٠٠

ـ شفاه الله ٠٠

ـ لقد أغمي عليه أكثر من نصف يوم ٠٠

ـ هل حقاً نقلتم الحجارة ؟

ـ كنا ننقلها مسافة طويلة ونحن نجري بين صفين من الجنود الذين كانوا يتفننون في تعذيبنا ٠٠

ـ ولكن ما هي التهمة ؟؟

ـ لا شيء ٠٠ قتل ضابط الشرطة أمام المدرسة فاتهمونا بقتله ٠٠

ـ كسروا باب المدرسة ثم ساقونا الى مركز اللفيف الأجنبي ٠٠

ـ كيف تركتم الشعب ؟؟

ـ كما عرفتموه ٠٠ لا يفكر في شيء سوى الحرية ٠٠

ـ ان شعبنا اليوم يعيش حالة غليان لا نظير لها ٠٠ ان كل ما يصيبه يزيد في حماسته ٠٠

ـ لقد بهتوا ٠٠ انبهروا ٠٠ من صلابة شعبنا فكلما ضاعفوا العذاب ازداد صموده ٠

ـ أجل ٠٠ ان لهيب المعركة سيحرق أعداءنا ويطهر صفوفنا من بقايا الماضي العفن ٠٠

ـ ماذا تسمعون في الخارج ؟؟

ـ لاحديث الا عن ثورتنا ٠٠ الصحف والاذاعات كلها تتحدث عن كفاحنا وبطولة شعبنا ٠٠

ـ وماذا عن الجيش ٠٠ عن الفدائيين ؟؟

ـ انهم يحققون كل يوم انتصارات على العدو ٠٠ والامدادات التي تصل كل يوم من فرنسا لم تفدهم شيئاً ٠٠ انهم يحاربون شعباً باكمله ٠٠

ـ اتركوا الاخوان يرتاحون بعض الشيء ٠٠ انهم متعبون ٠٠

ـ ولكننا نريد أن نعرف المزيد ٠٠ ان البعض منا لا يتلقى أخباراً عن أهله ، فقد مضى علينا سنتان هنا منذ قيام الثورة حتى الآن ونحن لا نسمع الا ماتمدنا به الصحف الاستعمارية.. سنقيم لهم حفلة وسيتحدثون فيها الى جميع الاخوان حتى يسمع الجميع ٠٠ ان هذا أحسن ٠٠

ـ فعلا ٠٠ هذا أفضل ٠٠ لقد قررت لجنة الاشراف على المعتقل أن تقام حفلة بحجرة رقم تسعة ٠٠ ونتحدث مع الاخوان كلنا.. دعوهم يستريحون الآن ٠٠

ـ الى اللقاء ٠٠ الى اللقاء ٠٠

لم يبق معنا سوى بعض الأفراد ٠٠ كانت أسئلتهم لا تنفد ٠٠ كلها تدور حول الشعب والحزب ٠٠ وكان الليل قد بدأ يلف الكون ٠٠ وبدت الأضواء المعلقة على الأعمدة الكهربائية وعلى السور تجعل المعتقل وكأنه في نهار ٠٠ لم نكن قد شاهدنا المعتقل بعد .. كنا نود القاء نظرة عليه ٠٠ عن هذا المقر الجديد ٠٠ وبادرت سي عبد القادر أحثه على الذهاب معنا :

ـ نريد رؤية هذا المكان ٠٠

ـ لا تتعجل ٠٠ ستراه كل يوم ما دمت هنا ٠٠ لا شيء فيه يغري ٠٠ انه معتقل ليس أكثر ٠٠

ـ مهما يكن ٠٠ نريد أن نراه ٠٠

ـ غداً في النهار ٠٠ سترون كل شيء ٠٠ ستملون رؤيته ٠٠ انه بلا طعم على الاطلاق ٠٠

ـ يظهر أنك لاترتاح اليه يا سي عبدالقادر..

- ومن يرتاح الى الرتابة .. الى هذه الوجوه الحاقدة .. اننا نعيش معهم مثل القط والفار .. هم يترقبون الأوامر ونحن نترقب الموت ..

- انها مرحلة ستمر باذن الله .. وستبقى ذكريات ..

- ان سي عبد القادر تشوق الى مكتبته وداره .. أليس كذلك ؟؟

- سيرجع اليها عما قريب .. وسنشرب عنده الشاي الأخضر بالنعناع كما عودنا ..

- لا أظن .. يئست .. ان الداخل هنا لا يخرج .. ان التفكير في الرجوع حلم ..

- ما أكثر ما تحققت أحلامنا يا صديقي .. لقد تحققت أشياء كنا نظنها من قبيل المعجزات ..

- صحيح ولكننا هنا نعيش بعيداً عن المعركة ..

- لا اننا نعيش نفس المعركة التي يعيشها شعبنا .. ما المعركة ؟؟ انها النضال في كل مكان .. وعلى كافة الجبهات .. كل يؤدي دوره في حدود طاقته .. لاتتشاءم.. ستعود الى بيتك ونحن معك .. وسنأكل الكسكسي تحت الشجرة الجميلة ونحتفل بنصرنا ..

- أزف الوقت .. نتناول العشاء ثم نذهب الى الاخوان .. انهم يترقبوننا هناك ..

وجاء العشاء .. أكلنا أول وجبة في المعتقل .. كان طبقاً من البطاطا وكان الاخوان يضحكون وينكتون وهم يشاهدون طابوراً طويلا من المعتقلين كل واحد يمسك صحافه بين يديه يترقب دوره .. وبدأت التعليقات تنهال من هنا وهناك ...

- ان شعارنا هنا « اخدم نفسك بنفسك »..

- هذه هي العدالة .. الناس هناسواسية..

- لقد حققنا الاشتراكية فعلا رغم فرنسا..

- لا تنس أن « جي موليه » اشتراكي هو الآخر ..!

- انه لم يطبق الاشتراكية حتى في بيته .. الاشتراكية عنده حرب وخراب .. انها القتل والدمار للشعب الجزائري .. هذا هو مفهومها عنده وعند صديقه المزيف « لاكوست » ..

- أما نحن فنمارسها فعلا لا قولا ..

- لقد كشفنا زيفهم للعالم كله بفضل ثورتنا الزاحفة ...

- ان المبادىء يصعب أن تعبر البحر الأبيض المتوسط .. تتجمد فيه .. حرية .. اخاء .. مساواة .. شعارات كاذبة .. دجلوا بها على الانسانية زمناً طويلا ..

- ولكن ثورتنا فضحت أكاذيبهم.. شعاراتهم الزائفة .. وتشدقهم بالديموقراطية الكاذبة ..

- وهذا هو سبب حقدهم علينا ..

- هيا .. الاخوان يترقبوننا منذ مدة .. يودون الاستماع اليكم ..

واتجهنا الى حيث اجتمع كل المعتقلين .. كان المكان قد غص بهم .. حيونا جميعاً .. أحاطوا بنا .. كانت الحجرة طويلة.. صفت فيها الأسرة الصغيرة التي لا تكاد تتسع لفرد واحد .. جلس البعض والبعض الآخر وقف خارج العنبر .. كان العدد يربو على الثلاثمائة .. وأتوا بالشاي وهم يرحبون بنا ..

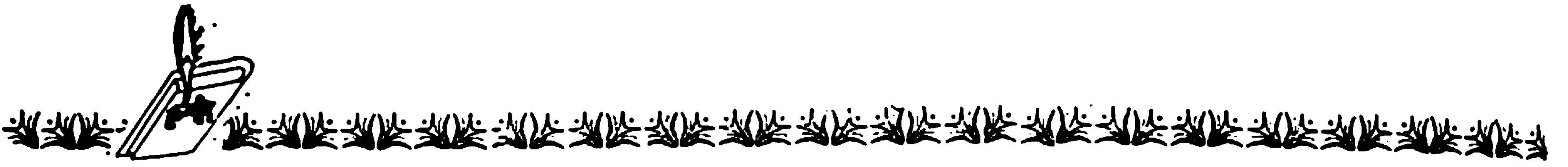
- أهلا بالاخوان .. مرحباً بكم ..

- بارك الله فيكم ..

- أنتم الآن مع اخوانكم ..

- هذا ما يتمناه كل مناضل جزائري ..

كان الاخوان كلهم ينظرون نحونا وهم يبتسمون لنا ... وفجاة وقف واحد منهم .. كان شاباً نحيفاً نظراته نفاذة.. كلامه هادىء عميق .. بدأ كلمته بالترحيب بنا وذكر أن انضمامنا اليهم هو مشاركة في النضال الباسل الذي يخوضه شعبنا .. تحدث كثيراً عن المعركة التي تخوضها الجزائر ضد الاستعمار



ثم رجانا أن نتحدث نحن للاخوان الذين كانوا ينادون ويطالبون بذلك ·· سألنا عن اسمه نعرفنا أنه « البشير » ·· ونظر بعضنا الى بعض ·· وأشرت الى سي محمد أن يقوم ليحدث الاخوان ·· حدثهم عن الثورة ·· عن الضغط الذي يعاني منه الشعب ·· عن تحمله وصبره وصموده ·· حدثهم عن نجاح قضيتنا في المجالات الدولية ·· واستمر الاجتماع حتى ساعة متأخرة من الليل ·· ثم ودعونا ·· واتجهنا الى حجرة رقم ١٢ حيث أعدوا لنا أسرة هناك ·· وارتمينا على الأسرة « الأمريكية » كما يصفها الاخوان ·· وضحك سي عبد القادر وهو يقول :

- هل أعجبتكم الأسرة الأمريكية ؟؟

- انها ضيقة جداً ·· انها لا تحتملنا كما يظهر ··

- ولكن لماذا سميتموها أمريكية ؟

- لأنها صنعت هناك ·· انها مصنوعة للجندي كي يستلقي عليها لا كي ينام ··

- هذه اعانة لنا في الحرب ·· !

- تعطي حليفتها فرنسا الطائرات والدبابات ·· وتعطينا نحن الأسرة لننام عليها في السجون والمعتقلات ·· هذه هي أمريكا··

- نحن لا نريد اعانتهم ·· الاعانة وراءها ما وراءها ·· نحن لا نريد سوى حريتنا·· ان العربي في نظرهم لا يستحق سوى رصاصة أو سرير كهذا ···

- ألا ترى كيف يئن ؟؟ انه يتوجع هو أيضاً ·· ها ·· ها ·

- تعب مثلنا ··

- انني تعبت ·· أود النوم ·· ألا يمكن أن تسكتوا ··

- نام يا بارد القلب ·· ماذا يفيدك النوم ؟

- هذا مزاح لا يعجبني ·· انه ثقيل على نفسي ··

- ستتعود عليه يا أخي مهما كان ثقيلا ·· لا يمكننا أن نعيش دون بعض المزاح ··

وتساءلت في نفسي : لماذا تميز الفرد الجزائري بهذا المزاج الذي يغلب عليه طابع الحدة والانفعال والجدية الزائدة ·· ؟ ولكن من يدري لعل هذا المزاج هو الذي أمده بالقدرة على التحدي ومواصلة النضال والصبر والنفس الطويل الذي أدهش العالم فيما بعد ··

وأعادني الى الواقع صوت أحدهم يقول :

- ان المزاح لم يخلق له سوى من فقد معنى الحياة ··

- وهل نحن أحياء هنا ؟؟ اننا نعيش في قبر.. في قلق ·· في فراغ ·· لقد قتلنا الفراغ.. ألا تحس بهذا أنت ؟؟

- لا ·· ان الفراغ تحسه في ذاتك أنت ·· اننا نعيش هنا من أجل الآخرين ··

- دعونا من هذه المناقشات البيزنطية ·· اننا متعبون ··

- ارقد يا أخي ·· تصبح على خير ··

- تصبحون على خير ··

خفت الأصوات شيئاً فشيئاً وبدأ الشخير ينبعث من هنا وهناك ·· وكنت أتسمع الى هفهفة الثلج الذي بدأ يهطل بشدة ·· وأحسست بهدوء نفسي وأنا أستمع الى هذا الصوت ·· ودارت بنفسي خواطر لا حصر لها ·· أخذت أسترجع مناقشة الاخوان هذه ·· وتمتمت : « متى يسفر الصباح »؟!

بادرني سي يخلف بالتحية في الصباح :

- صباح الخير ··

- صباح الخير ·· ألا تريد مشاهدة هذا المنظر الجميل ·· انك تحب الثلج ··

- فعلا انه منظر ساحر ·· الثلج يوحي بالصفاء ·· بالبساطة ·· انه يريح النظر ·· هيا نخرج ·

وخرجنا ·· كان الثلج يرتفع أكثر من ذراع فوق سطح الأرض ·· كنا نشقه في سيرنا فيحدث خشخشة لها وقع السحر في النفس ·· وأخذنا نتجول في أنحاء المعتقل الذي بدا واسعاً جداً ·· يحيط به سور من



الأسلاك الشائكة وخلفه سور آخر سميك من الصخر • وبينهما مساحة يتجول فيها الجنود حاملين بنادقهم وقد وقفوا في أماكن مختلفة.. ولفت انتباهي هذه الشجيرات التي تناثرت هنا وهناك وقد أثقل الثلج أغصانها • وبين الفينة والفينة تسقط كتل صغيرة من الثلج.. وشعرت بنشاط رغم أن الجرح كان ينغص علي هذه المتعة الفريدة •• هطول الثلج في فصل الربيع •• والتقينا في تجوالنا بالاخوان سي فرحات وسي سليمان فسارعنا بالتحية :

– واش راكم ؟؟

– لا بأس •• الحمد لله ••

– انك تتالم من رجلك •• هيا نذهب الى الطبيب •• انه فرنسي •• الخمر لا تفارقه •• ولكن يساعده الأخ حسن أحد المعتقلين هنا •• انه يقف أمام الباب ••

واتجهنا الى حجرة صغيرة في طرف المعتقل حيث بادرنا الأخ سي حسن مرحباً :

– مرحباً بكم ••

– الأخ مريض •• ساقه مجروحة ••

– حالا ساقدمه للطبيب ••

كان الطبيب رجلا كهلا •• يوحي منظره بالضحك •• كانت عيناه منتفختين ووجهه محمراً يكاد يطفر منه الدم •• رفع رأسه من بين أوراق كانت أمامه ونظر الي في بلاهة، ثم تحدث الى سي حسن :

– ماذا أصابه ؟

– ان رجله مجروحة •• لقد أطلق عليه الجنود الكلاب هو وزملاؤه •

– كيف •• هل هذا ممكن ؟؟

– هذه هي الحقيقة ••

– شيء غريب ••

– انظر الى هذا الجرح ••

وبدأ يفحص الجرح وملامحه تعبر عن التعجب والاستغراب كأن المسألة في نظره فوق التصور ، ثم أعطاني دواء •• وجاء آخرون ووقفوا في طابور أمام الحجرة وضحك أحدهم وهو يقول :

– ماذا قال لك هذا السكير ؟؟ ان الزجاجة لا تفارقه فهو مدمن ولهذا فعلاجه غير نافع ••

– ربما يفيد ••

– لا •• لا تحاولوا •• ان علاجهم غير مفيد •• ان داءنا منهم •• في وجودهم ••

– صدقت يا أخي • لعنة الله عليهم وعلى علاجهم بل ووجودهم ••

عدنا الى التجوال من جديد •• دبت الحركة في المعتقل •• خرج الكثير من المعتقلين يمشون فرادى وجماعات يتريضون •• ان سير الحياة على وتيرة واحدة تجعل الشخص يشعر بالملل رغم ما يبذله من محاولة ايجاد وسيلة للتسلية •• فالزمن هنا يبدو طويلا جداً •• فالنهار لا يتحرك •• والفراغ فاغر فاه كأنه وحش ضار يكشر عن أنيابه •• كان الاخوان يحيوننا بابتساماتهم أو باشارة من أيديهم أو رؤوسهم •• وفجأة انطلقت رصاصة تدوي في الفضاء •• اتجهنا نحو الصوت • كان المعتقلون يتسابقون نحو المصدر الذي انطلقت منه الرصاصة •• وأحاط الاخوان بزميل هناك لم تصبه الرصاصة لحسن الحظ •• انهالت عليه الأسئلة من كل جانب :

– ماذا حدث ؟؟ لماذا أطلق عليك الرصاص؟؟

– بدعوى أنني اقتربت كثيراً من الأسلاك ••

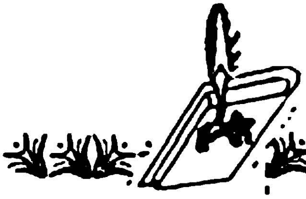
– انهم يتحدوننا كل يوم •• يجب أن نوقفهم عند حدهم •• اننا لن نرضخ أبداً ••

– نقدم شكوى ••

– ان الشكوى لا تفيد •• آه •• لو لم تكن هذه الأسلاك لأريته كيف يكون التحدي •• واندفع المعتقلون قرب الأسلاك وهم يصرخون في الجندي :

– هيا •• أطلق علينا الرصاص ••

– هيا •• أيها الأجنبي •• أيها المستعمر ••



جرى الجنود من كل ناحية ·· رقدوا على الأرض وقد صوبوا نحونا بنادقهم ورشاشاتهم وهم يجأرون كالوحوش ··

- ابتعدوا ·· عودوا الى حجراتكم والا أطلقنا عليكم النار ··

- أطلقوا ان كنتم شجعاناً ·· أيها الضعفاء..

- لن ترهبونا ·· اننا لا نخافكم ··

- انهم يرتعدون رغم البنادق ·· الا ترى أيديهم كيف ترتجف ؟؟

- يا اخوان ·· لا فائدة ·· الأفضل أن نعود ··

- لا لن نرجع ·· سنبقى هنا ونرى ماذا هم فاعلون ؟؟

- اننا لا نخاف الأرانب ·· نحن أقوياء ·· أقوياء ··

وتدخل المسؤولون عن المعتقل يهدئون من ثائرة الاخوان ·· وكثر الهرج والمرج ، فالبعض يؤيد البقاء والآخر يعارض ·· أحسوا بالظلم الصارخ ·· بالاهانة ·· بالذات ·· وبعد فترة ابتعد الاخوان ورجعوا الى حجراتهم وهم في حالة من الهياج الشديد مما جعل البعض يصرخ في عصبية بل هناك من بكى في تشنج وهو يصيح :

- أواه ·· حياة لا تطاق ·· ان الموت أفضل منها ··

- هدىء من روعك يا أخي ·· أيام وتنقضي ··

- طالت ·· طالت ·· أف ·· انني أمقت نفسي ·· أمقت كل شيء ·· ضقت ذرعاً بحياة السوائم هذه ··

- لسنا سوائم أبداً ·· ان حياتنا شرف ونضال ·· لا تقل هذا يا أخي ·· ألسنا في هذه الوضعية من أجل الوطن ·· ؟!

- لا ·· النضال ·· الشرف ·· الحرية ·· انها في الجبل لا هنا ·· ان الحرية ان تملك مصيرك فهل نحن نملك هذا المصير ؟

- نعم ·· نحن نملك مصيرنا بل نصنعه هنا وفي الجبل وفي كل مكان من أرض الوطن ·· ولكن شاباً صرخ في سخط وثورة جارفين :

- هذه ألفاظ مزيفة ·· نحن هنا كمثل الخراف نترقب السكين ليس غير ··

- ولكن هناك الآلاف بل الملايين سينتقمون لنا ·· سيثأرون لنا منهم جميعاً ·· لن تذهب دماء الشهداء هدراً ··

- ألا ترى هذا الضابط ·· انه يأتي كل يوم ليردد علينا اسطوانته التي كرهناها ·· كل يوم يأتي بأوامر جديدة ·· الا ترى هذه العنجهية وهذا الصلف الأجوف ·· ها هو قادم ·· ويردد النغمة الرتيبة ·· ولكن هل استجبنا ؟ هل رضخنا لأوامره ؟؟

- انه يأمرنا أن نحي العلم الفرنسي داخل المعتقل وكأننا عبيد عنده ··

- وهذه قوتنا ·· لقد رفضنا بالاجماع ·· وسيرجع خائباً من حيث أتى ·· هيا نتسلى بعض الشيء ونسمع ما يقول ··

وجاء المعتقلون كلهم ·· وتحلقوا حول هذا الضابط الذي وقف كالديك الذي نتف ريشه فبات منظره مثيراً للضحك ·· أخذ ينظر يميناً وشمالا في هذه العيون التي تنظر اليه في احتقار وازدراء ·· كان يطلق كلماته وهو يحاول أن يثير الرهبة في النفوس ··

- انكم هنا معتقلون ·· لا بد أن ترضخوا لأوامر الحكومة الفرنسية ·· وقد قررت حكومة الجمهورية أن تحيوا العلم الفرنسي ·· كما يجب على كل فرد منكم ان يذهب بمفرده الى الادارة دون أن يصحبه أحد المسؤولين عن المعتقل ·· مفهوم ·· ؟ هل هذا واضح ؟

واطلق بعض الزملاء صفيراً خافتاً كمامرت وشوشة على شفاه الحاضرين ·

- ليس مفهوماً ··

- دعه يضرب في الحديد البارد ··

ـ انه يريد أن نذهب الى الادارة منفردين لعلهم يؤثرون على معنويات البعض منا ٠٠ هذه خدعة لا تنطلي على أحد ٠٠

ـ اننا لم نحيِّ العلم خارج المعتقل فكيف نحييه هنا ؟؟ انه مجنون ٠٠

ـ ما لكم لا تجيبون ؟؟ ما هذا السكوت ؟ انني لا أتحدث الى صخور ٠٠

ولم يرد عليه أحد اطلاقاً فاستشاط غيظاً.. وأخذ يوجه الحديث الى الأخ الصديق رئيس المعتقل والأخ الحواس وغيرهما ممن يمثلوننا أمام الادارة الفرنسية :

ـ لماذا لا تجيب أنت ٠٠ أيها المسؤول عن المعتقلين ؟ تكلم ٠٠

ـ لقد أجبناك وجوابنا معروف ٠٠ اننا نرفض هذه الأوامر الظالمة ٠٠ نحن هنا لسنا عبيداً ٠٠ نحن معتقلون من أجل قضية عادلة ٠٠

ـ ها ٠٠ ها ٠٠ قضية عادلة ٠٠ هراء ٠٠ انكم أسرى وعليكم تنفيذ ما يطلب منكم والا فستعرضون أنفسكم للعذاب ٠٠ انكم لا تعرفونني ٠٠ ألا ترون هذه الأشرطة على كتفي ٠٠ لقد نلتها بشجاعتي ٠٠ ان من يتحداني سالقنه درساً قاسياً ٠٠ أفهمتم ؟؟

ـ نحن لسنا أسرى ٠٠ لن نفعل الا ما يمليه علينا واجبنا فقط ٠٠

ـ يبدو أنك وقح ٠٠ ان رصاصة من مسدسي ستسكتك نهائياً ٠٠

ـ لست رجلا حتى تفعل ذلك ٠٠ أطلق الرصاص ان كانت فيك بقية من شجاعة كما تدعي ٠٠

ـ تباً لك ٠٠ هيا يا جنود ٠٠ أخرجوه من هنا ٠٠ سترى شيئاً من شجاعتي أيها المتطاول على ضابط فرنسي ٠٠

ـ لا تلمسوني ٠٠ سأذهب الى حيث تريدون ٠٠

ـ قيدوه بالقوة ٠٠

وأحاط الجنود بالأخ « الصديق » واقتادوه الى زنزانة بعيدة علينا ٠٠ وسارع الجنود ينصبون مدافعهم الرشاشة يوجهونها نحونا في تحد واستفزاز ٠٠ وكان الاخوان يصيحون :

ـ جبناء ٠٠ أطلقوا سراحه أيها المجرمون ٠

ـ أيها الاخوان ٠٠ علينا أن نجتمع في عنبر ٦ لنقرر ما يجب اتخاذه ٠٠ لا بد من موقف ٠٠

وسارع الاخوان الى العنبر ٠٠ كانت وجوههم مربدة ٠٠ نفوسهم تغلي كالمراجل.. كان الكل يفكر في رد الاهانة بشيء عاجل ٠٠ وقف أحدهم في ثورة عارمة وأخذ يصرخ :

ـ لقد رأيتم بأعينكم كيف أهين رئيس المعتقل٠٠ لقد تكررت اهاناتهم ٠٠ أطلقوا علينا الرصاص بدون مبرر ٠٠ يوقظوننا من النوم باكراً بدعوى أنهم يفتشون على السلاح ٠٠ واليوم يريدون أن يطبقوا علينا أوامرهم الجائرة ٠٠ انهم يطلبون منا المستحيل٠٠ كيف نحيي علمهم الكريه؟؟ ما رأيكم ؟؟

ـ لا بد من عمل ٠٠

ـ نقوم باضراب لا نهائي ٠٠ لن نرضخ أبداً ٠٠ نحن جزء من هذا الشعب الذي لم يرضخ أبداً لهم وضرب المثل البطولي في صموده وكبريائه ٠٠ موافقون على الاضراب ؟؟

وتفاوتت الاجابات والتعليق :

ـ هناك من الاخوان من لا يقدر على الاضراب ٠٠ ان مرضهم مزمن ٠٠

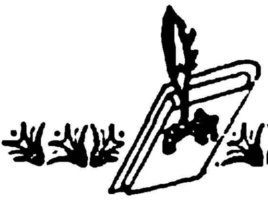
ـ نخشى أن يهلكوا جميعاً ٠٠

ـ هذه مسالة مبدأ ٠٠ الاهانة أشد خطراً من المرض ٠٠ انها موت للكرامة ٠٠

ـ موافقون ٠٠ موافقون ٠٠

ـ فعلا ٠٠ لا حل الا بالاضراب عن الطعام ٠٠

ـ سنعلن لهم ارادتنا٠٠ بأننا قررنا الاضراب اللانهائي حتى يطلق سراح الأخ « الصديق » ٠٠ والآن عودوا الى حجراتكم في هدوء ٠٠



ورجع الجميع الى حجراتهم ·· كانوا يفكرون في هذا القرار ·· فالاضراب عن الطعام ليس سهلا ·· ولكن لا بد منه ·· انه سلاح من لا يملكون سلاحاً آخر ··

تحلق الاخوان حول بعضهم يعلقون على القرار وينكتون ·· واستمر الاضراب ثلاثة أيام ·· كان الجنود ياتون كل يوم بالخبز وعلب السردين فنرفض كل ما يأتون به ·· حاولوا بكل الوسائل أن يؤثروا على معنويات المعتقلين ·· يهددون تارة بالقتل والعذاب ·· ويعدون تارة أخرى بالافراج عنا ·· كانوا يريدون أن يحطموا هذه الوحدة الرائعة وهذه الارادة الجماعية التي ترعبهم دوماً ··

وبالطبع تعب المرضى كثيراً ·· كنا نحس بآلامهم النفسية والجسدية وكنا نشفق عليهم ·· بحثاً عن بقايا خبز جاف وقمنا بتسخينه لهم ولكنهم رفضوا رفضاً قاطعاً ··

كنا نتكلف الدعابة والمرح ·· ونحاول أن نتظاهر بأن الجوع لا يؤثر علينا أبداً ·· وكنا نحاول النوم ولكنه جفا عيوننا ·· القراءة لم تفد ولا اللعب ·· ولا أي تسلية أخرى وبات البعض منا حساساً الى درجة كبيرة بحيث لا يتحمل كلمة أو دعابة ما ·· ومع ذلك فلم تقع أية مشاجرات اطلاقاً لقد ضرب الاخوان أروع الأمثلة على ضبط النفس والروح الوطنية العالية ·· ان من لم يجرب ضيق المعتقل أو السجن ولا عرف اضراب الجوع لا يمكنه تقدير هذا الذي أقوله ·· ان مثل هذه الظروف تحتاج الى صبر شديد ·· تحتاج الى ايمان قوي ومعنويات من حديد ··

وفجأة أطلق سراح « الصديق » ·· واجتمع الجميع في العنبر نفسه وصافحناه ·· عانقناه ·· رحبنا بعودته في حب وأخوة صادقة ·· ثم انهالت عليه الأسئلة :

ـ ماذا فعلوا معك ؟؟

ـ تركوني كعادتهم ·· لم يفكروا في أبداً حتى وجدت نفسي معكم ··

ـ هل عرفت أننا قمنا بالاضراب عن الطعام ·· ونحن مضربون الآن ··

ـ أواه ·· ليس من حقكم أن تقوموا بذلك من أجلي ·· ان هناك مرضى ·· عجزة .. شيوخ ·· هذا أمر لا أوافقكم عليه ··

ـ بالعكس ان الجوع أفادهم كثيراً ··

ـ نعم ·· الجوع لا يقتل الرجال ·· الاهانة هي التي تقتلهم ··

ـ لقد أضرب البعض من قبل أكثر من شهر ولم يمت وهو موجود معنا وأنت تعرفه ··

ـ لقد كنت رجلا في موقفك ·· عبرت عن شجاعة الجزائري حقاً ·· وعن كبريائه··

ـ بل عبر عن كبريائنا جميعاً ·· حقاً ان الكبرياء هي حياتنا ·· خبزنا ·· ذاتنا·· من دونها لا نساوي شيئاً ··

ـ انها كبرياء العربي التي لا تقهر ·· لقد عرضت نفسك للموت ولم ترضخ ··

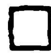
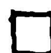
ـ لقد قمت بالواجب·· وأي واحد منكم كان سيفعل نفس الشيء ··

ـ فعلا ·· نحن لن نتردد في أن نموت جميعاً من أجل كرامتنا ··

ـ لقد حققنا ارادتنا وانتصرنا عليهم ·· وسننتصر دائماً ·· فليحيا شعبنا ··

رددها الاخوان كلهم في حماس وابتهال ·· وكانت البسمات قد ارتسمت على الوجوه ·· بسمات الانتصار والزهو والفخار ···

د· عبد الله ركيبي

قصة قصيرة

الوصية

عبد الحميد بن هدوقة

زجاجة « السيروم » تقطر برتابة وانتظام قطرة قطرة • قلب المريض ينبض نبضا متثاقلا • بعض « الأبناء » الجالسين هناك راح يعد قطرات المصل النازل من الزجاجة الى الأنبوب البلاستيكي المثبت بذراع المريض • أحد الاختصاصيين يراقب خريطة النبض على جهاز بالغرفة • أجهزة الانعاش على أهبة لتقدم للمريض في أي لحظة ما يحتاجه من عون •

المريض ينظر الى الزجاجة نظر الميت ، لا خفقة ، لا رعشة • على شفتيه ابتسامة حولتها رغوة السيروم الى اصفرار ساخر •

انه حي بكل ذرات عقله• لكنه لايستطيع الكلام ، لا يستطيع الحركة •

الابن الأول في عينيه دمعتان تلمعان يقول في نفسه : « لو انقطع السيروم عن تغذية هذا الجسم الهيكل لانتهى الأمر ! »

الابن الآخر يفكر : « انه حتى لو بقي بلا سيروم لما مات ! لأنه هكذا هو : يتحدى دائماً الموت ! لا يموت ! » •

الابن الثالث تنغصه قضية « الوصية »• تشغل كل خواطره : « المأساة لو لم ينطق ، يموت قبل كتابة الوصية ! » •

الابن الرابع في المرحاض ! •••

الابن الخامس بالمطبخ يطارد احدى العاملات !

الابن السادس يغط في نومه ، رأى في المنام أن عزرائيل ملك الموت جاء لقبض روح الأب لكن بدلها، قبض روحه هو ! انه في حلمه المزعج يحاول تخليصها منه !

الابن السابع يسبح ، على الطريقة العربية ، في مسبحة من ذهب •••

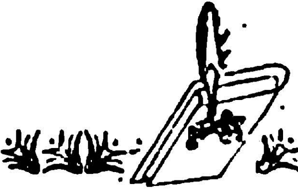
الابن الثامن •••

الابن ••••

المريض ينظر الى الزجاجة ، الزجاجة تتحول الى ثريا منيرة بجامع الأزهر • على ضوئها تشكلت حلقة من الطلاب المسلمين ، يتوسطها أستاذ أزهري ، ملامحه تشع ذكاء وحيوية • أخذ يقرأ قصيدة قدمها له الطالب (المريض) •••

الشيخ الأستاذ يقرا القصيدة على الطلبة، بعدما قرأها لنفسه :

« اقسو على نفسي ،
« أهجر أولادي وبيتي ،
« أهجر زوجتي •
« انسى حبي الكبير وانا صغير •



« أهجر خمـري وملذاتي ،
« أحيي ليالـي في خلوتـي ،
« أحادث نفسي ،
« بالأغنية الجديدة
« بالحياة الجديدة ،
« حيث الأفق والشاطىء يتعانقان
« باذرع وردية ـ لازوردية !
« حيث الخبز والحرية يتضاحكان ،
« على شفتي فتاة ...
« هي الحب صار أغنية !

« أقسو على نفسـي
« أفتش في متاهات ضمـيري
« في أقاص وجودي
« في ذرات دمي
« عن نقاط جديدة
« عن حروف جديدة
« لأغنية جديـــدة ،
« حيث الأفق والشاطىء يتهامسان ،
« بالكلمة الجديدة .
« حيث الخبز والحرية يتناجيان ،
« بأسماء جديدة ،
« في أرضي الجديدة ! »

البسمة ـ الحلم تغمر وجـه المريض ! أحد الأبناء يلاحظ انبساط وجـه المريض : « لا يموت ، انه يسخر منا . يمكن أن يبقى هكذا قروناً ! »

الابن الأول ، لا ينظر الى الوجه ، ينظر الى الزجاجة، تطلق قطراتها في مهل . يتساءل: « ما قيمة الحياة اذا تحولت الى أجهزةخارجية، ليست هي أجهزة الجسم ؟ » .

المريض يستمـع الى الصوت العـذب ، « بحيرا ـ الأزهري » يقول له :

« أنت يا بني ، لن تكون كشمعةالشمع، تضيء على الناس باحتراقها ... أنتشمعة من كهرباء ها ها ها !.... »

يضحك الشيخ الأزهري ، وجد الكلمة! ... شمعة من كهرباء ! في الأزهر البحثكله عن الكلمة ! الكون كلمة ! رسالات الأنبياء كلمة ! أحكام الجلادين كلمة ! الحب كلمة!. وجد الكلمة : « أنت شمعة من كهرباء تضيء ولا تذوب ! ها ! ها ! ها !.. »الطلبة يضحكون . الطالب ـ الشاعر لا يضحـك ، يستمع ، يفكر في الاضاءة بلا احتراق ... : « بحيرا ـ الأزهري » مصيب . أقسو علـى نفسي ، لا أحترق ... »

الشيخ الأزهري فتحت نفسه القصيدة الى الحديث :

« كنتأرغب كثيرافي الالتحاقبالجندية. تعتريني في بعض المرات حالات لا أستطيـع تصويرها لكم ... أتمثل نفسـي ضابطاً . أرى الناس صغاراً أمامي،أمام فوهةبندقيتي. صغاراً بشكل غريب ! وأروح أحلم ، ملتذاً بالقوة التي أعطتني اياها البندقية والبـذة العسكرية ... وعندما يعود أبي في المساءمن عمله في مزرعة الباشا ـ كانت مصر كلهـا مزارع باشوات حتى « خان الخليلي » ـعندما يعود ، أعرض عليه رغبتي فيرفض . وأروح أحاول تحسين حيـاة الجندية لـه . أصور جوانبها المضيئة . أزوقها بكل الألوان التي يسعفني بها خيالي ، لتبدو له مضيئة جميلة ... لكنه لا ينثني . خلـق لبنـاء الأهرام كأجداده !.. يقول : « كل شيء ولاالجندية! عاطفته « البوصيرية » طاغية على مشاعره وأفكاره . حاولت اقناعه عن طريق الدين . قلت له : « ان الجندية هي الطريق الىالجنة! كل الفاتحين هم الآن في الجنة ! « لكنه دائماً يجيب : « هل الباشا كان جندياً ؟ هل جده كان جندياً ؟ رأيته في المنام في الجنـة ... ناولني لبناً أشربه من واد بالجنة ! » أحاول افهامـه أن وادي اللبن رمز . أقول له : ان حرمانك وعملك ببستان الباشا هو الذيأراك جنته . علينا نحن أن نبني جنتنا ! الجندية هي الطريق ... « لكنه كما قلت لكم : من بناة الأهرام ! يبنيها للباشوات ...

« أما خالي ... شيء آخر ! كان يقول دائماً : « الذي يريد صنع مستقبله في بلدنا عليه أن يلتحق بالثكنة ، لا بالمدرسة ! »

الطالب ـ الشاعر يعي كل ذلك . يبتسم: « الجنة تحت ظلال السيوف لافي أروقةالأزهر!



الحلم ليس دخاناً يعرج الى السماء ، هوسيف مضيء ٠٠ »

الجانب الفارغ في الزجاجة أشد ضوءا من الجانب الممتلىء ٠ ومع ذلك فالجنة تحت ظل السيف !

المصل يقطر في مهل ٠ في استطاعة الموت أن ينتظر ٠ في استطاعة الحياة أن تتمدد٠٠ الحلم يختلط بالشعر وبالموت : « أقسو على نفسي ٠٠ أفتش في متاهات ضميري ٠٠ في ذرات دمي ، عن نقاط جديدة ، عن حروف جديدة ، عن أغنية جديدة ٠٠ »

يختلط كل شيءفي ذهنه ٠ الحالةالمرضية صيرت الذكريات بلا زمن ، بلا فضاء ٠ المسكنات أزالت جوانب العنف والمرارة من حياته الماضية ، كل الأشياء التي عاشها من قبل ، ها هي ذي تتحرك في خياله بلاأصوات٠

انسحب الأبناء من الغرفة ما عدا الابن الأول ٠ الزجاجة توشك أن تلفظ من فمها آخر قطرة ٠ ينظر الى وجه المريض ٠تستولي عليه الحيرة والذعر ! يتأهب ليصرخ ٠٠لكن الكلمات كانت أثقل من حركات الممرضة التي خرزت الابرة في الزجاجة الجديدة ، بمجرد أن لاحظت انتهاء السابقة ٠ تساءل وهو يشاهد المريض أغمضعينيه؟ طمأنتهالممرضة: « اغفاءة عادية تشبه النوم وليست نوماً ٠ »

فكر الابن أن الوصية التي هي مثارجدل بين الاخوة منذ أن تدهورت حالة المريض لا معنى لها ٠ الحياة التي ترتبط نهايتها ـ في أحسن الأحوال ـ بزجاجة مثل هاته التي أمامه ، حياة لا تستحق وصية ثم ان القانون واضح : يأخذ كل ذي حق حقه ، فلمالوصية؟

المريض يفتح عينيه ٠ ينظر الى الابن الباقي بالقرب منه ٠ ينظر الى الزجاجة ٠ يحس بنشاط ذهني ٠ تبرز في نفسه قصيدته القديمة ٠ يوم أن كانت أحلامه أكثر من رأسه ٠ الشيخ الأزهري يثني عليه : « أنت شمعة من كهرباء !٠٠ » مسكين ذلك الشيخ ! شمعة الكهرباء عندما تحترق لا تضيء على أحد ٠ الباشوات يخرجون في الظلام ، عندما تحترق الشموع ! خان الخليلي ملك للصاغة٠ مسجد الحسين يصلي فيه الصاغة والباشوات، أما الفقراء فينامون حواليه بالعراء ! لنأكتب وصية ٠٠ كلهم ٠٠٠ لكن أنا الذي عبدتلهم طريق القساوة ! « أقسو على نفسي ٠ أهجر أولادي وبيتي ٠ أهجر زوجتي ٠٠ »

تبرز في ذهنه صافية صورة الزوجة الجميلة : « كم هي جميلة ! نور برز فجأة في حياتي المظلمة٠عطر ملأ كوني شذاء ٠حقيقة، جعلت لحقيقتي غاية ! يا لجمالها !٠٠أحببتها ٠٠٠ كم أحبها ! ها أنذا أتركها لأزواج آخرين ! » ٠

الغربة سيذوقها كل انسان ٠٠٠ غربة الموت !٠

الزجاجة لا بد أن تفرغ !

« هل أحبتني ؟ أوصي بمن تتزوج بعدي ٠٠٠ لا ، لن يكون ٠٠٠ لا أوصي لزوجتي بأحد ٠ لتتزوج حرة ، كما تريد ! أنا أرغمتها على الزواج ٠٠ لكنها في النهاية أحبتني ! قالت : « أحببتك لأنك صامت مثلي ٠٠٠ » هل أحبتني حقيقة ؟ أنا شمعة من كهرباء ، اذا احترقت احترقت ٠٠٠

أقسو على نفسي ،

أهجر أولادي وبيتي ،

أهجر زوجتي ٠٠٠

راعي قريتنا الصغيرة لم يكن متزوجاً ، بل كان متزوجاً ٠٠٠ أغناماً ! « الخوجة » هو الوحيد الذي كان يملك أغناماً ٠٠٠ ضرب أحد القرويين بسوطه ٠٠٠ قال له : لا تضربني ، أنا ابن عمك ٠ انهال عليه بقساوة وهو يضحك : خذ يا ابن عمي !٠٠ أيام اللعنة !٠٠٠ »

ود أن يقوم على هذه الذكرى المؤلمة ، لكنه وجد نفسه قد فقد التصرف في أعضائه٠ امتلكه الغضب ٠ أحس بسحابة كثيفة تغطي الجوانب المضيئة من ذكرياته : « لويتزوجها من بعدي خوجة ! : « خذ يا ابن عمي ٠٠ »

تزداد السحابة تكثفاً ٠ تصير ظلاماً صلباً ٠٠٠

تقوم في نفسه خاطرة مضيئة ٠ ترتفع الى حيز العقل : « أبناؤها لا يقبلون ! يمنعونها من كل خوجة ٠ ومن كل «خواجة » ٠٠٠ »

أبناؤها ٠٠٠

الابن السابع يسبح بمسبحة منذهب ٠



الابن السادس خائف من عزرائيل ٠٠
الابن الثامن مغرم بالاستماع الى اذاعات الخارج لمعرفة ما يجري في الداخل !
الابن التاسع يشرب « جوني ٠٠ » ٠
الابن العاشر يدخن « غولواز » ٠
لا أوصي ٠٠ هل أنا أذكى من نبي ؟ »

الابن الخامس بالمطبخ مغضباً : « لاشك انها لمن هو أقوى مني ! » أغضبته العاملة المنزلية العروب ٠٠٠ حاصرها في احدى زوايا المطبخ ٠ التصق بها ٠ وقبل أن يقبلها فاضت المقلاة على الموقد ٠ تخلصت منه ٠٠ « اللعينة ! لها عشيق ٠ أطردها لأعرف من هو : اخرجي من هنا اللحظة ! أخرجي كلك ، بنهديك ، بخصرك ، بعينيك ، بشفتيك ، بسنواتك الثمانية عشرة ٠٠٠ اللحظة ! » المرضة تغرز الابرة ٠٠ المريض يقول في نفسه : « خذ يا ابن عمي ! »

الأبناء يدخلون الغرفة ٠ يسألونه عن حاله ٠ لا يجيب ، لا يستطيع الاجابة ٠ ينظر اليهم واحداً واحداً ٠ يبتسمون له ٠ يلتفت أحدهم الى رئيس المشرفين على العلاج ٠ الجواب هو هو : « الحالة مستقرة ٠ » ــ « هل يمكن الحديث معه ؟ » ــ « لايستطيع الاجابة » « أليست هناك وسيلة لانطاقه ؟ » ــ « ليست هناك وسيلة ٠ » ــ « لو كتبنا أسئلة وطلبنا اليه أن يجيب « بنعم » أو « بلا » ــ لايستطيع ٠ » « لو طلبنا اليه أن يجيب اشارة : « نعم » يخفض بصره ، و « لا » يرفع بصره ؟ ــ « ذلك ممكن ٠ »

يتقدم صاحب المسبحة ووراءه الآخرون: « نرجو لك طول العمر ٠ نرجو لك استعادة صحتك ونشاطك ٠ بدونك لسنا شيئاً ٠ أنت أبونا ٠ أنت الذي جعلت منا العظيم عظيماً والوجيه وجيهاً ٠ يدك عليا ٠ نريد أن نلقي عليك أسئلة ، وأنت تجيبنا اشارة : بنعم ، تخفض بصرك ٠ وبلا ، ترفعه ٠ الأعمال واقفة ٠ الناس ينتظرون منا الرد على كثير من المسائل ٠ نحن لم نصل فيما بيننا ــ لحد الآن ــ الى حل ٠ نرجو لك طول العمر ٠٠٠ جاوبنا اشارة : « **من يحلب البقر ؟** »
المريض لا يخفض بصره ولا يرفعه ٠

« **من يمسك البندقية ؟** »
المريض لا يجيب ٠
« **من يسير معامل « البيرة » ؟** »
المريض لا يجيب ٠
« **لمن تعطي معامل الزجاج** » ؟
المريض لا يجيب ٠
« **من يتولى المزرعة وديونها ؟** »
المريض لا يجيب ٠
« **من يلبس برنس الذهب ؟** »
المريض لا يجيب ٠
« **من يذهب للحج ؟** »

يتدخل رئيس المشرفين على العلاج ٠ يلاحظ لهم أن الجواب على كل تلك الأسئلة يتعب المريض ٠ الأسئلة وحدها تتعبه ٠

يتساءلون ماذا يفعلون ؟ المريض ينظر اليهم ٠ لا يخفض بصره ولا يرفعه ٠ على شفتيه يشع باستمرار ذلك اللمعان الذي يشبه البسمة والسخرية والوعيد ٠

لاحظ الابن الثامن أن الأسئلة لم تكن صياغتها صالحة ٠ لايمكن الجواب عليها بنعم أو بلا ٠ كان الأفضل أن يكون السؤال هكذا: يتقدم أحدهم ، ويسأل المريض : هل هذا يأخذ كذا ؟ ٠٠ الى آخر الأسئلة ٠٠ أجابه صاحب المسبحة : « لو اتفقنا على تقديم واحد معين الى شيء معين لما كنا احتجنا الى جوابه ! نحن اضطررنا الى سؤاله لأننا مختلفون ٠٠٠ ــ « ومع ذلك فالأسئلة فاسدة » ٠ ــ « نسأله سؤالين فقط : عن البندقية وعن البرنس ٠٠ نصطف أمامه ، ويضع كل واحد منا يده على صدره ، عند ذكر السؤال ، فان خفض بصره عند وضع أحد منا يده على صدره ، فمعنى ذلك أنه وافق ، وان رفعه فهو غير موافق ٠ » « وان استمر على حاله ، لايخفض بصره ولا يرفعه؟ » ــ « ذلك لايضير » ٠

تقدموا من جديد الى الأب ٠ أفهمه الابن السابع في الطريقة التي اتفقوا عليها ، وقال له : « يا طويل العمر ، لا ترهق نفسك ٠ نحبك أن تحيا ، أن تبقى لنا سنداً وسيدا : من يأخذ البندقية ؟ »

يضع الأبناء أيديهم على صدورهم واحداً بعد الآخر ، لكن المريض لا يرفع بصره ولا يخفضه !

يتقدم الابن السابع من جديد : « يا سيدنا ، يا رقيق القلب ! يا من أحبنا واعزنا وصمد للزوابع من أجلنا : من يأخذ البرنس ؟ » .

يصطف الأبناء من جديد ، يضعون أيديهم على صدورهم واحداً بعد الآخر .. لا جواب ! المريض لا يرفع ولا يخفض بصره. نظراته يشع منها الزجاج ، لا العاطفة .

يحتار الأبناء : « ما العمل ؟ »

يتكلم الابن الأول : «لو أجلنا هذا الأمر.»

يقاطعه السابع : « لو أوصى الرسول ﷺ لما ذبح الحسين !.. »

المريض سمع الحديث . عيناه اتجهتا الى زجاجة السيروم . رئيس المشرفين يرجوهم أن يخرجوا الى الغرفة الأخرى ويتحاوروا هناك.

خرجوا الى الغرفة المجاورة : — « انه يعاني من آلامه ، ألم تبق في قلوبنا ذرة من رحمة ؟ » — « لو عملتم برأيي لما وصلنا الى هنا .. » — « القرعة تعتبرها رأي ! » — « ولم لا؟» — « لماذا لا نذهب الى ضريح سيدي عبدالقادر ؟ » — « سيدك عبدالقادر لا يستطيع شيئاً .. الميت لا يقضي بين الأحياء » — « أخشى أن لا يموت وينتقم منا ... » — « لا بد أن يموت ، لا بد ! » — « لماذا لا بد؟» — « لأنه اذا لم يمت لا يبقى لخلافنا معنى.» — « هل من الضروري أن نختلف ؟ » — «أخشى أن نموت واحداً بعد الآخر ، ويبقى هو ..» — « أنت ابنه الأول ، لماذا لا تتكلم ؟ » — « رحمة بكم ! » — « لماذا ؟ » — « لأني أخشى أن يكون له أبناء آخرون .. » — « أبناء آخرون ؟ أين هم ؟ » — « نحن نعرف حياته بعد ميلادنا لا قبله . » — « هل له حياة سابقة؟ » — «بالطبع! مادام هو أبونا ! ..» — «حديثك ينغص . » — « لذلك لم أتكلم . »

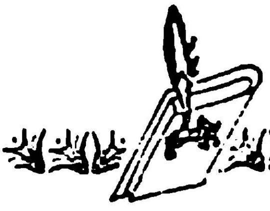
المريض ينظر الى الزجاجة . الزجاجة تقطر قطراتها المتوانية . لا تعرف لماذا تقطر ولمن تقطر . لا تسأل ان كان ما يخرج منها حياة تسر ، أو موتاً يحزن . قد يكون كل ما في الكون يتصرف بنفس الأسلوب !

الزجاجة لا تعرف المريض . لا تعرف أن حياته مهمة جدا . هو يعرف ذلك . يعرف ذلك منذ اللحظة التي رمى فيها العمامة الأزهرية ، ليمسك البندقية ! الفلاح الجزائري في اللحظة الحاسمة رمى العمامة . عرّى رأسه عندما تصير البنادق هي الألسنة ينبغي للعمامة أن تستريح . في القديم ، كانت العمامة رمزاً للرجولة .. لكن الدنيا تغيرت . العمامة لم تعد رمزاً ترتاح اليه النفس . الرؤوس كبرت مطامحها .

حذره بعض زملائه من خطورة المغامرة، لكن حكاية الشيخ الأزهري حسمت في نفسه كل تردد : « الذي يريد صنع مستقبله ... عليه أن يلتحق بالثكنة لا بالمدرسة ! » حقاً ، أمام البندقية يصغر رجال ويعظم آخرون ،في كل زمان وفي كل مكان . الخيزران البربرية أنجبت هارون الرشيد ، والبربرية الأخرى أنجبت عبدالرحمن الداخل ، ولكن التاريخ لم يحفل بهما احتفاله بدهيا البربرية . لم يجرؤ أحد أن يزحزحها عن موقع العظمة الذي تبوأته بالرغم من كل الملابسات ..البندقية كتبت أسماء بنور أزلي في مسيرة التاريخ ، لتنير الطريق الى عشاق البنادق في كل زمان ومكان . تاريخ الملوكية الطويل أوقفته في لحظة بندقية ، هنا أو هناك. قرون الاستعمار والغطرسة والأحذية الثقيلة التي داست كرامات الشعوب ، أوقفتها عصي الرعاة وفؤوس الفلاحين .. الطريق مضيء أمام الطالب الأزهري !

ثم تصعب الحياة وتعذب . تتعقد وتسترسل . ثم تغيب الشمس حتى لا تكاد تشرق . ويطول الشتاء والليل . ويتعانق الأمل والألم تعانق هيام مقدس. تهون الغوالي. تصغر أشياء الحياة ويصغر معها الرجال. تبقى البندقية وحدها القيمة ووحدها الشرف ، ووحدها الأمل ...

وتلك المرأة الجميلة ، فاتنة الرجال وقاتلة الرجال ! تحنو على الطالب الأزهري فتنيله منها ما أنالته غيره من عشاق الذرى. ثم تعنف به يوماً وتلين له أياما . تدفعه الى حبها في يأس ، وعن حبها في أمل . تتكشف له شيئاً فشيئاً أحابيلها ومحاسنها معاً . تعطيه من ثغر واحد الحب والمرارة . لكنه في كل ذلك لا يشكو ولا يئن . تغض الطرف عن عيوبه الريفية والأزهرية . تحدثه عن ماضيها



المثقل بالأمجاد واللعنات . تحدثه عن المستقبل الذي تعود لها فيه عذارتها وطهارتها. تعده. تمنيه . ثم تعده حتى ليرى المستقبل البعيد أمامه ، ويراها هي عذراء . آه من جمالها وشقائها ! آه من وعدها ووعيدها ! لكن حبها يملأ عينيه فلا يرى سوى حبها . فتقول له : « حذار ، الحب لا يلد أكثر من الشعر ... البنادق هي التي تلد القادة » يحدثها في منلوغ شفاف ملتهب : من جداول أحلامي أروي ظماك . من ألحان راعي قريتنا الصغيرة أكتب لك أغنية . أغسل وجهك بحفنة من أشعة الفجر ، كل فجر . أكسو روحك بالشفق ، تنسجه بندقيتي . أكتب لك شعراً كضحكات الأطفال براءة ، كثغاء الخراف وداعة ، كعطر الزهور شذاء . أصعد كل صباح الى أعلى سماء ، وأنادي في الكون باسمك ، حتى تصيري أنت الكون ! كم أحبك وأنا أتألم ! كم أحبك وأنا أحلم ! اني لأرى ذلك المستقبل الذي حدثتني عنه ذات سحر ، وأراك فيه تخطرين في ثوب من أشعة الفجر !

تحتضنه ، تقبله ، تذوب عطفاً على جسمه النحيف الهزيل . تود لو استطاعت أن تجمع له كل جداول حبها السائلة في الماضي البعيد ، ليزداد عزماً ومضاء ..

يسير الى مستقبله بخطى ثابتة ليصطاد النجوم والأشعة !

تصطف الدبابات في صفوف طويلة لتحجب النهار .

تطير الطائرات في غطاء كثيف لتمنع الضوء من الوصول الى الأرض .

تضيء الأرض بنورها هي ! والمرأة الجميلة واقفة ، تتفرج !

انها لا تخاف الليل وقد غازلت القمر !

ويتقلص المكان فيصير غرفة ويتقلص الحلم فيصير زجاجة ! وتشتد رغبة الأبناء لمعرفة الوصية : « ترى ماذا سيقول في الوصية ؟ » ـ « ترى ماذا يترك لنا في نهاية الأمر ؟ ... »

يدخلون الغرفة من جديد . ينظرون اليه . ينظر اليهم . يتقدم الابن السابع : « أيها العزيز الذي احترمناه وأحببناه ...

الابن الرابع : « أيها العزيز الذي نحترمه ونحبه .. »

الابن السابع : كن كأبي بكر »

الابن الرابع : كن كعمر .. »

الابن الأول : « كن رسولا !.. »

يتدخل المشرف على العلاج: « من فضلكم انه في حالة ارهاق ! »

خرجوا الى الغرفة المجاورة ينتظرون .

بقيت كلماتهم ضائعة في فضاء الغرفة، لم تصل مباشرة الى وعي المريض ، الا الكلمة الأخيرة : « كن رسولا . » يتحدث المريض باجهاد الى نفسه : « أكون رسولا .. رسول من ؟ أنا عاشق ! »

تتخذ ملامح الزوجة الحبيبة في خياله وجوداً قوياً ، يسمع صوتها يحدثه ، يحذره ينبهه : « لا تكن غبياً ! لم أخلق لواحد . لست كباقي النساء . أحب من أحبني ، لكن لا يمحو حب اللاحق حب السابق ! لست ملكاً لأحد . أنا من نمط آخر ... حبي أوسع من أن ينحصر في واحد ! خذ مني ما أمنحك . أرو شبابك ونهمك . كن كعابر سبيل أصابه ظمأ فوجد عيناً ماؤها ثجاج ... لا تسأل من شرب قبلك ، ولا من سيشرب بعدك ! »

المريض يروعه هذا المنطق الصارم : يا الهي ! ما أصغر حبي ، وما أقصر أحلامي! « لا تسأل : من شرب قبلك ، ولا من يشرب بعدك .. » ثم تتلاشى معاني الكلمات في وعيه وترتسم زجاجة المصل أمامه ، وفي ذرات شعوره : « أنا شمعة من كهرباء ، تتكسر ، تتحطم ، أما النور فيبقى . النور لا يحترق. شمعة أخرى يعود . لست مصدراً للنور . لم أكن سوى شمعة ، بعض الوقت ، لابراز القليل القليل من النور . لم تكن الخيوط دائماً صالحة . العواطف تأتي على أصلب الأعمدة. ينبغي لاستمرار التيار أعمدة كثيرة ! »

يدخل الابن الأول ، يحدث أباه بهدوء: « أيها الرحيم ، قل لأبنائك ان سألوك : لم أترك لكم سوى أم ، فهل تقسم الأمهات ؟ »

ينظر اليه المريض ملياً ، يبتسم له . يقبله بنظراته . يغمض عينيه !

رواية الشاهد الأخير على اغتيال مدن البحر

« الفصل الأول »

واسيني الأعرج*

□ هذه الرواية :

مريم . يا زهرة عباد الشمس حين قلت لك اكتبي شيئاً . ابتسمت كطفلة وقلت أحبك ثم أغمضت عينيك ولم أعد أراك .

أصدقك الآن وأعلم جيداً أن فرحتنا لن تدوم طويلا . وليلتنا الوحيدة التي حوربنا فيها حرباً شقية سنتذكرها طويلا طويلا مع ذلك كله فلا أحد يمنع قلبين من أن يتعانقا حتى التهلكة وسط هذا الدمار المخيف .

أسالك . مريم . يا شهادةهذا الوطن المسروق .

من يمنع الناس من تنفس الهواء . من يمنع المقاهي والبارات والحارات الشعبية من أن تنجب الثوار والسكيعين والسكارى الذين ينتظرون ساعة موعد ما مع حبيبة مجهولة .

من يعلمنا عكس الذي نعلم ؟؟؟ .

مريم . يا حمامة الشوارع المذبوحة ويافرحتها المقتولة .

ويا شهيدة هذه المدن الحجرية . كلما اخترق قلبي صراخ « كارمينا » .

أو تذكرت عذابات « سيزيف » الذي ما زال مثقلا بمتاعب صخرته .

كلما كتبت كلمة بصمتك أو أحرقت سيجارة تذكرت أني أضفت الى عينيك المتعبتين الهادئتين خوفاً جديداً .

تذكري هذا جيداً . سيتهمك اللوطيون والسماسرة ، والمرضى ، بالدعارة المجانية لأنك بين سنينك المتعبة فوجئت ذات ليلة وكنت وحيدة ، بطلعة رجل وضع قلبه بين يديك ، ما زال قادراً على حبك حتى الموت .

ليس مهماً يا نجمة هذه المدينة ، أن تكرهيه ، أو تحبيه . لكن المؤكد أنك ستعيدين عشق الحياة بشكل أهدأ ، وعلى أصداء هذا الشاطيء الروماني المهجور ستفكرين حتماً في اعادة بناء أسوار هذه المدينة الساحلية الجميلة .

ماذا نقول بعد الذي جرى !!؟؟

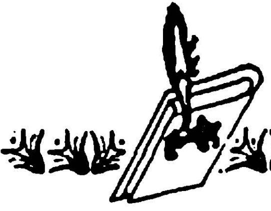
حسب الذين يقرأون الطالع وعمق عيون الناس أن الرعية انتبهت للخبر الذي كان مرمياً في أحد زوايا الجريدة المهملة « لظرف قاهر وخاص مرتبط بحالة مرضية ، غادرنا الزميل الصحفي الحسين بن المهدي بن محمد الى باريس في اجازة قد تطول . نطمئن القراء الأعزاء الذين راسلونا مستفسرين عن الحسين الذي غاب فجأة ، نؤكد لهم بأن زاويته « شيء من الأرشيف » والتي استبدلت بزاوية « تعال معي » ستعود الى الظهور بعد عودة

الكاتب :

★ عضو في اتحاد الكتاب الجزائريين .

□ صدر له :

- الم الكتابة عن احزان المنفى : مجموعة قصص/بيروت .
- احميد المسيردي الطبيب : مجموعة قصص/دمشق .
- وقع الأحذية الخشنة : رواية/بيروت .
- نوار اللوز : رواية/بيروت .
- وقائع من اوجاع رجل غامر صوب البحر : رواية/دمشق الطبعة الأولى . الجزائر الطبعة الثانية .



الحسين معافى من دائه الذي أصابه في الدماغ ·
(···) » ·

الناس لم يعلقوا على الخبر لكنهم كانوا يعرفون البقية جيداً · الحسين بن المهدي بن محمد قد لا يعود أبداً والزاوية احترقت مع عيون الأطفال ·

ماذا نقول بعد الذي جرى ؟؟ !!

قبل أن يتغير اسم المدينة والجريدة ووجوه الناس والأشكال الآدمية ، كان قد نزل الى قلب المدينة ملايين بل ملايين الزواحف التي تشبه العلق· علق أسود مثل القطران · بعضهم يقول مثل الكسوف · تسلط على أوراق الجرائد فقضمها ، وعلى الحيطان فخرمها ، وعلى أفواه الناس فزمها وعلى الوجوه المتعبة فحفرها واستقر بين تجاعيدها وقتاً طويلا · وعلى الأرض فأفسد تربتها ولم تعد تنجب الا اليباس ، علق أسود لا عيون له ولا أرجل·

يقول الذين يقرأون الطالع وعيون الموتى أن صراعاً يشبه صراع الموت يدور بينه وبين جرذان المدينة · الدم يملأ صمت الشوارع ووجوه المارة ، والبنايات الشاهقة ولا أحد يعلم متى تنتهي المجزرة · كل الذي تعرفه الرعية هو أن الريح الساخنة اندلعت وأن خيبة الأمل بدأت تزحف بشهوة نحو قبور الشهداء التي غطتها الأعشاب الضارة ·

☐ **الجريدة :**

الكسوف بدأ وما يزال قائماً ، يأكل ما تبقى من جمال المدينة المدهشة ·

قبل أن تغيبني تفاصيل الحياة ورماد الأنجم المحترقة · أريد أن أذكركم بي ، ربما تكونون قد نسيتم · عذراً ، فالمدينة استأصلت ذاكرة الآلاف من عشاقها ·

اسمي الحسين · اسم أبي المهدي بن محمد أحد شهداء هذه البلاد التي احترق من أجل عيونها لكنها نسيت عظامه مرمية في وحشية الأحراش والوديان · طولي لا يتجاوز المترين · عيوني عشرة في عشرة مع احمرار خفيف في العين اليسرى · صحفي متواضع مكلف بالتحقيقات في احدى الجرائد الوطنية التي تراكمت خسارتها منذ عزل طاقمها القديم (المدير ورئيس التحرير) · ولا أكتمكم سراً أنه لدي قناعاتي الخاصة ولدي ردود فعلي في كل ما يقع حولي · وفي أحيان كثيرة أركب رأسي ·

حكايتي ليست طويلة ، لكنها عجيبة بعض الشيء · سأحكيها لكم مع اهمال بعض التفاصيل· مع علمي المسبق أنكم لا تصدقون الا بدايتها ، واذا صدقتموها فسيكون ذلك بصعوبة كبيرة ، لأنكم تفكرون بمنطق والمدينة تفكر بمنطق آخر · كل الناس يعلمون أن الكسوف قد بدأ لكن لا أحد يعرف متى ينتهي ·

وحتى قصتي بدأت لكن نهايتها ليست مرهونة بقدراتي العقلية والجسدية ، حتى ولو كانت خارقة · بعض الأصدقاء يجدون شبهاً كبيراً بين تعاسة الحسين بن المهدي وتعاسة الحسين بن علي ، لكني أرفض دوماً هذا التشبيه · فأنا فخور بأن أكون ثمرة القرن العشرين الذي ينام على برميل نفط لا أحد يستطيع أن يتكهن متى ينفجر· اسمحوا لي مرة أخرى أن أذكركم ببعض التفاصيل حتى لا أبدو أثقل من الرصاص ، قبل أن أبدأ · يحدث معي وأنا أحكي · أن أتذكر مريم ، حليب البلدة وعنفوان الطفولة التي دفنتها سيارة عند أقدامي بقسوة · لا أتذكر شكل السيارة لكن الذي أعلمه جيداً أن السيارة كانت سوداء ولم تكن تحمل رقماً أبداً · لم ألتقط الا لونها وبياض لوحها الخلفي ولون دم مريم التي أرجعني غيابها الى حنين البلدة وأثداء أمي التي أذبلها قيض البؤس ·

الأيام تمر بسرعة مخيفة وتكاد تكون في عقم واحد ·

حين افتقدت مريم وسط المدينة وسرقها مني قبر بارد ، لم أبك كثيراً ولكني في لحظة انهيار تعريت من جلدي المنتهك حتى شعرت بتفاهة العالم وببداية انهياره وبالديدان القزحية التي بداخلي تتحول الى كائنات دقيقة سوداء مثل الفحمة ، قالوا لي وقتها في الجريدة أنها لحظة وتمر · لكنها لم تمر، على الرغم من أني بدأت حياةجديدة مع امرأة جديدة · ما زلت أشعر يومياً بانهيارات تأكل ما تبقى من هذه العلاقة المقحمة وهذه الأمطار التي كلما ضخمتني تذكرت مريم وآلام القلب ·

آه يا الحسين يا ربك · مريم كانت تفاح البلاد البعيدة ورائحة تربة القرى المعلقة في القلب وحبات المطر الربيعي ونسمات الفجر ·



وجودي في هذه الزاوية السوداء من المدينة ، وبهذا الوضع المخيف ليس مصادفة أبداً • بعد أن عذبتني هذه الشوارع أصبح من الصعب علي تصديق المصادفة •

* * *

كل شيء بدأ ببساطة كبيرة •

كانت البلاد منغمسة في تحضير احتفالاتها وكرنفالاتها ، ومنهمكة في ترتيب شؤونها • لكن في المدينة الواسعة كان الناس والاذاعة والتلفزيون وباقي المؤسسات ينتظرون بداية الكسوف الذي يطمس عيون المدينة الى أجل غير مسمى • في قلب أهم الشوارع ، كان المستشفى التجميلي الجديد ينتصب كقبة أحد الأولياء المخيفين الذين فقدوا وقار الناس • يحكي بعض العارفين أن سعته قد تتجاوز هذه الحدود الصغيرة وربما التهم الشوارع والبنايات والأزقة كلها •

وحمو !!؟؟ • آه يا حمو • حمام المدينة المذبوحة كان ما يزال يرتل أغنيته القديمة التي لم تتآكل بفعل الزمن الرديء وبرودة الطقس والعيون الغامضة •

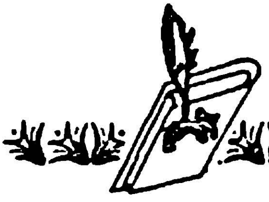
« خسارة الدم اللي ضاع • خسارة الدم اللي ضاع • » •

عدت من اجازتي في البلدة بعد أن تركت ورائي العيون البريئة التي صفقت حزناً لسفري وأمي والدروب الموحشة ودخلت متاعب المدينة من جديد • انها تشبه بلاد الواق واق الى بعد لا يحد بطقوسها وأعمالها وسير أناسها وجبالها والأساطير التي تعشش في دماغها ، يحدث معي أحياناً وسط هذا الموت ، أن أشعر بأني تحولت الى ذبابة • مجرد ذبابة تحوم بلا رجاء حرقت أجنحتها وضاق تنفسها • ومع ذلك ، ما زلت أصر دائماً على حقي في الحياة ولي تفاصيلي الخاصة التي تختلف حتماً عن تفاصيل غيري • مثلا ، أنا أكره الجمعة ولهذا ، عطلتي في الجريدة بشكل دائم هي يوم السبت • على الأقل ينسى الواحد همومه وسط أتعاب الناس • هذه المرة ، كان السي بلقاسم طيباً • قدم لي أسبوعاً بكامله هدية • قال لي • نريد أن نراك مرتاحاً • هذا همنا • كنت أشعر بارهاق شديد ولهذا قبلت بهذه الاجازة لأعود باقتراحات حول التحقيق الذي يفترض أن أقوم به بالمناسبة الطبيعية التي ستعيشها البلاد •

لكني حين عدت • كنت حزيناً ومنكسراً كغصن زيتون •

شعرت بمدخل الجريدة واسعاً على غير العادة المألوفة. منهكاً ومنتهكاً في كل الأشياء الجميلة تذكرت أني، كنت قد طلبت قبل هذا الزمن أن أقوم بتحقيق حول المستشفى التجميلي الجديد لكنهم رفضوا بقوة وبرفضهم زادوا من فضولي • شعرت كان شيئاً ما يحدث تحت جلد المدينة المتلبسة بالمحبة لايريدون أن نعرفه • ماذا يكسب الواحد وسط هذا الدمار غير هذه التفاصيل التي يصعب ذكرها ، وهذا الأنف الطويل الذي لم تستطع بلاد الواق واق تحمله • حالة والله وفيها استحالة • في طريقي الى الجريدة ، شاهدت بقايا الكلمات الجميلة تلفظ أنفاسها الأخيرة ، والأشجار تنتحر جماعات وتحرق أغصانها بنفسها • شاهدت الشمس تتفحم والعصافير تتحول الى قطط والقطط الى فئران والفئران الى فيلة ، والفيلة الى غيلان ، والغيلان الى أشياء تشبه الخوف والغموض •• مع أن كل شيء في المدينة كان يمشي بشكل روتيني وعادي • المؤسسات • الجرائد • الاذاعات • الناس • المستشفى التجميلي الذي استبدل فيه الختان الطبي بقطع الأنوف ونخر الأدمغة و ••• بعض الناس خرجوا جماعات جماعات احتجاجاً • في البداية أسكتوهم بالكلام الحلو ، في المرة الثانية فرقوهم بخراطيم المياه ، لكن في المرة الأخيرة غابت وجوه كثيرة عن شوارع المدينة • وبعد أيام عاد المستشفى الى ممارسة نشاطه بكثافة ودهاء • يقال على أطراف الأزقة الموبوءة أن شخصاً غنياً قام بتمويل جانب منه ابتغاء محبة الله والفقراء وترحماً على أمه التي التهمتها الكعبة • ويقال أيضاً أن أيادي طويلة تسهر على تسييره تمتد أصابعها حتى البحور السبعة وتسرق خضرتها من الربع الخالي •

الملف الذي عدت به من رحلة الأسبوع ، كان مثقلا بالأرقام والكلمات والخطوط والملاحظات • حاولت على الأقل أن أشعر نفسي بأني ما زلت على قيد الحياة في مدينة حين تداعب أذنيك بمحبة ، تشعر كأنها تستأصل قلبك • الآن وهذا التعب ينخر دماغي ، أشعر كان أسبوع العطلة الذي تكرم به بلقاسم عليّ (على فكرة بلقاسم لا يرفض لي



طلباً على الرغم من تعارفنا الجديد) • لم يكن الا لعنة مضافة الى هذا الملل وهذه الهامشية التي بذرت جميع أوقات يومي • في الواقع لست مجبراً على القيام بأي تحقيق ، لكن رب هذه السوسة التي انتفخت في القلب تجعلني أحياناً لا أفهم تفاصيل ذاتي بدقة • بامكاني أنا كذلك ، الجلوس على هذا الكرسي العتيق الذي ورثناه عن أزمنة الدمار وانتظار دورة الشهر التي تقصر وتطول بحسب الحالة المادية والنفسية • هكذا يفعل معظم الناس في هذه الجريدة •

انزلقت من الباب الخلفي بعد أن حييت عمي البخاري البواب الذي كان ما يزال منهمكاً في حك عينيه المعمشتين • في يده اليمنى نظارته البيضاء القديمة التي كسرت أطرافها فشدها بمطاط أسود من كثرة اللمس •

حاولت أن أصعد الدرج بسرعة لأنه بدا لي طويلا ، طويلا كطريق بدون نهاية ومتعرجا كيوم القيامة • انزلقت الى غرفة المدير • حين رآني ، جرى نحوي وعانقني كمادته بتواضع (؟) •

– « هه • هذا أنت يا السي الحسين • غيبة • اشتقنالك يا أخي • »

كلماته جميلة • لكني في زاوية سوداء في داخلي ، صعب علي ابتلاع هذه الكلمات •

– « كيف كانت اجازتك • ان شاء الله ارتحت ؟؟ »
– « والله سيئة • سيئة جداً يا بلقاسم خويا • »
– « خيراً ؟؟ »
– « طريقنا سيء يابلقاسم • المدينة تقتل حمو من جديد ونحن نتفرج • »
– « أوف • حمو مجنون • وستجن اذا حاولت أن تفهم ما يقوله • »
– « رأسي تحول الى كابويا(١) لم أعد أفهم شيئاً • »
– « قل لي • بماذا جئتنا • هل فكرت في التحقيق الجديد ؟ • قريباً سنحتفل بالذكرى الكبرى لاستقلال البلاد • »

وقبل أن أحرك لساني دخل أحد الصحفيين ، يحمل في يديه كومة أوراق ، وانهمك معه في حديث خافت برقت له عينا السي بلقاسم • كل ما سمعته هو رفضه التحقيق الذي تقدم به الصحفي عن المستشفى التجميلي وعن معالم المدينة القديمة التي بدأت تفقد رئتيها وقريباً ستفقد عينيها وأحبابها •

التفت نحوي مع ابتسامة اصفرت حتى تحولت الى قشرة ليمون •

– « أتعبونا بحماقاتهم • هه • ماذا وراءك ؟؟ • »

والله يا بلقاسم لو تدري ستحرق نفسك كالبوذيين ولكنك لا تدري •

بعد عشر سنوات من التحقيقات في هذه الجريدة • عن شهداء المدينة وخارج حدود هذه المدينة • عن أناس لا تجمعني بهم غير الذكريات وكلمات كتب التاريخ ، والمحبة وصورة أبي الذي فقدته في هذا الزحام المخيف • لم أعد أتذكر من تفاصيل وجهه غير الخطوط المتبقية التي أشاهدها كل ليلة في اطاره الذي يصاحبني في حلّي وترحالي • بعد عشر سنوات أعتقد أنه أصبح من حقي أن أشرع في هذا العمل وأن يكون تحقيق هذه المرة عن المهدي • فالمهدي نبتة هذه البلاد الطيبة ، لحمه من لحمها ونبضها من قلبه • وليس خطيراً على راحتها• له نصب تذكاري في شارع ضيق يحمل اسمه ، ويحلم يوماً بأن يتحول الى ثعبان أسود • سنتحدث عن هذا الشارع فيما بعد • للمهدي طبائع خاصة ، وعليه ملاحظات غامضة أتمنى توضيحها • حتى الآن ، ليس منه سوى اطار صغير يصاحبني في لحظة حزني وفرحي • زاد حقيبة السفر مع هذا القلب الحزين ومع بعض التفاصيل التي ورثتها من أمي التي محت القسوة سواد عينيها • استفدت كثيراً من ملف نساء الشهداء الذي حضرته الوالدة• حول أوصافه ، سماته ، ميلاده • حول يوم وفاته الغامض مثل عيون نساء البلدة • تعرفت على بعض الشهود الذين كانوا معه • عمي البوحفصي الذي تحول الى حطبة اشتعلت في الصيف الماضي ، ساعدنا كثيراً في اعداد هذا الملف • كان يقول دائماً مع حسرة تتمترس في الحلق •

« انها عشرة السجن والعمر يا ولدي • »

تصور يا الحسين • يقول عمي البوحفصي • حين يعطش ، كنت أمرر له الماء من وراء ثقوب الشباك الضيقة بواسطة قطعة قماش الأنف، مضمخة بالماء • وأما قطع الخبز والأوراق السرية والأخبار

---

١ – الكوسة •



المخيفة التي كان يبتلعها بمجرد الانتهاء من قراءتها، كنا نربطها على ظهر الخنافيس والجرذان • نشدها بخيط رفيع ثم ندق على الحائط وندفع بها الى الفار المؤدي الى الحجرة الأخرى التي كان يتآكل فيها المهدي بن محمد • أحياناً تصله بعد انتظار الساعات الطويلة • على هوى الجرذان والخنافيس التي كانت عزيزة • وأحياناً لا تصله أبداً •

هذه المرة سآخذ المسألة بجدية أكثر •

« آه يا ربك يا بلقاسم لو تعلم؟؟؟ لكنك لاتعلم شيئاً • »

الذي آلمني أكثر هذه المرة وزادني تصميماً على انجاز هذا التحقيق هو رئيس البلدية • يوم واحد قبل تدشين القرية الجديدة كنت فرحاً ، عصفوراً نتف ريشه من المسرة • لأول مرة بعد احتراق عشرات السنين سأرى اسم أبي يرتسم على أرمة أحد شوارع القرية ، أو على الأقل هكذا سمعت في البلدية • توافد الخطاطون من المدن الكبيرة وبدأوا يرسمون ويكتبون في انتظار ولائم التدشين. شعرت بفرح غير محدود يدغدغني وبشموخ غريب يتطاول في أعماقي وبأنفي يطول أكثر من اللازم • صارت البلدة كلها تارة بطعم الأزهار وشبه مياه أمطار الربيع ، وتارة تتحول الى ذلك الشيء الحار الذي نحسه ولا نستطيع تفسيره •

سحبت أمي العجوز من فراشها وأحد اخوتي من الذين تركهم أبي في البطن قبل أن يستشهد في ظروف غامضة • كان جمع من الناس يحيطون بالقرية الجديدة ، لم أعد أتذكر منهم الا وجه عمي البارودي ، ما تبقى من نقاء تراث هذه البلدة • فاجأني تجهمه ، فهمت من بعد سره • حين وصل الخطاط حملقت بعين طفولية الى يديه وهما ترتعشان • انتظرت أن يخط اسم المهدي لكن الذي حدث هو أنه خط اسماً غريباً لم أشعر تجاهه في أية لحظة بأي تعاطف • ربما كان الموقف ذاتيا ، لكن هذا هو الذي حدث بكل دقائقه • لست أدري لماذا تذكرت في تلك اللحظة يوم الجمعة وصوامع المدينة وأخي الصغير الذي لا يعرف وجه أبي وطيور النورس التي كنا نقص أجنحتها ونحن أطفالا• حتى قبة المستشفى التجميلي غزت مخيلتي • حاولت أن أغمض عيني لكنني لم أستطع • شعرت بعمي البارودي البارودي يتحول الى كتلة لحم محروقة ، ويذرف دموعاً مثل المسامير •

تفحمت على وجهه • كان يعرف القضية جيداً بكل تفاصيلها •

— « ايه يا وليدي كل شيء غيروه في البلدية • هذا اسم أخو رئيس البلدية • أعرفه جيداً ، لا صلة له بالثورة • كل الأسماء التي خطوها هي أسماء أقاربهم • عش تشوف • »

سألتني أمي التي أفقدتها نار المهدي بصرها وبعضاً من سمعها •

— « ماذا كتبوا ياالحسين !! »

— « المهدي يا يمَّا • »

قلتها مجروحاً من الأعماق • وقبل أن أمسح دمعة حرقت عيني ، شكرت الله بصوت عال وسارت على امتداد الشارع تبحث بعصاها عن الفجوات •

— « لقد تذكروا المهدي • أسموه المهدي يا ناس • »

دشنت القرية وبدأت حركة الدواب تصم الآذان والأسواق والشوارع • ناس البلدة حتى الآن لا يعرفون للشارع اسماً غير المهدي بن محمد •

في مساء ما بكيت بشكل طفولي • ليس مهماً ، المهم في كل المسألة ، أني خرجت من هذه الاجازة بضرورة الالتفات الى هذا الرجل الذي أكلت هذه التربة لحمه ودمه وعظمه ، والى نبض هؤلاء الناس البسطاء الذين جف دمهم على رقابنا •

حين التفت الي بلقاسم مرة أخرى بعد أن انتهى من قراءة احدى مواد الجريدة ، صارحته بالحقيقة وبعزمي •

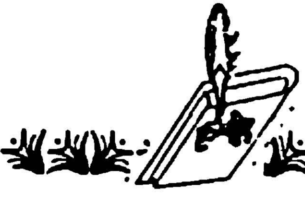
— « وصدقني يا بلقاسم سأكون موضوعياً الى أقصى الحدود • »

— « لكن القضية •• مسؤولية ••• »

— « أعرف ذلك وأقدر موقفك • السيد ليس مغضوباً عنه • فقد حكى عنه الكثير من المسؤولين باحترام وكتبت عنه بعض الجرائد الرسمية وغير الرسمية • »

في البداية لم ير ما نعا لكن خوفاً ما استقر في حلقه بشكل غامض •

— « على كل • المسألة يجب أن تزكى من فوق حتى تأخذ طابعها الجدي • »



في لحظة ما ، لا أستطيع ضبطها ، شعرت برائحة كريهة تنبعث من فمه • بدأ يتكور على نفسه حتى تحول الى قنفذ في ساحة مملوءة بالحشائش والحشرات • بدا لي مثل عروس مصرية محنطة ، من بقايا عرائس الفراعنة لا تتحرك من مكانها الا لترم ثم تعاد الى تابوتها المتآكل الذي تنبعث منه روائح لفائف التحنيط •

ـ « تعال لي غداً وسندرس الموضوع مع بعض • وأكون أنا من جهتي قد قمت بالاجراءات الضرورية • »

قبل أن أشعر بتوعك وبمغص في الأمعاء، رأيت في عيني بلقاسم خوفاً مذعوراً من شيء غامض ربما هو نفسه لا يعرفه بدقة ، لكنه كالحيوان الأليف يشعر به • حملت أتعابي على ظهري وأتعاب القرية والأسماء الغامضة التي تجتاح المدينة والشوارع وتتسلط على شهدائها • في ذلك اليوم نمت بشكل غريب غيّب ذاكرتي • لم أعد أفرق بين الأيام والساعات والأزمنة ووجوه الناس • حين عدت الى مكتبه شعرت كأني قطعت عشرات سنوات ضوئية وكنت أحمل استقالتي في جيبي •

مع ابتسامة شاذة ، اقترح علي اسماً جديداً •

ـ « هه • كلهم شهداء• ونحن في غنى عن المشاكل • يبدو أن حالة المهدي مزعجة قليلا لراحة بعض المسؤولين وأنت تعرف البقية • لياقة الأدب يا أخي • »

لم أقل شيئاً كنت أتأمل وجهه الذي تكاثرت انثناءاته التي تخبىء بينها تقاسيم رجل مهزوم حتى العظم •

أصررت على الاسم • وأصر على تغييره •

اقترح علي أسبوعاً آخر للراحة والتفكير • ذكرني بالشائعة التي تدور في الجريدة والمرتبطة بتحويلي من صفحة التحقيقات الى صفحة الاعلانات • كان التهديد مبطناً • وكنت أعرف مسبقاً أنه سيأتي اليوم الذي أخير فيه بين الشارع أو التساقط على صفحة الاعلانات والوفيات •

اقترحت عليه استقالتي • لم أرَ ولا حسرة واحدة تفسد صفاء عينيه •

الاستقالة يا السي بلقاسم • قلبي متعب وأجنحتي مكسورة والداخل فارغ ومحشو بالطين والتبن • الرأس سينفجر كالبركان • اذا بقيت يا بلقاسم سأخسر ما تبقى من وجهي وأخسر حمو • الشهيد الذي يمشي على أظافر رجليه • سأتحول الى مجنون يملأ شوارع المدينة بهذيانه المميت • حاول أن يقنعني • ربما كان ذلك بسبب انزعاج متراكم • خذ أسبوعاً وعد لنا ممتلئاً بنشاطك القديم • كن رجلا مثل جميع الخلائق •

رفضت كلامه جملة وتفصيلا • ربما كنت مخطئاً ، لكن الشيء الوحيد الذي أعلمه هو أن المهدي يملأ كل خوائي • ذاكرتي وحضوري •

ـ « أنت تجبرني على أن أكون قاسياً معك • »

ـ « افعل مثلما تفعل مع الناس الآخرين • »

ـ « أرفض أن أصل معك الى هذا الحد من السوء• »

بسطت الاستقالة أمامه ثم توجهت الى النافذة المطلة على الشارع • شعرت بحركة الناس تتحول الى جماد • الدم يغير دورته • مخي يتوقف عن التفكير • من وراء هذه النافذة التي غابت عنها الأطيار الملونة التي كانت تزورها كل صباح كانت المواسم الجميلة ترحل وفصل الشتاء يزداد قساوة • تأملت الحافلات المكتظة والشرطة ذات الألبسة السوداء وأطفال المدارس وكسالى الشوارع والمقاهي •

حين التفت نحو بلقاسم • كان المكتب خالياً والاستقالة جاهزة وقلبي في يدي يأخذ آلاف الأشكال ويتلون بملايين الألوان •

الدم كان يجري عكس دورته •

والعين لم تعد ترى الا اللون الرصاصي الداكن الذي كان يخيم على المدينة •

ـ « أوف !! الاستقالة ولا تحويلي الى دابة في صفحة الاعلانات والوفيات • » •

★ ★ ★

□ شارع المهدي بن محمد :

« الله الله يا يمّا ، يا حنّا ،

دوار العجب راني فيه ،

اذا كليت ما يبان عليّ ،

واذا شربت نندم عليه (•••) »



امش يا الحسين يا ابن المهدي بن محمد • امش ولا تلتفت ، وراءك المتاعب اليومية ، وصفحة الوفيات والصفقات التي تعقد على رأسك • أنت ، وهم ، والليل يمتد في دمك كالمدية ويجري في عروقك كالسم •

امش ولا تلفت وضع أنفك الطويل بين يديك وتحسس رقبتك قبل أن يفاجئك مقص عملاق ويضع رأسك بين رجليك •

الشارع متعب • امرأة حامل مثقلة حتى العظم بهمّ الغادي والرائح • مكتظ بأرجل الناس وبالروائح النتنة التي تلهب الأنوف • طويل ،كهذا اليوم الذي يأكل دقائقه بنهم • كنت وسط هذا الضجيج كمن يحاول أن يحرث أرضاً جافة وتربة ميتة •

اختلطت أصوات النساء ، والأطفال والدواب وعجلات السيارات القديمة والسراق وصليل سلاسل ثقيلة يأتي من بعد غامض • شارع تتوالد فيه العصافير المنكسرة والأشياء التي يغلب عليها اللون الداكن • يتكاثر فيه التجار والباعة ، والمشترون والذين يحلون ويربطون ، يأكلون بالأصابع العشرة وينامون على الريش • ألسنتهم طويلة طول ، أيام الحشر • خالوطا يا لطيف •

كنت مصراً على الذهاب وراء المسالة حتى النهاية • تذكرت كلمات بلقاسم كلها • شعرت في لحظة انكسرت على روائح هذا الشارع ، كأنّ بي خللا ما في الدماغ أو كان حركة دمي تمشي بحرارة وعلى غير العادة • وحين مرّ برأسي أنني بدأت أجن فكرت أن آكل نفسي • احترت من أين أبدأ ؟؟ كل الأعضاء عزّت عليّ ، فعدلت عن رأيي الأول •

يا الله !! ؟؟ ما معنى كل هذه الاجازات المجانية • ربما لو طلبت سنة بكاملها لدفع ثمنها بدون أسى • شيء يدفع الى حالة جنون قصوى •

واصلت تدحرجي خطوة خطوة كجندي هزم في أول معركة مع نفسه • انتبهت الى « دوش الهناء » بحرقة الذي ينام يومياً بالشوارع • شعرت بأكوام الوسخ تتحرك في كامل جسمي ومع ذلك لم أفكر ولا لحظة واحدة بالاستحمام • بيني وبين الحمامات كراهية تقليدية ورثتها عن البلدة التي ما يزال صداها يملأ قلبي •

أيقظتني من سهوي تمتمة رجل شعرت بخطواته ورائي •

— « عمي الحسين ، يخصك الكيف • سبسي جميل • »

حين التفت • كان طفلا صغيراً • جرذاً ماتزال عيناه مغمضتين • لم أكن متفرغاً للتأمل في تفاصيله لكني في كسور ثانية ما ، أحسست بحزن كبير أكثر من حاجتي اليه •

حاولت أن أستعيد دقائق اجازة الأسبوع • ألم مريم الذي ينمو بالداخل كالنار • أمي • رئيس البلدية الذي لا يعرف من الكلام الا الشهداء ، والبيع والشراء • أخي الصغير الذي كان أكثرنا احساساً باليتم • فتح عينيه على أب التهمته الغابات وأم فقدت بؤبؤ عينها وأذنها وتكاد تفقد لسانها • عمي البارودي • ووجه عمي البوحفصي الذي أكله الجدري • الله يرحمه كان سيد الرجال • يتالم كالقط الهرم ، الموجوع حين يسمع الناس يتحدثون عن المهدي •

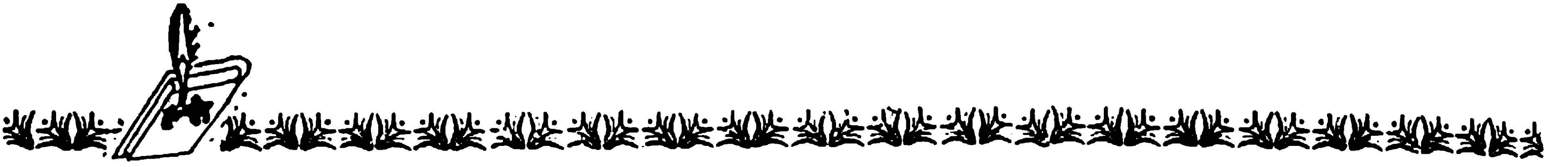
— « خسرناك يا المهدي • تعلّم فيك الشمايت • »

لم أفهم سرّ هذه الجملة الا وأنا أقدم الى المحاكمة •

تذكرت المستشفى الذي ركّب آذاناً طويلة لرئيس البلدية بطلب منه ، ورئتي التي لم تعد تتحمل غازات المدينة السامة• كل التفاصيل القاتلة بدأت تتحول الى كتل من اللحم المتفسخ يرقص الدود فيه بالآلاف •

« آه يا حمو خويا وينك !! كلامك كبير • مدينتنا بدأت تفقد ما تبقى من عرضها • »

استوقفني من جديد صوت بائعة البيض والخبز والحشائش التي تؤكل • منذ أن دخلت هذه المدينة مرغماً وأنا أصبّح وأعشّي على وجهها المخدوش بآلاف الحفرالتي تعمقت مع مرور الزمن• يقال انها امرأة شهيد • زوجها سقط في مكان ما ، وفي ظروف غامضة وليس لديها ما يثبت استشهاده مع أنها تقسم برأسه أن هذه الأرض شربت من دمه • تعوزها الأوراق يا ماما حنّا ، فمن يأتيها بالشهادة وهي الآن لم تعد تطلب الا عظام صالح لتعيد ترتيبها وتدفنها باستقامة وتحكي لابنتها التي هربت بشموخ عن أبيها الذي حورب في دمه



وفي حفرة قبر تتسع لشبر من خمسة أصابع • بجانبها طفلتها الصغيرة ، تلحس أصابعها المتسخة • الناس ههنا يتساءلون عنها كثيراً • هي تقول انها تبنتها ، عوضت بها رحمة التي هربت في احدى البواخر ولم تعد • لكن وجه الطفلة وعيونها تشبه الى حد الدم بائعة الخبز والحشائش • بينهما تقارب الهم والنجوم التي بدأت ألوان السماء الرصاصية تاكلها • في بداية الأمر ، حين وضعت أثقالها على حافة هذا الشارع ، تساءل الناس كثيراً ، لكن بعدها كل واحد انهمك في خوفه ، ولم تعد تهمه السيدة الا من باب النكتة أو الذكريات • هكذا عندنا ، في هذه المدينة • الأشياء تبدأ ساخنة، لكن سرعان ما تخبو مثل الجمر الميت حتى تتحول الى بقايا تربة محروقة سرعان ما تبعثرها الأرياح الشتوية • نفس الشيء يمكن أن يقال عن المستشفى التجميلي • رفض بقوة وبعدها زكت وجوده الاذاعة والتلفزيون والجرائد اليومية التي عادت الى ورقها الأصفر • آه يا حمو خويا • مدننا ثقيلة ، والأثقل منها وجوهنا التي لم يعد شيء يحرك جروحها • لا نتذكر بعضنا بعضاً الا عندما يأكلنا الهم من العينين • مرة واحدة تذكرنا الشهداء بحسرة ، يوم زلزلت احدى المدن التي استشهدت مرتين • يومها فوجئت بأمي تسلخ عنقها من اللويزات السبع وتقدمها الى صندوق المنكوبين • أعز ما تبقى لديها من ذكريات عرسها مع المهدي • قبل هذا الزمن ، وعدتني بها يوم زواجي •

« هذه اللويزات لك أو لأخيك يوم تتزوجان •»

مع ضحايا الزلزال الذي دمر أحجار المدينة ، تذكرت ابن محمد كما كانت تسميه • في ذلك المساء بكت كثيراً وهي تعلم في أعماق أعماقها ، أن هذه اللويزات السبع قد يتقاسمها رجال البلدية ولن تصل أبداً المدينة التي استشهدت مرتين • سينامون بها في أحد المواخير البعيدة ، أو يشترونها قنينة ويسكي • يسكرون بها ، ثم يتضاحكون بأفواه الكلاب ملء أشداقهم • صوت بائعة البيض والخبز والحشائش أعرفه من بين آلاف الأصوات • يأتيني حاراً مثل رياح صحراوية •

« اسمع يا ولد الناس • يا صحفي آخر زمان • ماذا تخبيء في زوادتك ؟؟ • »

التفت نحوها مرة أخرى • كانت طفلتها ذات العيون الواسعة تبتسم • شعرت بخجلي ، تعريت عن أخرى ، لأن الطريق الذي كنت أتمترس فيه يؤدي الى ماخور المدينة • ابتسمت بدورها • ظهرت أسنانها المذهبة من وراء شبه تكشيرة فيها من السخرية والخجل ما يعري رئيس بلدية أو والي ولاية • حاولت أن أصارحها كالعادة •

– « ضايعين يا يمّا خيرة • وعين صالح وراسه ضايعين • »

ضايعين يا يمّا خيرة • من وسخ القدم حتى قملة الرأس •

لست أدري هل كلمتها بصوت مسموع• ولست أدري هل سمعتني • كل ما أعلمه هو أنها نسيتني وسط حركة الناس وانهمكت برجل آخر كانت تمازحه ليأخذ منها خبزاً وبيضاً مسلوقاً •

– « المطلوع • الله يخرب بيتك لا يوجد أحسن منه• تسالني أنا عن البولانجي • »

وقبل أن تقوم وتعريه من حيائه وغبائه • كان الرجل قد اختفى بين الناس ، بدون أن تتحسر عليه • وعادت عيناها تتثبتان من جديد ببداية الشارع وبوجوه الناس المتعبين •

بدأت الأمطار تتساقط بقوة • يعجبني وقعها في قلبي لدرجة الخوف • يذكرني هذا الجو بمريم التي أكلتها الأزمنة التي مضت • تنام كقطة اليفة تحت معطفي • يأتيني ضحكها وقهقهتهاالعالية التي تختلط بنقرات الأمطار على الأسطح الزنكية والقرميدية • تصعد الى أنفينا رائحة التربة تشعل سيجارتين رديئتين • تناولني واحدة • ابتسامتها تأسر العالم بأسره • احرق الدنيا يا صديقي • بدأنا نكبر • دخن وخليها على ربك • نتضاحك عالياً ، نتلون كالعصافير ثم نركض ، نركض ، تتكسر تحت أرجلنا برك المياه الباردة • نركض حتى يغيّبنا ضباب المدينة •

وقبل أن تعود الى بيتها الصغير في سفح جبل يكتظ بالناس الفقراء ، أتأمل عينيها الواسعتين كالأيام الرائعة • تتمتم في شفتي كالقبلة •

– « هل تحبني • »
– « أحبك • »
– « قدّ البحر • قد السماء • »
– « وسع ما تراه عيناك ووسع الأحلام الجميلة التي لا تنتهي • »

ثم تختفي واختفي معها في جمال المدينـة • ويوم سافرت تحت عجلات سيارة سـوداء • كانت الشوارع في حداد • تحولت الى توابيت تضم بين أخشابها آلاف الخلـق • عدت وحيـداً • أتسـلى بفرقعة أصابعي الفارغة •

كانت المدينة يومها قد بدأت تمسح عينيها من ضباب خيم عليها أكثر من أسبوع • قبل أن افتح عيني على رداءة الشارع وقبـل أن أغيب وسـط الهرج والمرج سمعت صـوت ماما خـيرة يلاحقني ويمتد كالجثة أمامي •

ـ « اكتب عنا يا صحفي آخر زمان • الله يلعنهـا صنعة • لا تعرفون الا الكذب وفروج النساء •

روح • الله لا يردك • آمين يا رب العالمين • »

الناس بـدأ الجنـون يصعـد الى قلوبهـم وأدمغتهم •

بلعتها ساخنة وواصلت سيري •

يا الله ، هل تعلم هذه السـيدة بأني مهمـوم أكثر منها وأني قدمت استقالتي وأنا الآن عاطل عن الشغل • هي على الأقل لا تحمل المسؤولية التي تأكل قلبي •

أنت تخطىء يا بابا الحسين • ما دخلها هـي في همك • مت أو عش • همك لا يتحمله قلبها • أنت صغير يا هذا الطفل والمدينة غولة • الم تتعلم بعد أن هذه الشوارع تلد البؤس والموت والمغـاور والأشياء الغامضة •

كانت القرحة قد بدأت تفـرز حوامضهـا • شعرت بآلام البطن تزداد أكثر فأكثر • حاولت مرة أخرى أن أنسى همي وأتسلى بوجوه الناس وبهـذه الحركة التي لا تموت وهذا الشارع الذي أعـرفـه منذ أكثر من عشر سنوات • لم يتغير كثيراً الا الوجوه الغامضة التي تتكـاثر على أطرافـه كالديـدان والأطفال الذين يعدون بحبات الرمل • اليتامى وغير الشرعيين الذين يرمون ههنا في سن مبكرة • يجلسون يومياً على حافة الطرقات • يعدون المارة ويحاولون تذكر وجوههم عند الحاجة ، والحناطير والخيول التي تشبه في أشكالها الخارجية البغـال والسيارا تالعتيقة التي يصم صريرهـا الآذان • وينتظـرون •

ينتظرون شيئاً غامضاً في أفق أكثر غموضاً •

وحين يدفن قيض الشمس بين الغيوم، يقومون بعياء شيوخ في سن السبعين • بعضهم يدفع عربات الزريعة والكاكاو • بعضهم يبيع أوراق الحظ ، والويسكي والمخدرات • وآخرون احترفوا صنعـة قنص الجيوب • عيونهم مثل عيون الطير ، لا تستقر في مكان • يعرفون القروي من عينيـه ومن شـكل ابتسامته ومن حـركة يديه وتلوينـات وجهـه • متوحشون كالقطط • لا تعلم من أين يفاجئونك • همي يحب الويسكي • الكاكاو والزريعة •

ـ « امرأة جميلة بعشرة دنانير فقط • ممو العين وسالف لونجا • »

التفت • شعرت بالفة في صوته •

ـ « هذا أنت يا كريمو • ماذا تفعل هنا • أمـك مع من تركتها • »

ـ « هه أمي مدبرة راسها • وأنا هنا أحترف هذه الصنعة • »

ـ « كريمو !! هذه صنعة سيئة • »

ـ « قوادة • قلهـا • يا سـيدي عمّرلي كرشـي وخليني قواد • »

وقبل أن ادقق في تفاصيل وجهه الطفـولي • كان قد غـاب بين النـاس والسـيارات والباعـة الجوالين • حاولت أن أعض على أصابعـي • أن أنتف شعري شعرة شعرة • أن أصرخ لكني شعرت بلساني يغيب داخل حلقي كالخازوق •

« حتى كريمو • طفل البلدة الطيب • لحقـه غبار المدينة • يا محمد !!!! » •

في منعطف آخر • التقيت به للمرة الثانية • تكلم معي وكأنه لا يعرفني •

ـ « عشر دنانير فقط • وتقبض عليها بقوة • » هنـاك •

ثم أشّر باصبعه نحو بنايـة عالية تطـل من شرفتها العليا امرأة في سن أمي •

ـ « رخيصة • وتمارس الحب بشكل مدهش • »

مع أن باب البناية كتب عليه ، عند المدخـل بالضبط بالخط الفرنسي المعوج •



« بيت شريف • Maison - Honnete »

بلقاسم يخاف على منصبه • يتشبث به كالعلقة • حين اقترحنا عليه أن نقوم بتحقيق جماعي عن هذا الشارع • قال أن المسألة جدة معقدة ، واذا فتحنا الباب على مصراعيه سياتينا كل لقطاء المدينة وقحبات الشارع يطالبوننا بالكتابة عنهم • أصر حتى بدت المسألة أكثر تعقيداً مما نتصور • ركبها على بعضها بعضاً بشكل يستعصي علينا فهمها •

لست أدري لماذا أشعر بكل العيون مصوبة نحوي وبالقيامة ستنزل على دماغي • الشارع ليس جديداً عني • عشر سنوات وأنا أحرثه جيئة وذهاباً • بالفعل ، بدأت أشك في قواي العقلية •

كلهم مجانين • حتى أنت يا الحسين بن المهدي ابن محمد ، لا تقل جنوناً عن غيرك • الفرق بين مجنون وعاقل ، واحد لا يتذكر حتى أمه ، وآخر يتذكر حتى أدق التفاصيل المؤلمة • حمو الوحيد من المجانين الذي يتذكر كل شيء • يحمل في دماغه وجوه الشهداء • شهيد يحرق الشوارع بعينيه • يحمل تابوتاً على ظهره ويحكي حكايات لا يفهمها الا القلة القليلة •

– « خسارة الدم اللي ضاع • خسارة الدم اللي ضاع • »

– « مساء الخير أو صباح الخير ، عمي حمو • »

– « نهارك زين يا ولدي • ضاعوا • كلش ضاع • »

– « عمي حمو ، أنت جوعان ؟؟؟ »

– « ... ... »

كان وجهه أصفر • نظر الي بحدة ، ثم رجع لينهمك مع الناس الذين يلعبون الورق •

« أربح يا الرابح • الصفراء تربح • الصفراء تخسر • أنت وزهرك يا المسكين • »

الروائح الكريهة تحرق أنفي • تملأ المكان بشكل يدعو الى التقيؤ • لست أدري ما الذي ذكرني باستقالتي • ترى هل أخطات بتقديمها • أوف كنت سأتحول الى دابة هرمة • لا أعتقد أني أخطات أبداً • لا أعتقد •

آه يا الحسين يا ولد المهدي بن محمد ، عيبك. أنك حين تخطيء تبدأ في البحث عن مبررات لموقفك، فتسقط في تماسة البورجوازية الصغيرة التي لا تملك شيئاً غير تبرير كل ما تقوم به وتخرجه على الوجه الذي يقنع فضولها •

أوف • أنا لا أبرر •

أنا أقر واقعاً ما زال غامضاً برأسي • وحتى لو لم أقدمها كانوا عزلوني أو حولوني الى الصفحة الميتة • ما خسرت يا ولد المهدي • أنت لم تخسر غير قيودك • وحق محمد سأقوم بالتحقيق سأبحث في كل التفاصيل حتى ولو كلفني ذلك رأسي ، وسأدخل المستشفى التجميلي ولو اضطررت الى ركوب الحيطان العالية • هل بقي أمامي شيء آخر أخسره ؟؟؟

قبل أن أنهي امتداد الشارع ، انعطفت نحو زقاق يتفرع عنه شارع المهدي بن محمد • تأملت مرة أخرى الأرمة الحديدية التي تحمل اسم الزقاق والشارع • بدأت تبيض بفعل الزمن ، وبعض الكلمات تمحي • ربما بعد سنة أخرى ، لا يعود هناك شيء اسمه شارع المهدي بن محمد •

المدينة ستفقد ذاكرتها • المدينة ستفقد ذاكرتها •

تأملته بحنان ضامر • شعرت بدموع محرقة تفضح عيني ، وبالريح الصحراوية تعصف في دمي وبالأناشيد التي تنمو على طرف اللسان ، تموت كالعصافير • عبر الزقاق الممتد بآلامه وأوساخه • نساء يبعن اللذة بأتفه الأثمان •

« آه يا يمّا يا أميمة •

أنا عييت من تعب الناس

أرواح لي قبل النعاس

وديرني في قلبك حميمة • »

آه يا مريم !!

أتذكرين ذلك الأحد البارد • كان العمال قد ناموا بعد تعب عيدهم السنوي استغربت أن يكون شهر ماي بارداً بهذا الشكل • جئتك • كنت متعباً حتى القلب •

قلت أحبك • نظرت الي بعيون رفرفت بخجل •

قالت :

– أصدقك •



في ذلك المساء حكيت لك يا مريم عن كل شيء ولم أكن أملك غير حبي وأعصابي الباردة مثل هذا اليوم • شاهدت في عينيك غزلاناً شاردة وأنت تلامسين حافة هذا القلب الجريح منذ أكثر من سنتين •

ـ أخاف •

ـ مني •

ـ آه • مرعوبة يا الحسين من كل شيء ، حتى من نفسي •

ـ لكني أحبك يا مريم •

ـ وأنا كذلك •• لا •• لا •• لا يا الحسين •• لا•

التفت نحو الحائط كطفل يهرب من كذبة مكشوفة • قلت لك وأنا ألم ما تبقى من هذا الجسد المتعب •

ـ ليس مهماً يا مريم • لنبق أصدقاء •

ـ أنت رائع يا الحسين • أعدك بذلك •

ـ بعد يومين وجدنا أنفسنا نتدحرج في ظلمة الشوارع الهرمة غارقين حتى القلب بدفء عيوننا. من يومها أصبحنا اليفين مثل الحزن والفرح لم نعد نستطيع أن نفارق بعضنا بعضاً كنا قد انصهرنا مثل النار •

آه يا مريم الجميلة !! • تقتلني المساءات الفارغة • لست أدري ما الدافع الذي جعلني أتذكر طفلتي التي تمزقت على حدود المدينة وعيون الناس وغموض الأشياء التي تطوقنا • مقهى « المرج الأخضر » ما زال يتذكر عيوننا الطفولية وهي هاربة من ذعر يمشي في كل الشوارع • أنا دائماً أقول لك ، عندما تعدينني بالمجيء ، تعالي يا طفلتي • لا تتخلفي دقيقة واحدة • فانتظارك في هذه المدينة ألم • وحبك ألم • والفرح معك ألم • ومع ذلك كله • فأنت مثلي ، ما زلت تحبين الناس الطيبين والبحر والأفق الجميل والشواطىء والجبال التي تلون خضرتها كل الفصول • أنت تهذي يا الحسين كالعادة • تهذي • متأزم في الشغل• مع الأصدقاء • صديقتك أكلتها المدينة وأنت مازلت كالأبله متمترساً في قلب شارع فج •

آه يا الحسين خويا تذكر كلمة مريم • فقد كانت تقرأ الطالع في عينيك •

« لا تقوم علاقة صحية في هذه البلاد الا اذا كنا أصحاء من الداخل • »

افتقدتك يا مريم في الزحمة مثلما افتقدت نفسي •

ههنا يبعن أجسادهن مقابل كسرة محروقة على تنور قديم • حين يرونك في نهاية الشارع تتدلى أعناقهن • تتسابق عيونهن لافتراسك • كيف أحوالكم يا شباب ؟ كيف أولاد البلدة الشقية ؟ واش جبتنا معك من عند أمك • أتذكر كهذا اليوم العصيب ، رقية خادمة عيشة الطويلة • دخلت الى الماخور، ذات مرة كما يدخل جميع خلق الله الطيبين، وكنت مرهقاً حتى العظم • جسمي مفكك • كل عضو ينام في قارة • شعرت بالحاجة الملحة الى الكلام والجلوس والبكاء • حكيت لها بنية طيبة عن هذا الشارع الذي يحمل اسم أبي • ضحكت حتى تعبت•

شعرت بنفسي شجرة عجوزاً أجبرتها الرياح القاسية على التعري من أغصانها • ثم حكيت لها مرة أخرى عن صديقتي التي اختطفتها مني المدن الحجرية • ضحكت من جديد • قهقهت بأعلى صوتها ، ثم أخذت تبكي وتصرخ ، وكأنها طفل صغير أبعد عن ثديي أمه الذابلين • لست أدري لماذا ؟؟؟ لكن الذي أعرفه جيداً هو أني لم أعد لها منذ ذلك اليوم • وكلما مررت بالشارع ، أتأملها قليلا في أعلى البناية بألبستها الشفافة صيفاً وشتاء لمدة خمس دقائق أتحمل فيها دفع الناس وصراخاتهم ومتاعب المارة الذين لا يرحمون •

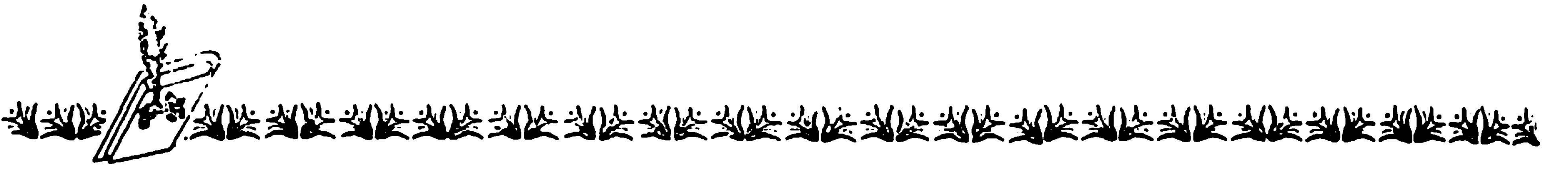
تتأملني بدورها بعيون طفولية • لم يبق من جمالها الا عيونها •

ثم أنزل مباشرة نحو النصب التذكاري • أحضنه• أقضي ساعات طويلة هناك قبل أن تلتهمني احدى خمارات المدينة •

شعرت في لحظة ما وأنا أتحمل الرفس والوطء، أن علامات الجنون بدأت تدخل دماغي • سأنتهي نهاية حمو بدون أدنى شك •

المدينة ضاقت حتى أصبحت تشبه عين ابرة •

آه يا حمو خويا ، هل حدث لك أن أحببت حلماً ثم جاءت يد خشنة ليلا وسرقته منك ؟؟؟ حلمك الطفولي يا حمو • هل حدث ونمت على صدر امرأة رائعة سكراناً ومت ؟ هل حدث أن عانقت



عيون امرأة شقية مثلك وحين فتحت عينيك ، وجدت نفسك في عالم لا تدري هل هي الجنة أم بداية الجنون • أنا متأكد يا حمو من صدق تجربتك التي خرجت منها • أصح مرة واحدة في عمرك وقل ما بقلبك صراحة وبعدها مت اذا شئت • مت وستبقى في القلب وفي العظم حتى تغمض هذه الأرياح الصحراوية عيوننا •

رقية كانت حزينة •

رقية كانت مغمضة العينين • معلقة في أعلى شرفة في البناية كقطعة قماش رخيصة غسلت عدة مرات ثم وضعت على أحد الأسلاك الشائكة في انتظار ريح قويةتأخذ معها في رحلتهاالتي لاتنتهي•

عندما وصلت الى نصب الشهيد كنت منهكاً ومنتهكاً في أحلامي •

كل شيء تلمسه أو تراه • يدعو الى الجنون• يا الله !! كان أحد الخضارين الجوالين يربط حماره هناك ويصيح بملء أشداقه • طوماطيش ، الكابويا ، الخبيز ، الباذنجان ، القسبرة الكرافس ، المعدنوس (•••) • كل شيء ههنا بدأ يكتسب أبعاداً جديدة وقيماً جديدة يصعب هضمها •

فوجئت مرة أخرى بحمو يمسد على رأس النصب التذكاري في قلبه نيران ملتهبة وغابات من الرماد ومسامير صدئة •

— « خسارة الدم اللي ضاع • خسارة الدم اللي ضاع • »

يا محمد !! يا الحسين ولد المهدي بن محمد ؟!! أين كانت كل هذه المصائب مختبئة ؟؟ أين كنت مختبئاً ؟؟ هل بدأت أسترد عقلي ، أم بدأت أفقده ؟؟ هي ذي المعادلة يا الحسين خويا التي أشعر بعصيانها عليّ •

الخضار ما زال يرفع صوته عالياً وحماره يظلل عند أقدام نصب الشهيد • أصحاب الطوابق العليا تحلقوا حوله كالجرذان كأنه يباع يانصيب، وحظوظ وأرقام • رأسي يكاد ينفجر • لم أشعر باختلاف كبير بين الخضار وبلقاسم مدير الجريدة• كلاهما يبيع ويشتري بحسب شطارته •

نظرت الى الجريدة بعين متعبة • أذبلتها الأمطار مثل هذا اليوم ، ومع ذلك ظل هذا الخبر بارزاً بخطوط كبيرة • شعرت بها تستفزني في ما تبقى من أشيائي الجميلة التي تنام في عمق الأعماق بداخلي •

« استجابة لرغبة زبائننا يسرنا أن نخبركم بأن خطوطنا الجوية تتشرف باستقبالكم على طائراتها تريستار Tristar من هنا الى حتى مدينة••• ثلاث مرات في الاسبوع• خطوطنا تتمنى لكم سفراً سعيداً على خطوطها وتضمن لكم نقل بضائعكم • مرحبا بكم في عالمنا • انه عالم Tristar-Hz-Ahm- • للاستفسار اتصلوا بمكتبنا الجديد • (•••) • »

هذه الاعلانات التي تسحقنا جاءت مع السي بلقاسم •

ربما كان حمو بفيضه وعنفوان جنونه • أحسن منهم كلهم •

— « الطريق خويا • الطريق • اشتر والا خلينا نفوت • »

كنت وسط الزقاق كصخرة قذفهاجبل بركاني.

متعب حتى النخاع • الأمطار زادت قوتها وأصبحت تجلد كسياف خليجي • الصحيفة ابتلت في يدي أكثر فأكثر ولكني لم أرمها ، لست أدري لماذا ؟؟

نظرت الى وجه النصب التذكاري • بدأ وجهه يتجهم • قرأت عليه العناوين الكبيرة التي استطعت التقاطها بصعوبة • التفت برأسه نحو أفق غامض• لم يقل شيئاً ولكنه بصق •

كان الناس عند أقدامه يتقاتلون مع الخضار•

نظر الي بقسوة • أحنيت رأسي ثم واصلت تدحرجي نحو خمارة « الايمان » التي كانت تفتح فمها بكامل اتساعه •

كنت مضمخاً • بارداً وحزيناً •

ثبتت داخل بؤبؤ عيني حركة النصبالتذكاري وهو يلتفت بكامل جسمه نحو جهة غامضة •

حاولت ان أتأكد من صحة ما رأيت ، لكن خمارة الايمان كانت قد سحبتني اليها فبدأت أتلذذ بوجوه الناس والدفء ، والأدخنة المتصاعدة هنا وهناك •

* * *



عودة المهدي بن محمد من منفاه :

الحزن يتكور في القلب كالدودة •

أتذكر وجهك النبوي الذي لا يبرح مخيلتي• أول قبلة ارتجف لها القلب وشعرت بعدها ببرودة غريبة تسري في دمي • لست أدري كم مر من الزمن على تلك القبلة • كانت جميلة وشقية مثلنا يا مريم• تبدأ الأشياء المحيطة في التشكلات الغريبة. تدخلها روائح ما يصعب على المرء تحديد طبيعتها• كل رائحة تذكرني بحادثة ما في حياتي • حتى صديقتي التي غيبتها المدينة كانت لها رائحة ما ، تذكرني بفرحة الطفولة ، بالتربة ، بالقرى الملتصقة بالقلب وبوقع الأمطار • لست أدري ما الذي كان يقذف بي من حالة الى حالة ، لكن المؤكد ، هو أني كنت أفتح عيني بصعوبة كبيرة لتواجهني بشكل استفزازي صفحة الاعلانات ، والوفيات ، ووجه بلقاسم الذي أصبح بدون ملامح، المستشفى المخيف • الحامض الذي بدأ يثقب المعدة بقسوة وألم• لون الشوارع الداكن مثل الرصاص• النصب التذكاري الذي شاح عني بوجهه •

كل شيء احترق وتحول الى رماد تعجَّن بجوفي •

أخ • تفو • يا لطيف !! صاحب هذا النزل مزعج • أشعر بتفاهته ، فتنتابني رغبة التقيؤ • نظر الي بعينين قذرتين • عيناه نافذتان كالنار ومخيفتان • جحوظهما أعطى حجماً صغيراً لوجهه واظهر لحيته الطويلة الدقيقة كلحية جدي هرم • لم أعره انتباهاً كبيراً • فأنا أقيم ههنا منذ أكثر من خمس سنوات ، وأدفع له تعويضه قبل نهاية كل شهر بانتظام حتى ولو اضطرني الأمر الى التسليف من عند الأصدقاء الذين أكلوا ملحنا وأكلنا ملحهم • لا يستطيع أن يقف في طريقي على الرغم من أني أشعر أحياناً أن بقلبه غرباناً مخيفة لا تنتظر الا اللحظة المناسبة للانقضاض • قلبه ليس طيباً ولكنه يخاف من الصحفيين بشكل دائم • يسميهم ، أو لنقل كان يسميهم بحقارة كبيرة كلاب المدينة Chiens de ville • مغرم حتى العظم بالحديث باللغة الفرنسية • يحكي البعض أن جده كان يهودياً ، حاول أن ينقذ خزينته من الحريق فتفحم هو ونجت الخزانة الحديدية المغلقة بشكل سري • لم تفتح الا بصعوبة • جاء من منطقة مجهولة واستتب به الأمر في قلب هذه المدينة • عيناه لا تعرفان من الناس الا جيوبهم وألبستهم • ويقال في المدينة كذلك ، أنه ينوي أن يوسع مملكته ، ليصبح فندقه من الدرجة الرابعة أو الخامسة •

تعثرت على الدرج • شعرت بالغثيان لكني قاومت • دفعت الباب بقوة • بدا لي خشناً وثقيلا ومرهقاً فوجئت بالسطح ينزل شيئاً فشيئاً ، والحيطان الهرمة تتلاقى فيما بينها وبأحشائي تتقلص لتتحول الى قطعة مطاط أحرقت عدة مرات •

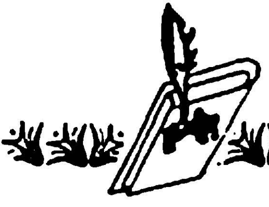
تهالكت على كرسي خشبي عتيق كوجه الجدة التي أكلها الموت السنة الماضية • تخرمت مثل قصبة يابسة • هذا الكرسي كان لا شيء في هذه الحجرة • أنا الذي قمت باصلاحه بنفسي ، على الأقل حتى أتمكن من استقبال الأحباب عند الضرورة •

يا الله ما أقلهم هذه الأيام • كلهم بدأوا يشيحون بوجوههم في الفترة الأخيرة كما فعل معي تماماً ، النصب التذكاري • حتى الحميد ، شعلة هذه المدينة بدأيمشي نحو أكثر الطرقاتاختصاراً •

عدت أتأمل الحيطان • مخرمة كانت ، من بقايا حرب مجهولة • حتى الطلاء بدأ يتكور في بعض الأماكن من فعل الرطوبة • الأرضية متسخة• رائحة كريهة جداً ، تنبعث من زاوية ما من زوايا هذا البيت الذي بدأ يضيق على أهله • زاد دوار رأسي على غير العادة وعاد الغثيان يهددني من جديد • أغمضت عيني ، ضغطت عليهما بقوة • رأيت فيما رأيت • الأطياف من الغزلان تهرب مذعورة من بندقية لا اسم ولا عيون لصاحبها • رأيت آلة كبيرة • أراها للمرة الأولى في حياتي ، تطحن أجسام العباد الهزيلة • رأيت صورة هتلر لست أدري لماذا مع أني أكره وجهه كدم الأسنان ، وقد نبت الشعر على صلعته وحلق شواربه التي كان يعتز بتميزها وصغرها • شاهدته في جلسة جنونية يقف وجهاً لوجه مع أمه التي ما لبث أن أكل رأسها ، ثم التهمها كاملة • وظل يتألم كالكلب المسعور بعد أن استعصى عليه هضمها ، فأصيب بحالة امساك مزمنة ، حتى يوم اختفائه •

انها القيامة يا ولد المهدي بن محمد •

شيء ما بداخلي كان قد بدأ في تغيير حركته المألوفة • هناك رغبة كبيرة في البكاء والحنين تنتاب



وحدتي هذه . ربما كانت هي نفسها تفاصيل الوضع الذي يسبق حالة الجنون . كبرت واتسعت بشكل مخيف حتى شعرت بالعالم يضيق بي ويعجز عن تحمل جثتي . في لحظة ما لا أستطيع ضبطها بالدقائق والثواني ، تحولت الى نصف حصان خرافي ، امتدت اليه آلاف الأيدي لخصيه . أخرج أحدهم كان يغطي وجهه بقطعة قماش سوداء ولزجة ، شفرة حادة . قلبوني على قفاي حتى شعرت بعظام الرأس تتكسر . كانت الصدمة قوية . صرخت بأعلى صوتي ، لكن صوتي كان مكتوماً وكأنهم وضعوا داخل حلقي قطعة قماش أو قطناً مضمخاً بالماء . فتحوا رجلي عن آخرهما . يا الله يستحيل أن تمر العملية بسهولة . وجدت نفسي وحيداً . أينك يا الله . انها اللحظة الحاسمة التي تستطيع فيها اثبات وجودك . اظهر واقلب كل شيء على ظهورهم وخصياتهم . زادت وحدتي أكثر . أخرجوا شفرت ، جيلات ، بيضاء من غمدها المزدوج ثم أخذ أحدهم خصيتي بقبضته القوية وبدأ يلوي ويشد ، يلوي ويشد ويحاول دفعها بقوة حتى صار الجلد أرهف من هذا الشعور الذي أحمله لكل الناس الطيبين . حاولت أن أتملص من بين أيديهم لكنهم كانوا أقوى من مقاومتي . يا الله أينك . أينك يا الحميد ، يا شعلة المدينة . قل لي ماذا أفعل . اني أعيش حالة الموت بعينين مفتوحتين عن آخرهما . وحيداً كنت ، مع الأصداء المخيفة التي كانت تأتي من أبعاد مجهولة . في تلك اللحظة بالذات ، فكرت أن أتراجع عن الموضوع . لم تعلم ساسافندا بهذه المغامرة سترفض . انها تكره المشاكل ووجع الراس. الله . المهدي بن محمد ، كغيره من الشهداء، فليكن الرجل الذي اقترحه علي بلقاسم هو مدار البحث والتحقيق . ماذا يهم . من سيعرف بأني تراجعت . وحدي صممت ووحدي تراجعت . حتى ساسافندا لا تعرف شيئاً . لكن يا الله بأي وجه سأقف أمام المرآة . حين أرى المرآة لا وجه يبقى لي أبداً . حاولت أن أقنع نفسي عبثاً . أرجوكم اتركوني وغداً سأذهب عند بلقاسم وأقبل رجليه . ياه . أنت مجنون ولا تستحق تسمية الحسين ولد المهدي بن محمد . لا . لا . سيقبل عودتي الى الجريدة ، لكن سأتحول في نظره الى مجرد جرذ صغيرة لا قوة بين يديه كما فعلها مع غيره . سأبدو في عينيه انساناً هزيلا ، منهوكاً ، شيخاً هرماً ، يقبع في أحد زوايا مكتبه القديم في انتظار أن يفاجئه الموت .

وأنت يا ابن محمد كيف أقابلك بهذا الوجه الذي فقد ملامحه . لا . كان المهدي يرنو الي بعينين هادئتين من اطاره في صدر البيت . كان يتأمل الصغيرة والكبيرة من حركة أشياء البيت . في لحظة ما ، انتابني شعور بأنه ما زال على قيد الحياة . لا قبر له . لا عظام له . لا بلدة ولا اسم له . لا . لا يا الحسين انها حالة الهذيان التي احتلت مخك . هؤلاء الأنبياء نحاول أن ننساهم ، لكننا ما زلنا حتى اللحظة نخرج عظامهم من الحفر المهملة في الغابات والمغارات القديمة .

حتى الآن يا الحسين . ما تزال عظامهم تنزف بقوة .

كل شيء فيَّ كان ينزف مثل الوادي . أخرج أحدهم قطنة بيضاء ، وبحركة خفيفة فتح الجلد فتطايرت الخصيتان كلعبتي أطفال . سمعت أصداءهما في بهو البيت . صعد الدم حتى لامس السقف . فتح جيوب الجلد حشا الجرح بشيء أبيض وبدأ يخيط تماماً كمن يخيط قطعة قماش مرّ عليها دهر من الزمن .

كان صراخي يصل أركان الربع الخالي .

حين فتحت عيني بتثاقل بحثت عن خصيتي ، فلم أجد الا جلداً فارغاً منرزاً ومخاطاً مثل شكارة خيش قديمة . شعرت بالخوف يحيط بي من كل مكان . ذعرت . غزالة سرقتها مخاوف برية خالية . آه يا يما الحنانة ، ماذا أقول لساسافندا ؟؟؟ ماذا أقول لمشوقتي المقحمة التي تآكلت كحيطان هذه المدينة الرثة . فتحت عيني أكثر ، لمحت البرادات والتلفزيونات الملونة وأخبار المساء والفيديوهات تهاجمني دفعات دفعات في محاولة منها لاستئصال ذاكرتي . ذاكرة وجوه الشهداء . كنت هائجاً مثل حيوان أسطوري .

حين تركوني ، ضحكوا معي . قهقهوا بنتانة . مسدوا على ظهري وشعري ، تغامزوا ثم خرجوا متجهمين الى مكان مجهول . كانوا قد حاولوا مع حمو العمل نفسه لكنه قاوم بشراسة ولم يستطيعوا لأنه في لحظة تحول غريبة تحول الى غول قادر على أكل المدينة بأكملها . بأناسها وباراتها ، ومقاهيها ، ونسائها وحماماتها ومقرات جرائدها ومؤسساتها .

شعرت بطعم الملوحة القوي على طرف لساني. حين انتبهت الى وضعي جيداً ، وجدتني آكل نفسي



عضواً عضواً ، وقطعة قطعة · ومع ذلك شعرت بنوع من الاطمئنان للحالة ، فبدأت أبكي وأنتحب كطفل ترك وحيداً في أحراج معزولة عن الحياة ·

« أه يا يما لو تشوفي ولدك الحسين ؟؟!! »

أجهدت نفسي من جديد لفتح عيني ، تراءى لي من وراء ملوحة الدمعة، وجه المهدي مع ابتسامته الهادئة ، والاطار الصغير الذي حملته معي من أمكنة بعيدة ومنذ زمن أبعد من الزمن الذي نعيشه مرغمين في عذاب · هذا ما تبقى من ذكريات هذا الوجه الذي أكلته تربة القبر والغموض · المهدي ، تقول أمي لم يمت · ولا يمكن أن يموت · سيعود ذات فجر · وربما ذات مساء بارد · لكنه سيعود · لأن الدم الذي شربته خضرة الغابات لن يخصب الا بعودته المؤكدة · بعضهم يقول ويقسم ، أن المهدي سينزل على صوامع المدينة مع بداية الكسوف · سيتسلل مع جيش من الشهداء الى هذه المدينة الهرمة كذئبة عجوز ·

يؤكد الحكاية ، حمو ، بتراتيله اليومية ·

« خسارة الدم اللي ضاع · خسارة الدم اللي ضاع · »

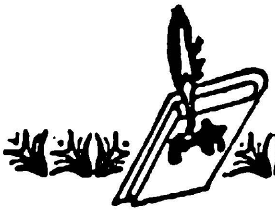
استيقظ يا المهدي أو قل لي ماذا أفعل لايقاظك أيها الوجه النبوي الذي حارب الموت بالموت ·

استيقظ لم تبق الا أنت في هذه المدينة · خسرت كل شيء ، وربما خسرت شعلة المدينة ، الحميد الذي بدأ يسقط ضحية تفاصيل الحياة اليومية التي أغرقته في رتابة الموت · وغداً ستطير ساسافندا كما طارت مريم مع النوارس البيضاء التي هجرت المدينة · فقدت الخصيتين · فقدت العمل والبلدة البعيدة التي تحملت حماقات طفولتي وتفاهاتي المتعددة · صدقني ، أني أتمنى أحياناً أن أغوص وسط التفاصيل كالغيمة ولا أعرف ما يدور في هذه الدنيا وأعود من جديد الى حنين الطفولة ، الحسين ، ابن البلدة الطيب الذي لا يفلسف الحياة كثيراً · يشتغل بحماس كبير · وفي المساء حين يعود متعباً يتلذذ بالحالة التي يصعب تفسيرها · يسخن الماء · يغسل جسمه بكامله من عرق اليوم ثم ينام قرير العين وحين يغمض أبناؤه عيونهم (أولاد الحرام لا ينامون) يتزحلق ليحترق على صدر زوجته بكل دفء · وأحياناً بشراسة تصل حد البكاء على نهديها وقلبها وربما عند أقدامها ·

آه يا مريم محكوم علينا بالموت والتنفيذ مؤجل الى ما بعد الكسوف · يا المهدي يا ابن محمد، لو تعرف ، لو تعرف ماذا يجري في جحور هذه المدينة المنتهكة في عرضها · سأجعلك تعرف كل شيء لأني أدرك جيداً كل التفاصيل والحماقات التي يحملوننا مسؤوليتها ·

قمت بصعوبة من مكاني · اقتربت من المهدي أكثر · الأرض تموج بي كالبحر · الاطار يغيب ويظهر · لا يستقر على حالة · الوجه متلف والصورة غير واضحة · تتضح قليلا كلما حاولت فتح عيني الى أقصاهما · قم يا الحسين · لا تقم · قلت لك قم يا ولد الحرام وقف باجلال أمام هذا الرجل غير العادي · قم ولا تكن مثل الشيطان فتفقد الجنة · قمت من جديد · وقفت لكن قدمي لم تتحملاني كثيراً · الأرض سديمية · شعرت بنفسي صخرة كبيرة قذفت من جبل واستقرت على حافة ما من منحدر مخيف · تدحرجت في مكاني · حاولت مرة أخرى · شعرت بالألم بين رجلي · تأملت الاطار من جديد · هذه المرة بانت لي عينا المهدي صافيتين على غير العادة ، واسعتين ورائعتين كفجر ربيعي · المهدي · آه يا ابن محمد · عليك أن تنزل من برجك · لقد تعبت من انتظارك · عليك أن تنزل قبل أن تنزلني المدينة الى احدى حفرها ولا أراك الا في الأحلام ·

في تلك اللحظة لست أدري ما الذي وقع لي · والحالة التي شوشت دماغي وآذاني وعيوني · سمعت صوتاً شق الأرض التي كنت أقف عليها حافي القدمين · بدأ كل شيء يتحرك حتى أدق الأشياء الصغيرة التي تملأ أطراف البيت · أغمضت عيني فترة من الزمن في محاولة مني لاستجماع ما تبقى من قوتي الضائعة · وحين فتحتهما أشفقت على حالتي كثيراً · فقد كان قلبي قد تحول الى قطعة كرانيت يابسة · المهدي · الله · المهدي بن محمد يتحرك · تلمسته ، اهتزت يدي · حق محمد أنه يتحرك · شفتاه تنفرجان · تتسع ابتسامته الجميلة أكثر · عيناه تنفتحان بشكل جميل وترمشان بحنان · الاطار يتسع أكثر فأكثر حتى يصل رأس الخزانة · حرك يديه · كانتا هزيلتين ، متعبتين ، عليهما بقايا البارود والكلاليب الصدئة التي كانوا يقطعون بها الأسلاك الشائكة · اهتزت ثيابه



العسكرية مع النسمة التي نفذت من شق النافـذة المشرع. ستطت قبعته من على رأسه . انحنى بهدوء لبرجعها بعد ثانية واحدة الى مكانها الأول . تأمل علم البلاد الكبير الذي كنت أزين به صدر البيت . اعتدل في وقفته بشموخ . رفع يده الى جبهتـه . مكث أكثر من دقيقة على وضعه . ثم ابتسم ابتسامة عريضة بانت من ورائها أسنانه العاجية الجميلة . تقول أمي أنه مات ولم يفقـد ولا سناً واحـدة ، ظلت كلها سليمة . مد يده اليّ ، دافعاً في الوقـت نفسه بالاطار الفارغ الى جهـة الحائط في احـد الزوايا المهملة . تأملته لحظة اندهاش صعب علـي تصديقها . شعرت من عينيه بمسحة حزن عميقـة رغم الاشراقة التي فاضت على وجهه .

مسحت عيني من جـديد . أخرج الجـن من القمقم . أينك يا علاء الدين . هل تصدق بأنـي استرجعت المهدي بدون قنديلك ؟؟ هل تعلم يا علاء الديـن بأن الشـهداء بـدأوا يعـودون الواحـد تلو الآخر ؟؟ لا . لا يا الحسين أنت تعيش عمـق الحالة التي يصعب تفسيرهـا . أنت لست في حـلم يا ابن أمي انها الحقيقة يا ولد عيشة المنورة .

تلمست يده بخوف في البدايـة . ترنحت في مكاني ثم انحنيت ، وبـدأت أقبلها وأبكي حتـى شعرت بأنه لم يبق بعيني الا المحجرين الفارغين . هزني من أكتـافي . تشجعت ثـم انتصبت أمامـه بشموخ أكبـر . شاهدت الابتسامات تتراجـع من شفاهه . تحول وجهه الى قطعة حديد ساخنة . ربما رأى بقع الدم بين رجلي لأن نظرته ظلت مثبتة على حجـري .

خفت منه في لحظـة ما . خيل لي أني بـدأت أسمع صوته الحزين . لا يا الحسـين ما زلت ابن المهدي بن محمد ، وابن عيشة المنورة . أنت لـم تفقد شيئاً . قامتك شامخـة وعيناك حادتان مثـل عيني الطير الحر .

آه يا المهدي يا العظيم . لو تعرف ماذا وقـع بعـدك .

عاودني البكاء من جديد .

انحنى بقامته العملاقة علي وقبلني على كامل جسمي . كانت قبلته حارة مثل الجمرة ، تحمـل عذاب أكثر من عشرين سنة . ربت عـلى أكتـافي بقوة . ما بك يا الحسـين . ما زلت ابـن البلدة ومعدناً ثميناً . انهم يريدون أن يقنعوك بأنك رجلا مخصياً . انه الحلم الدموي المشوه الذي أسكنـوه بدماغك منذ أن فتحت عينيك في هذه البلاد الواسعة، بدأت الأشياء الصدئة تتحرك في رأسي .

ومع ذلك يا المهدي قد خصوني وهذه بقـع الدم تملأ سروالي . لقد فكرت في لحظة ما أن أخون دمك ، وان أتراجع . ومن يفكر في شيء مثل هذا . معناه أنه قادر على القيام به حين يتوفر له الظرف المناسب . آخ . قلت لك ما زلت قادراً على الوقوف على ركبتيك بقوة . لا تكن نذلا يا ابن المهدي بن محمد . لا تكن ساقطا في زمن كل شيء نلمسه فيه يدعو الى السقـوط . بدأ الصحـو يدخـل قلبي وعيـوني .

شرعت النوافذ كلها وحـاولت أن أتذكـر تفاصيل اللحظة . ها ، كنت حزينا حين غضب مني النصب التذكاري وشاح بوجهه عني. كانت الأمطار قاسية حين انزلقت الى أحد الزوايا الدافئة في حانة « الايمان » شربت كثيرا وأنا وعمي حمو . حـكى لي كثيرا عن الشهداء . كان مثل المحموم . أدخلني عالم المجانين الذين يقيم في عيونهم رفاة الشهداء . كان حمو في كامل صفائه ولم يكن مجنونا أبـداً . تكلم كثيرا . لكنه في النهاية قبل ان تتقيأني الحانة بدا يعوي مثل ذئب اتعبته البراري ثم خرج يجري وقبل أن اكلمه مرة أخرى كانت الشوارع الخلفية قد التهمته ولم أعد أسـمع الا صراخـه الذي كان يقطع صدر هذا الليل المظلم .

« خسارة الدم اللي ضاع . خسارة الدم اللي ضـاع . »

عدت من جديد على أعقابي الى الحانة . كنت قد بدأت أترنح وعيـوني لم تعـد ترى تفاصيـل المدينة . أخذت أشيائي وأوراقـي ثم خـرجت . أدراج البيت صعدتها بصعوبة كبيرة .

توجهت الى المغسلة . بللت رأسي ووجهي . شعرت بأني كنت فعلا سكراناً حتى العظم .

كان الهواء البـارد الذي دخـل من النوافـذ المشرعة منعشاً . فتحت عيني عن آخرهما . تجاريت مباشرة نحو الاطار الفارغ الذي أعلقه عادة في صدر البيت . لم أجده . وجـدت الوضع السـابق بكل تفاصيله . الاطار الكبير الموضوع في الزاويـة . بعض بقع الدم . الروائـح الكريهة . والمهـدي



متعب ، يجلس على أحد الكراسي العتيقة • وجهه أغبر • عيناه غائرتان ، متعبتان رغم الصفاء الذي كان يشع بداخلهما •

طلب مني منشفة • قدمتها له بسرعة • عاد الي اتزان خطواتي • توجه نحو المغسلة بدون حتى أن يستشيرني• سمعت صوت تكسر الماء في المغسلة • حين عاد من جديد • كان وجهه أكثر صفاء • شعره ممشوط • اللحية الكثة المحترقة ، نزعها • وضع حذاءه داخل الحمام ثم جاء ليجلس بقربي •

ربت على كتفي • تلمس وجهي ثم أدخل أصابعه بين شعري •

ــ « كيف يا الحسين • واش داير في الدنيا • »

ــ « الله • زابلة والحمد لله • مرة نشدها ومرة تشدنا بقوة » •

ــ « وليت رجل يا الحسين !! • »

ــ « لكن هذه المدينة تخصينا من رجولتنا يا المهدي • »

ــ « كيف هي عيشة المنورة • أمك يا الحسين • »

ــ « فقدت البصر منذ أن غيَّبك أولاد الحرام • »

حك جبهته بحزن • شعرت به يذرف دموعاً استقرت ساخنة بقلبه •

تلمسته من جديد• لباسه مخيف • انسان عظيم• هوذا المهدي بعظامه ولحمه •

ــ « هاه يا الحسين • ألم تكن تريد أن تراني • ها أنذا أمامك • »

ــ « تصور يا المهدي فقدت كل شيء • العمل • الناس • الفرحة • المدينة » •

ــ « حالة يأس قاتلة • »

ــ « هذه هي المصيبة • تفاؤلي الوحيد هو تصميمي على الذهاب وراء قضيتك حتى النهاية • »

ــ « لم أفهمك جيداً يا الحسين !! »

ــ « لقد صممت على القيام بتحقيق يتصل بكل تفاصيل حياتك ووفاتك • »

ــ « لكن المسألة ليست بسيطة بالصورة التي تبدو لك من أول وهلة • »

ــ « هه • هه • بدأت أتحقق من ذلك • »

وحكيت له في تلك الليلة عن كل الأشياء التي تؤلمني • فأنا منذ عشر سنوات أو أكثر وأنا أقوم بتحقيقات عن شهداء لا أعرفهم الا من الكتب ومن أفواه الناس ومن آلامهم • وأتصور أنه أصبح من حقي أن أمارس هذه الشرعية الممنوعة • اجراء تحقيق عنك وكل الملابسات الغامضة التي حاطت بوفاتك • استشهادك • قتلك • اني أتألم كثيرا بالمدينة • في عينيك حنين القرى البعيدة وحياء مريم • مريم مسكينة • قالت ذات يوم وهي تحترق على صدري يجب أن أحذر عينيك • اني أخشى أن اغوص في قلبك حتى التهلكة • لا أستطيع مقاومة حبك • يجب أن أحذر منك يا الحسين • أحبك وأخاف المدينة التي لا ترحم وعيون البشر المصوبة كالبنادق نحو كل الأشياء الجميلة •

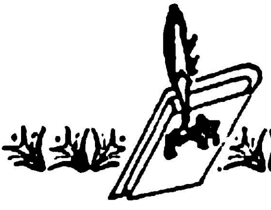
قلبي متعب يا المهدي وأخشى أن تفاجئني ذات مساء سكتة قلبية أو جلطة قاتلة في الدماغ •

حكيت له عن كل التفاصيل الدقيقة • عن أمي التي مسحت حرقة الدمع بؤبؤ عينيها • عن أخي الصغير الذي لا يعرف وجهه وفطم كالقط في سن مبكرة • عن عمي البوحفصي الذي التهم الموت ما تبقى من عظامه • عن طقوس البلدة التي لم تتغير منذ أن غادرها في ذلك الصباح الربيعي وكانت الغابات وقتها تحترق وتذوب خوفاً تحت دوي ووقع الأحذية الخشنة • عن •••

متعب حتى العظم يا ابن محمد •

كنت أتكلم بألم ظاهر ، بينما كان يستمع ، وفي الوقت نفسه ظل منهمكاً في تأمله للحجرة الضيقة المتسخة ، والسقف الذي انتفخ وأصبح يهدد يومياً بالانهيار على رؤوسنا • بيت آخر زمن والله • اذا ركض طفل صغير على سطحه تشعر كان القيامة ستدفن رأسك • مسح المطبخ بعينيه • قاعة النوم • الفراش الذي لم يغيره صاحب النزل منذ أن وضع يده قبل سنوات على خزينة والده المتفحم • تمتم بكلمات في غاية الدقة والأسف لم افهمها جيداً في أوانها لكني في الوقت نفسه تذكرت حمو • حمامة المدينة المذبوحة • شعرت بعينيه تستفزانني أوف !! ألم يوجد عمل آخر غير رب هذه الصحافة • كان يجب عليك أن تبقى في النار كالنخلة ولا تستقبل • التغيير من الداخل ولو في أصعب وأعقد الظروف • الهروب الى الأمام مذلة يا الحسين •

آه يا المهدي خويا كلماتك قاسية وعيونك



أقسى . الزمن تغير يا ابن أمي . اذا بقيت بالداخل ، لا شيء يتغير . الطاحونة ضخمة تلتهم كل من يقف في طريقها . أنا الذي سأتغير ونحو الأسوأ . انهم ، يا المهدي بن محمد ، يتعاملون مع الشهداء بخوف لا يحد وبذعر يطمس عيونهم . شارعك يا المهدي تباع فيه اللذة بأتفه الأثمان . نصبك التذكاري تربط فيه حمير الخضارين الجوالين . تصور بسببك طردت اليوم من العمل . كنت سأطرد بطريقة لينة . في لحظة ما ، شعرت بعينيه تحمران . فاضت الأشياء الدفينة في حلقه . حاول أن يصرخ بأعلى صوته . لكنه لم يستطع . وقف شعر رأسه كالضربان .

أولاد القحبة !! داروها بنا . ها قد وصلنا الزمن الذي كنا نخافه . دفنونا أحياء ثم عادوا يشربون نخب الشهداء . آه يا الحسين !! الدنيا تمشي بشكل معكوس . أنت عاطل عن العمل ، وأنا ممسوس في ما تبقى من شرفي .

« انهم يقلمون أظافركم بالتقسيط يا المهدي . »

أخرجت له من تحت الكرسي بعض القصاصات الصحفية . تأملها جميعاً . فجاة استقرت عيناه على واحدة (فندق « روزفلت » بالعاصمة . خمس نجوم . يرحب بكم من جديد . بطاقمه الأجنبي . كل مساء رقص مع فرقة « البوني ام » و « حوريات التاهيتي » ما عدا أيام الجمعة . ربطة العنق والهيئة الرفيعة والهندام المضبوط . أمور مطلوبة اجبارياً . تعالوا . وتذوقوا راحة فندق « روزفلت » ستجدون ما يسركم . « ... » .

فجاة وقف شعر رأسه . وانفرجت عيناه عن آخرهما . حين حاول أن يحرق القصاصة . كان نصفه السفلي قد تحول الى حجرة بركانية امتدت حتى التربة مثل جذور شجرة خروب يابسة . أعاد قراءة النص بصعوبة ، لكنه حين جرب أن يبكي لم يستطع .

– « كل شيء تبدل يا الحسين . لم تبق لنا الا السهرات في فندق روزفلت . »

– « أنت لم تر شيئاً يا المهدي . سلالتكم بدأت تنقرض . انها سلالة بني كلبون التي يعاد بعثها الآن . »

أغمض عينيه طويلا . مرة أخرى اختلت الابتسامة بين شفتيه وحل محلها وجه حديدي صارم أتعبه السير والأتربة وشقاء الهلع والذعر وشخير السيارات العسكرية التي تأتي محملة بالموت .

– « ممكن قهوة يا الحسين . رأسي يكاد ينفجر » .

ثم تهالك بعياء على الكرسي القديم . دارت الدنيا قاطبة في عينيه .

تمنى في لحظة ما ، لو لم يعد لو لم ازعجه . لو بقي جاهلا . نحن هكذا . بنية غريبه . نريد ان نعرف كل التفاصيل . وحين نعرفها وتحرقنا ، تبدا درجات الجنون ترتفع في ادمغتنا . حين جئته بالقهوة كان قد انكفا على راسه ونام على الطاولة القديمة . لم ارد ازعاجه لاني كنت اعرف مسبقاً أن بركاناً خامدا ، كان قد بدا يتحرك في راسه . بيننا الايام يا المهدي بن محمد وانت وعدتني بانك ستاتي حلما طلبتك . قلت مع ابتسامة قبل أن يحترق جمالها على جمر الكلمات والأخبار الاذاعية . سنلتقي ونجلس قليلا مثل الصحابة في خلوة ما . نتذكر الأيام التي مضت، وعيون الأطفال اليتامى وخضرة الغابات التي تفحمت والشهداء الذين سيلعنون قبورهم ويعودون . سنقوم باعداد الملف ، كل واحد من جهة . لدي الأخبار والتجربة ولديك العصر وخبرة الصحافة يا ابن المهدي وعيشة المنورة .

لم أعد أخاف من أي شيء فقد خسرت المدينة بكل جمالها وعيونها الواسعة . وغداً ربما ستاكل ساسافندا ما تبقى من رأسي الذي بدأت آلامه تقوص ظهري .

شعرت بالمهدي متعباً وبالدموع تستعصي في عينيه .

لست ادري هل كان نائماً بالفعل لكن الذي أستطيع التأكيد عليه هو أنه دفن وجهه على الطاولة بين ذراعيه .

أغلقت كل النوافذ المشرعة ثم توجهت الى الحمام . أدخلت أصبعي في فمي ثم تقيأت حتى شعرت بقلبي يخرج من عيني ومن فمي .

– « المدينة تستفز راحتكم يا المهدي . من عظامكم تبني فنادقها وتشرب صبحاً ومساء نخب من ذبحتهم من الرقبة . »

في الفراش انتابني رعب لم أستطع فهمه .

* * *

□ **أرشيف الغريف :**

الطريق على قصره متعب ·

ماذا اقول لكم بعد كل هذا ؟؟

هل أنا خطير لهذه الدرجة التي تدعو الى الذعر والخوف من شيء أحمله وراء عيني بنية الغموض؟ مريم كانت تقول دائماً بشيء من الخوف. أتعلم يا الحسين ؟؟ يحدث أحياناً أن أخاف على نفسي منك · وعليك مني · أنا أحمل في عمق أعماقي نزعة تدميرية قادرة على افساد كل الأشياء الجميلة · أخشى من عينيك أن تحرقاني · مقاومتي أمامهما تبطل · فاجدني من حيث لا أدري أهرب منك اليك · شيء ما في يصعب علي فهمه وهضمه · أحاول أن انزلق خفية من عينيك ، لكن فجأة أجد نفسي أحترق بين يديك كالفراشة · يا الله · قبح هذه الدنيا مميت وجمالها مؤلم ·

تصور يا الحسين أن جمال هذه الحالة يكمن في غموضها · في حالة تصوفها · تفاصيل عشناها لا اعرفها الا أنا وأنت · انها الزاوية السوداء التي تكمن في دماغ كل واحد منا · أحياناً اقول يجب أن لا أراك · أن أبعد عن قلبك · أن أودع هذه العيون التي تعذبني براءتها وطفولتها لكني بقدر ماأبتعد، أشعر بأني أقترب منك أكثر من أي زمن آخر · انها الحالة يا الحسين التي يستعصي فهمها ·

يا الله · هل العالم مركب الى هذا الحد الذي يدعو الى الخوف ؟؟

حتى بلقاسم يعاملني · من حيث يدري ولا يدري كرجل فر من عصابة وجاء يتخفى بين الأوراق الصفر لهذه الجريدة · رجل غيب الدهاء ملامح وجهه · أسماؤه كلها مستعارة وتوقيعاته وهمية · والمدينة · المدينة تضطهدني في صدقي وعنفوان طفولتي ·

بدا الطريق بين النزل والجريدة طويلا، طويلا كيوم القيامة · الناس الذين يلتهمون هواء هذه المدينة بعدد النجوم وجيوش الروم ·

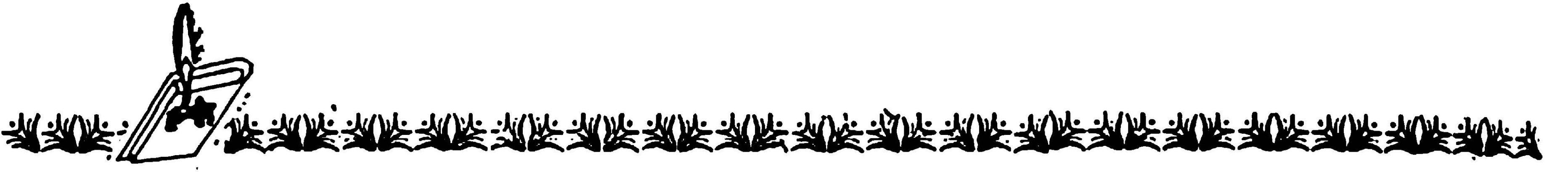
هه يا الحسين يا ابن المهدي بن محمد · هذه الذاكرة المتعبة التي تقتل يومياً بالتقسيط ليست لها حدود · الطفولة المهمومة تعود محمولة على جمر متقد وعلى أيام كلها متشابهة بملل · أمي · ماما عيشة المنورة التي أمضت أكثر من سنتين وهي تعد ملفك · لقد تعبت كثيراً يا المهدي خويا حتى كادت تترك القضية لرجال خيرين ربما سياتون بعد زمن غير محدد على الاطلاق ، أو لشهيد سيعود من قفر الغابات والوديان ليثبت بالأوراق والوقائع والأحداث أنك كنت شهيداً · أنك كنت صديقه الروح بالروح ، والدم بالدم · أي يا ماما عيشه · وآي يا المهدي لو تدري · انهم يشككون في صفة الشهيد فيك · تلك السيدة التي فقدت بؤبؤ عينيها عاشت غيابك بعمق الأنبياء وبصوفية الأولياء الصالحين · عاشت سنوات على ما تجلبه من صنع الصوف ومن «العشور» الذي كان يتصدق به أزواج خالاتي الأغنياء · وما آتي به أنا من التهريب · أنا الطفل الذي غادر « عين الخرج » ليتحول الى رجل في سن الأربعين · خرج الحلفاء ، والأسواق الشعبية أوضع في عين وفي العين الأخرى توضع صخرة بوزني أو أكياس الطحين وأسافر مع جدتي· الرأس محلوق عن آخره خوف أن يعشش فيه القمل، والأنف يجرحه المخاط الذي لا يتوقف سيلانه صيفاً وشتاء · لا ترى عيناي غير ما يمكن أن يؤخذ من الدكاكين الصغيرة ويهرب ·

« الحاجة بنت كلب » ·

كلمة جدتي المعتادة · فهي تبدو في حالات انزعاجها وكأنها لا تعرف غيرها · ورثنا من حرب الدمار بغلا ثقيل الدم ومع ذلك ، فقد كان ينفع أخي الذي اعتاد على تهريب الحبوب مع أول اطلالة للقمــر ·

لو تعلم يا المهدي ستقدس هذه السيدة · لا أتصور أنك كنت تفعل ما فعلت نحن الرجال مركبون بشكل سيء · وصلت مع عمي البوحفصي الله يرحمه الى أن تثبت للجميع أن لك قبراً في مكان ما في هذه الأرض الواسعة ووضعت لك شاهداً رخامياً كتبت عليه : هنا يرقد المرحوم الشهيد المهدي بن محمد زوج عيشه المنورة · تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه ، حتى الآن تحتفظ بقطعة الرخام وتنتظر اليوم الذي تلم فيه عظامك وترتبها عظماً عظماً وتبني لك قبراً في هذه البلاد ، لتضعها على رأسك ·

عمي البوحفصي من الناس القلائل · ومع ذلك لا تخلو منهم البلدة · خيره سابق · بين أن ندرس ونتعلم يا المهدي وبين أن نتحول الى مهربين محترفين كان يفصلنا شبر واحد فقط وربما أقل ·



أحياناً أقول ان لرب هذه المصادفة أدواراً عجيبة • وأحياناً أخرى أقول لولا وقفة عمي البوحفصي لكان كل شيء قد انهار • وها قد بدأنا نعيش تفاصيل الحياة بعمق أبناء الشهداء •

فقـراء درسـنا •
فقـراء كبـرنا •

وفقراء عشقنا • وها فقراء ما زلنا يا المهدي•

استشهادك يا المهدي جعلنا نستفيد في دراستنا من النظام الداخلي • ودخلنا المدن الكبيرة فلاحين أشقياء حتى العظم • كانت هناك صعوبة كبيرة في التلاؤم مع أجوائها المؤكسدة • في لحظات الحزن والحنين ، كنت يا المهدي خويا أفضل بقاءك بيننا على هذه الداخلية المجانية • أيام الآحاد كانت تأتي بسرعة غريبة • أتأمل وحيداً الآباء وهم يزورون أبناءهم ويسافرون مع بعضهم بعضاً • يلتقون • يتعانقون • كنت صغيراً بعيون ريفية • تعلو الابتسامات بينهم • وفي داخلي ينمو البركان الحارق وتنمو معه أشياء تشبه حرارتها ، حرارة الدم • في فترة الاستراحة يخرج من يخرج • ويدخل من يدخل وأعود منكسراً الى احدى القاعات المهملة وسط هذه الثانوية المخيفة • أحزن • أحياناً كنت أبكي وأتمنى من القلب أن تكون ههنا بيننا • حتى ماما عيشه المنورة لا تستطيع أن تأتيني مرة في كل أسبوع • فأضطر في أغلب الأوقات الى السفروحيداً في الحافلات القديمة التي علا الصدأ أطراف أبوابها • أتصارع في زحمة الناس للحصول على بطاقة سفر وأفكر في العودة وفي أمي وفي ثمن تذكرة الاياب • حين تبصقني الحافلة في البلدة أشعر فجاة بالصمت المخيف • تقبلني الوجوه البدوية التي تقضي كل أوقاتها عند مدرسة قديمة أو بقايا مدرسة • تراني أمي من بعيد يختلط جريها بتمايل تيجان القمح والشعير والحشائش العملاقة واشعة الشمس الربيعية • تقبلني على جبهتي • تشد على عصابتها بشكل جيد • تطرد الكلب الذي يحاول أن يدخل بين رجلي • كيفك يا وليدي • كيف ناس المدينة • قالوا البارح قتلوا واحداً • كما تشوف عايشين مثل جميع الخلائق • ناكل ونشرب نفرح أحياناً وأحياناً أخرى نحزن وربي كاين والمسكين ما يموت من الجوع •••

أمي أمضت وقتاً من النار في اعداد ملفك يا المهدي عليك أن تجلس عند أقدامها العمر كله وتتعبد لصوفيتها • لم يكن همها الدراهم ، على الرغم مما للدراهم من قيمة كما كانت تقول جدتي التي عاشت معنا العمر كله قبل أن يملأ تراب القبر فمها ويخرم الدود أسنانها الاصطناعية • قبل أن تموت ألحت علي أن تدفن معها مسبحتها وزنارها الحريري • تقول وهي خبر القائلين ، أنه لا يجوز على المرء مهما كان أن يلقى ربه بفم مخرم والبسة تعيسة • الملائكة تهرب من الأشياء المهدمة • هم ماما عيشه كان البحث عن طريقة مثلى لاعادة الاعتبار لك • لقد بدأت عظامك تضيع • الكثير من الذين عرفوك تنكروا لك يا المهدي • تنكروا لك ولأمي التي بكت الدم من عينيها • تجلس على حافة الوادي تغسل الأقمشة المتسخة وأغطية البورابح والكاشات والعصائر وتبكي ، حتى اذا لاحظ أحد حمرة عينيها عادت الى البيت وأخرجت مغزلها القديم وبدأت في لف الصوف المتراكم في زوايا البيت التنكي • رجلاها تحولتا الى قديد من جراء انتعال حذاء ميكا العتيق • تعبت في بحثها من دار الى دار لغزل الصوف ، ومن بلدية الى بلدية لتعيد لك اشعاع عينيك اللتين أغمضتا قبل الأوان •

الأنجم وحدها ، كما كانت تقول ، تعرف قسوة متاعبها •

الذين عرفوك مسحوا أيديهم من عرقك ودمك • كل واحد قال أنه لم يكن يعرفك أكثر من معرفته لحيطان هذه البلدة • والذين ذهبوا بعيداً في اعترافهم بجميلك قالوا ، أنهم رأوك تغادر البلدة ذات صباح بارد ، وتقبل أطفالك واحداً واحداً ثم غصت في قلب احدى الغابات ومن يومها غبت ولم يروك ولم يسمعوا أخبارك • قالوا أنهم قبل أن تأكلك الهضاب العليا وينام اسمك ودمك في صمت الوديان ، رأوك تلوح بكلتا يديك لأطفالك وللبلدة التي كان حبك لها يقودك نحو أقصى درجات الجنون • شهادة عمي البوحفصي وعمي البارودي كانت قوية • فقد أكلت حيطان السجون المشتركة من عظامكم معاً • أمي في لحظات انهيارها فكرت بترك كل شيء • كانت دائماً تقول يجب أن لا نكذب على الشهداء • فهؤلاء الناس في مصاف الأنبياء والخالدين • مال الدنيا ، مجموعاً في جرة من ذهب، لا يرجع وجهاً غالياً أتلفه الصمت • قبور الشهداء غطتها الأعشاب البرية الجافة ونحن ما زلنا نغني الأغاني التي لم يعد لها طعم يذكر • ونعيد على أسماع أطفالنا الأهازيج التي انطفأ بريقها •



« يا سيدي أقسم لكم بدم الشهداء أنه مات شريفاً . »

« لكن يا الحاجة .. »

« أقسم براس أولادك أنه ذهب ولم يعد »

« وهل لديك ما يثبت أنه استشهد ؟ . »

« يقولون أنه ... »

« هم يقولون ، ونحن نريد الأوراق الثبوتية »

« دمهم وعيون أطفالهم الفقراء أكبر من الأوراق . »

« عودي الأربعاء القادم . »

« منذ أكثر من سنة وأنتم تقولون لي مثل هذا الكلام . »

« يا الله يا الحاجة اسمحي لنا . »

وتخرج منكسرة لتعود يوم الأربعاء فتخرج مرة أخرى أكثر انكساراً وحزناً .

« اذهبي الى العاصمة . في كل مناسبة يقفون دقيقة صمت ويتفهمون الأوضاع غير العادية . »

« لا أعرفهم . »

« طيبون . قلت لك أنهم يحبون الشهداء . »

يقهقه عالياً بسخرية كبيرة . تجرني من يدي ونخرج .

في برية المدينة المقفرة . كان الذين ليسوا شهداء يتحولون الى شهداء . والشهداء يدخلون صمت الأشياء والتفاصيل التي بدأت تتكاثر في هذه البلاد ولا أحد يعلم ، حتى الله ، متى يتحول القايد الشعرة الذي طحنت رقبته ديدان السرطان . الى كبيرة شهداء البلدة .

في البلدية ما زالوا يخافون من المهدي بن محمد حتى بعد الاعتراف به . ظله يخيم على كافة أطراف البلدة وجحور المدينة المخيفة . هه يا الحسين !! هل انتهيت من كسر هذه الذاكرة . أوف . للصراحة أقول أني استفدت كثيراً من كل هذه التفاصيل لاعداد هذا الملف . في حوزتي الآن الكثير من وثائق المهدي بن محمد . المتعلقة بحياته بشكل عام . وثائق اشتراكاته الحزبية . أوراق حربية . عمله بفرنسا . أسماء مدراء المؤسسات التي أشتغل بها . بعض البيانات المتصلة بالاضرابات العمالية . قصاصات صحفية ووثائق نقابية ، اضافة الى بعض هواجسه وهمومه اليومية وانتماءاته الحزبية السرية ...

أمي كانت تخاف . أحرقت الكثير منها . لم نكن نعرف تقول أمي . أنه سيصبح ذات يوم لهذه الأوراق قيمة دم المهدي بن محمد . لحظة يأسها لعنت كل شيء ، حق الله . حتى أحجيات جدتي التي كانت تقدسها لأنها من أجمل ما ورثت عنها . ذات مساء بارد . عادت الى البيت بكت كثيراً ثم استغفرت الله قبل أن يأمر ملائكته بكتابة الخطيئة على جبهتها .

كانت ستحرق كل شيء ، ربما حتى البيت لولا عمي البوحفصي الذي جاءها وكان متعباً بيوم واحد قبل أن يغادر البلدة هو وأطفاله في ظروف غامضة ويعود بعد سنة الى أحراجه وتربته التي شربت صرحة ميلاده الأولى . ذهب معها . وقال كل شيء أمام رئيس البلدية . كان يحكي بنوع من الحسرة والألم والأسف . حتى عن أدق التفاصيل التي لم أعد أتذكرها ، ولكنها أذهلت عمال البلدية . في لحظة ما ، رأيت دمعة عتيقة تحول شيخوخة وجهه الأسمر الى بياض ناصع . كان نخلة ، شيخاً مملوءاً بالشموخ والكبرياء . يصر دائماً على البحث عن مهدي بن محمد قادر على قول الحقيقة أمام الجميع وبدون خوف . على مهدي يأتي من بعد سحيق بجناحين من نور يعصي القلوب التي يرعبها قول الحقيقة . هو الذي دفعني الى الاهتمام بكلام بعض المسؤولين . هناك من كان يحكي عنه في كل المناسبات الوطنية باحترام كبير . وبعضهم يذكره عرضياً كما يذكر معلم كسول قائمة تلاميذه في مدرسة مهجورة وبعيدة .

حين قدمت الاقتراح الى أحد الزملاء الرائعين بالبلدة ، رأيت في عينيه ، تستيقظ العصافير الميتة وذكرياته الدفينة عن الحرب .

« أجمل شيء تقوم به في حياتك » .

« صدقني أني مصمم وبمجرد عودتي الى المدينة سأطرح الموضوع على بلقاسم . »

« أجمل حالات الجنون أن تكتب عن المهدي يا الحسين . الكتابة عن الرجال صعبة لكنها ضرورية . كان في وجه هذا الزميل شيء من



الغموض لكنه كان شعلة من الوعي • غاب ذات يوم حتى قبل أن أنهي اجازتي • لم أره • كانت تلك كلماته الأخيرة • قيل لي فيما بعد أنه نام مرغماً تحت عجلات شاحنة عسكرية كانت تجري بسرعة البـرق •

لا شيء تغير في جهازي العصبي • ما زلت ههنا يا ابن أمي • وتصميمي ما يزال قائماً وكل يوم يزداد تأكدي أني في الطريق الأصح بكل مخاطره ومزالقـه •

- « المدينة فقدت صوابها يا عيسى • »

قالها أحد المارة لصديقه ، حين هممت بقطـع الطريق باتجاه مقر الجريدة وكنت ما أزال متناقض التفكير • في يدي أحمـل رأسي وكثـرة الأرقـام والكلمات التي ما يزال عمي البوحفصي والبارودي يحملانها في الصدر الـذي ضاقت مقاومتـه حتى تحول الى عاصفة •

كنت خائفاً من أن يوقفني عمي البوخاري عند باب الجريدة ولكنه لم يفعل • يبدو أنه حتى الآن لا يعلم شيئاً مما حدث لي • دخلت ، لم أحيّ أحداً على غير عادتي التي ألفها الجميع • كان المهـدي هو الشيء الوحيد الذي يملأ دماغي المرهق المتعب• عمي البوخاري ظلت عيناه تتأملاني بهـدوء • في رأسه تدور آلاف الأسـئلة المحـيرة والاستفسارات التي يتمنى من القلب أن يشفي بها فضوله • هو بدوره من بقايا هذه الثورة التي ارتأت أن تضعه بوابـاً •

المعلومات التي كنت أحملها في حقيبتي لم تكن خارقة ولكنها كانت كافية لفتح الطريق أمامـي • ربما بواسطتها استطعت أن أتوصل الى ما أعجز التوصل له في غيابها • لمحته من بعيد ، ميموني الافريقي كان في باحة الجريدة • هل المسؤول عـن الأرشيف • طيب القلب ، لكنه من الذين أفسدت المدينة طبائعهم • كنت أخشى أن يتمترس بجثته المخيفة في طريقي ولكنه لم يفعل • بل على العكس من ذلك • كان نبيلا • سألني :

- « واش يالسي الحسين • غيبـة طويلة • هـل تحتاج الى شيء ؟؟ »

- « مزيتـك كبـيرة لو تساعـدني على أرشـيف الخمسينات لعلي أجد شيئاً مهماً يستحق الدراسة • »

- « من صاحب الحظ هذه المرة !! »

- « أي شهيد ليس له قبر • »

الأرشيف أعرفه جيداً • استعملته كثيراً ومع ذلك فمساعدة الميموني أحياناً لا تعوض • حرفته التي أكلت كل شبابه •

كانت أكداس الجرائـد التي أمامي مخيفـة بكثرتها • تتضوع من ورقها الأصفر رائحة المصاحف والأخشاب العفنة والفئران التي دجنت وسط هذه المتاهات • طبعاً ، كانت لدي طريقتي الخاصـة في التعامل مع المسائل الأرشيفيـة وبأقصى سرعـة ممكنـة •

لم آكل شيئاً • رفضت حتى نصف الساندويش الذي قدمه لي الميموني • ومرّ اليوم بكامله بدون معلومات خارقة يمكن ذكرها ما عدا بعض التفاصيل العامة التي ربما احتجتها لاعطاء بعض التفسيرات عن الغموض الذي صاحب استشهاد المهدي بن محمد• تعبت • عيناي احمرتا من الأتربة الرقيقة • كنت في سباق مرهق مع اللحظات التي تموت ولا تعود •

وقبل أن أقوم وأطوي كل شـيء استوقفتني أشياء أوقفت شعر رأسي • راجعت التاريخ نفسه أو الأقرب منه في الجرائد الأخرى ، فكان أن تعمقت لحظة الفضول عنـدي • وعلى الرغـم من التعب والظلام الذي بدأ يلف أزقة المدينة الا أنني واصلت بحثي في تلك الأشياء التي أثارت غرابتي • سأقتطف لكم حرفياً ما كتبته تلك الجرائد •

لن أتصرف في أية كلمة • « الجريدة فرنسية• المانشيت الكبير ، سقوط ارهابي جديد • السنة ٠٠ ٠٠٠/٠٠٠/١٩٥٩ - استطاعت الشرطة الفرنسية ليلة أمس أن تضع حداً للارهابي الأحمر المدعـو المهدي بن محمد • أو السي عبد الكـريم • هـو وجماعته • لا أحد وجد جثته لكن يحتمل أن يكون ارهابيون من أصدقائه قد أخذوها • وفاته مؤكدة باعتراف جرائدهم السرية • (٠٠٠) »

بنفس التاريخ تقريبـاً التقطت هذا الخبـر الصغير من جريدة أخرى كانت معظم أعدادها موجودة في أرشيف الجريدة بمساعدة الميموني ، الذي كانت احدى عينيه الصغيرتين منهمكة في البحث عن الأخبار الصغيرة والعين الأخرى مثبتة على الساعة الجميلة التي أحملها في يدي • تجاهلت الأمر وعدت الـى قـراءة الخبـر •

« الجريدة فرنسية معارضة · المانشيت الكبير: الدم الضائع · السنة ٠٠٠/٠٠٠/١٩٥٩ ·

ـ الثورة بدأت تأكل بعضها بعضاً · سقط ظهر البارح الشهيد المهدي بن محمد في ظروف غامضة · وهو ثالث شخصية مسؤولة تسقط في ظرف شهر واحد · « ٠٠٠ » يبدو من نص الخبر أنه كان منقولا بدوره من احدى الجرائد السرية التي لم أعثر عليها · ولا على نسخة واحدة منها ·

في الجرائد العربية الرسمية لم أعثر الا على خبر مقتضب أثار دهشتي أكثر مما أفادني « وفاة شهيد الثورة المهدي بن محمد المدعو السي عبدالكريم وهو يؤدي واجبه الوطني في ساعة متأخرة من ليلة البارحة · انا لله وانا اليه لراجعون · » · الملاحظة الوحيدة التي يمكن تسجيلها هي أن قائمة الشهداء الطويلة كانت مسبوقة بالبسملة بخط رقعي جميل الا المربع الذي حشر فيه خبر وفاة المهدي · ولا ملاحظة واحدة أو تفسير معقول · حتى الخبر تعرفت عليه بصعوبة لأنه كان في زاوية مهملة داخل الجريدة وبحرف يكاد يختلط مع حروف المادة التي أخذت جزءاً من الصفحة · صحيح أن المسألة لم تقدمني كثيراً في بحثي ولم تكن خارقة بالشكل الذي يدفعني الى القول بأنها فتح كبير ، ولكنها مع ذلك من التفاصيل المهمة التي يمكن الاستفادة من خلفياتها الغامضة · الآن بدأت أعرف الى حد ما لماذا اسمه يخيم خوفاً على قلب المدينة · لماذا ارتجفت أمعاء بلقاسم ولماذا كان عمي البوحفصي من الذين بكوا المهدي حتى جفت العين · فوراء هذا الخوف شيئان مهمان جداً · اما فكرة مسبقة يدفع المهدي ثمنها حتى وهو في قبره · أو أن هناك خطأ قاتلا ارتكبه المهدي في تقييمه للثورة · مع اني حتى مع أعدائه ، لم أسمع عن شيء اسمه خيانة المهدي لحليب بلدته ولتربة وطنه · حتى الأخبار لا تشير الى ذلك ولو ضمناً لكنها تترك الباب مفتوحاً أمام كل التصورات · لو فكر المهدي بن محمد السي عبد الكريم ، فقط ، بأن يخون ، لكانت كتبت بالأحرف السوداء الكبيرة في أعلى الصفحة الأولى من الجريدة · المهدي اذن · وهذا هو الاحتمال الأكبر ، قد استشهد في ظرف غامض يحيط بالفترة كلها ، أكثر مما يحيط به هو كفرد ·

حين هممت بالخروج ربت الميموني على كتفي وعينه لم تغادر معصمي الأيسر والساعة ·

ـ « الله يعطيك الصحة يا السي الحسين · هكذا الصحفي والا لا · »

ـ « واجبنا يا الميموني · أضعف ما يمكن أن نقدمه لهؤلاء الناس الذين نحبهم · »

كانت عيناي تؤلمانني بشكل مريع ومتعب للدماغ· قلبي مشدود بفظاعة· نظرت الى الساعة· فكرت في شرب قهوة ساخنة في بوفيه الجريدة لكن البوفيه كان مغلقاً والوقت بدا متأخراً جداً· صورت كل ما يمكن تصويره · سجلت كل الملاحظات ثم خرجت أجر في جسدي جراً · كان وجه المهدي يملأ كل الشوارع التي قطعتها في وقت لست أدري هل طال أم قصر ·



قصة قصيرة

الأبواب الموصدة

محمد الصالح حرز الله

الوقت يمر رتيباً كمراسيم جنازة ٠٠ لا شيء الا الوقوف ، والصمت وانتظار ما سوف يكون ٠٠

حكم عليّ أن أبقى واقفاً ثلاث ساعات : الوقت لم يكن وقت حرب ٠٠ والساعات لم تكن ساعات حظر التجول ، والنهار اعتيادي كسائر الأيام ٠ أو على الأقل يبدو لنا كذلك ٠ وحقيقة الأمر أنه يختلف عن باقي الأيام ، اذ لا يمكن للحظة أن تكون كلحظة أخرى مرت أو كأخرى آتية ،ولكن رتابة الأموروسيرورتها تجعلنا نعتقدأنها متشابهة، وفي هذا الاعتقاد يكمن جوهر المشكلة ٠ وجوهر المشكلة كما سيتوضح فيما أحدس ، غير هذا تماماً وان كان ٠٠٠

– كم مضى من الوقت ٠
– لا أدري ٠

لم يمض من الساعة الرابعة سوى عشردقائق ٠٠ أربعون ما زالت على أفول الصبيحة ٠

يهاجمني الفزع خوف الأفول « تتسارع دقات قلبي » نظرت الى الجالسين ، كانوا نائمين جالسين، كان مرور الوقت لا يعنيهم شيئاً ٠

« حسناً ٠٠ علي أن أتلهى بشيء ما لقتل الروتين والانتظار والخوف » ٠

بدأت أزرع الغرفة جيئة وذهاباً ٠٠ طولا وعرضاً ، ثم بدأت أعد بلاطاتها المزركشة « صنعت بها أشكالا هندسية مختلفة » ٠ عندما أتعبتني الأشكال الجامدة المتحجرة ، رحت أتفحص الجالسين واحداً واحداً ، وواحدة واحدة ٠٠ كلّ منهمك في عالمه الخاص غير عابىء بنظراتي الفاحصة ٠من يراني على هذه الحالة يظنني مجرماً حكم عليه بالاعدام ، يتمتع بلحظاته الأخيرة ، ويودّع ماتقع عليه عيناه ، ولكن الواقع غير ذلك ٠٠ كان احساس غامض يراودني بأن ثمة شيئاً سيحدث ٠٠٠ شيء يدفعني الى فعل شيء ما بدل هذا السكون والركون والانتظار ٠

– مضت عشرون دقيقة ٠

ارتفع صوت أحد المنتظرين ٠٠ أرسلت تنهيدة عميقة ٠٠ نظرت الى الوجوه المنكبة ٠ بدأت ترتفع تباعاً ٠٠ تتعجب من مرور الوقت بهذه السرعة المذهلة ٠

« واحد وعشرون سنة مرت »

نظرت الى عقربي الساعة ٠٠ خيل لي انهما متوقفان ٠٠ قربت معصمي من أذني اليسرى ٠٠٠ سمعت دقاتها رتيبة ، ثم وضعت راحة يدي الأخرى على قلبي وبدأت أقارن بين الدقات ، لعبة جميلة اكتشفتها ، كالطفل الصغير تماماً بدأت التعامل مع عالمي الجديد ٠٠ بدا لي أنه من المستحيل ايقاف الزمن ٠٠ ايقاف الزمن معناه قتل الحياة ٠٠ وقتل الحياة معناه توقف نبضات القلوب ، وما دام قلبي نابضاً ، فالحياة مستقرة ، لكن ما الشيء الذي جعلني أعتقد أن عقربي الساعة متوقفان ٠

أعدت النظر الى الساعة من جديد :
« مرت واحدة على العشرين »



« لماذا أنا وحدي فقط أكرر النظر الى الساعة دون الجالسين »

« لأنه محكوم علي بالوقوف ومحظور علي الكلام »

« لماذا أنا وحدي ... »

« لأني غير منسجم مع الوقت »

« كيف اذن أنسجم مع الوقت ؟... »

« الانسجام مع الوقت معناه السقوط في اللعبة .. »

لن أسقط في اللعبة .. هم يريدون مني ذلك .. يقودونني الى هذا الموقف دون أن أشعر .. يخدعونني بشعارات براقة جميلة .. ويرغمونني على الجري وراء مشاكل تافهة حتى أنصرف عن التفكير في الجوهر .

لا ينبغي أن أستسلم .. بقائي هكذا متفرجاً، هروب من الحقيقة .. والا لماذا أحاول التلهي بشيء آخر : بعد البلاطات وأشياء الغرفة المزركشة مثلا .

أليس هذا هروباً من مواجهة الروتين والحالة السكونية والغثيان الذي يتسلل الى نفوسنا دون أن نحاول صده ؟. نقتنع به كأنه شيء مرحلي !

لا ينبغي أن أستسلم .. هم يحيكون الأمور في الخفاء ، وراء الأبواب الموصدة ، وأمام الملأ في بعض الأحيان . يريدون منا أن نظل جالسين هكذا .. ننتظر ما سيأتي دون أن نشاركهم فيما سيأتي أو فيما يمكن أن يحدث بل فيما يجب أن يحدث.

ان لم يكن هذا مايريدون ، فعلى الأقل لنقتنع، على أن ما يحدث ، هو تطور طبيعي للاشياء .

لا . لاينبغي أن يكون هذا هو المنحى الطبيعي للاشياء .. كل المؤشرات تدل على ذلك ، ونحن واقفون ننتظر انفراج الأزمة .

هل قلت أزمة ! ؟

ترى هل وصلت الأمور الى هذا الحد ؟. الى حد تسميتها بالأزمة !

فلتت مني الكلمة دون أن أشعر . ربماسبقت منحى الحركية .. قد تفضي هذه الحالة فعلا الى أزمة « .. يا للتعاسة » تلك هي المشكلة .. وتلك قمة المأساة .

واصلت المشي جيئة وذهابا .. أفكر في جبني وانتظاري وسكوني .

« آه . السكون خيانة .. والانتظار خيانة.. ومرور الوقت هباء خيانة .. كل شيء يوحي بالخيانة » .

نظرت الى الجالسين ، كانوا صامتين متكلمين. يبدو الانزعاج على محياهم .. عيونهم تمسح بين الآونة والأخرى الأبواب الموصدة ، ثم تعود من جديد الى الانكباب .

ـ كأن هذه الأبواب وضعت لتظل موصدة .

قال أحد الجالسين هامساً . ثم أضاف آخر بصوت منخفض :

ـ يجب أن تقلع من جذورها .

غمرني سرور عظيم بمجرد سماعي لهذا الحوار القصير « لا أدري لماذا ؟ تمنيت في قرارة نفسي أن يستمر ليشمل كل الحاضرين المنتظرين» يجيبني الصوت من الأعماق :

« لماذا لا تبادر أنت بالحوار .. أنت جبان . لا تقوى على البدء ، تعشق التنظير ، وتود أن يسبقك غيرك الى التطبيق .. تعاطفك مع المحرومين والمقهورين لا يكفي .. يجب أن تقرن أفكارك بتصرفاتك .

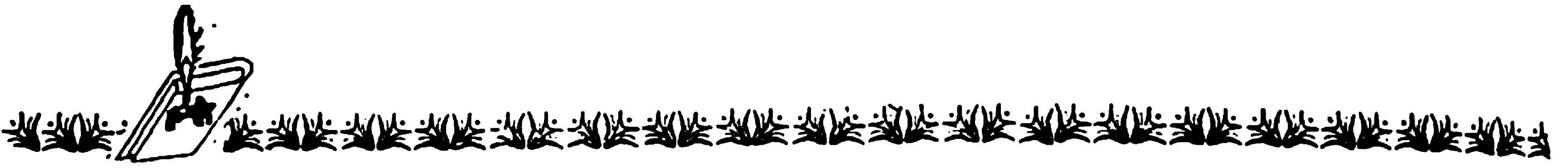
انتابني شعور بالخجل .. أحسست باحمرار يكسو وجهي .. نظرت الى الجالسين ، علهم لاحظوا شيئاً مما تملكني .. كانوا منهمكين في عوالمهم الخاصة .. تنفست الصعداء .

« ايه .. الأمور تغيرت كثيراً » صارت الى أسوأ .. والانسان صار أكثر جبناً ان لم نقل أنانياً سلبياً ، لا يشارك في صنع الأمور .. ترى ماالداعي الى ذلك ! ؟

أهو اللهاث وراء المادة بعد الحرمان الطويل؟ بعد سنوات الجمر المليئة بالاستبداد والاستدمار والجوع والتشريد .. لقد كان وقتها يقرن القول بالفعل ، ضارباً وراءه كل أنواع اللذات من أجل تحقيق الذات وتأكيدها تراه بعد هذا الاحتمال الطويل يستسلم لحلاوة زائفة ؟

آه .. انها التعمية والشعارات الزائفة والهجومات الخفية ، تفعل فعلها ، وتجعله مستسلماً لما سوف يحدث وما سيكون . عاجزاً عن اتخاذ الموقف والقرار ..

ـ أوف .. لقد ضاع الوقت .



ـ خليها على الله •

« تباً لكم » لقد قطعتم علي نشوة البحث عن الخلل « تتحاورون في غير موضع الحوار ،وتذكرون الله في غير موضعه » •

توقفت عن المشي •• نظرت الى المتحاورين• هممت بالتحدث اليهما ، ومواصلة الحوار ، ثم عدلت عن ذلك •• شعرت أن اللحظة غير مواتية•• عليّ أن أتصيد اللحظة التي من خلالها أسيطرعلى الحوار وأوجهه الوجهة التي أريد • لقد ضقتذرعاً بالصمت والانتظار ••

استدرت ورحت أتأمل الغرفة جيداً •• بدت لي رغم الديكور الذي حرص أهلوه على أن يظهر معاصراً ومتناسقاً انها في حاجة الى أشياء كثيرة جداً بل الى تغيير ، فأشياء الديكور غير ملائمة لشكل الغرفة •• تبدو دخيلة عليها فضلا عن أنها لا تحدث أي تجاوب •

آه •• انها البهرجة والزيف مرة أخرى •• لماذا نجري وراء البريق !

بريق طلاء الجدران يبعث على القرف ، مثل قرف الانتظار تماماً •

ترى هل يشاركني الجالسون نفس الشعور : الشعور بالقرف من الانتظار والخوف وبريق الطلاء، وأشياء الديكور والصمت والبهرجة والشعارات الزائفة ••• وما يجري وراء الأبواب الموصدة •

نظرت الى الأبواب • ما زالت موصدة •• حاولت أن أتخيل ما يحدث وراءها :

« ترى هل هم أيضاً ينتظرون شيئاً ما » ؟

لا أعتقد • هم مشغولون بأشياء لا تعنيني وان كانت تهمني ، واذا كانوا ينتظرون شيئاً ما ، فقطعاً ليس الشيء الذي ننتظره نحن الجالسين •

لا بد من اثارتهم لاكتشاف خفايا الأمور •• ولكن كيف ؟

علي أولا ، استمالة الحاضرين ، ولفت نظرهم الى واقع الغرفة المزيف، ثم حثهم على تغيير الديكور المصطنع المنفرّ •• فاذا لم نلق استجابة من الطرف الآخر ، نلجأ الى كسر الأبواب الموصدة •

« فكرة رائعة •• كيف اهتديت اليها ••• جميل أن تفكر مثل هذا التفكير • لقد وضعت يدك على الجرح ، على موطن الداء •• هذه خطوة هامة تقودك لا محالة الى الطريق الصحيح •

نظرت الى الساعة •

ـ ما زالت الواحدة بعد العشرين •

عجيب كيف مر كل هذا الوقت دون أن نشعر بمروره ، دون أن نشعر بديكور الغرفة الذي كان يتغير شيئاً فشيئاً الى أن صار على هذا الشكل •

كيف مر كل هذا الوقت دون أن نشعر بمرارة الانتظار والصمت !

هل كنا نعيش حالة من الانبهار ؟

« آه •• تنازلنا عن الأشياء الصغيرة ،يجعلنا حتماً نتنازل عن الأشياء الكبيرة ، وهذا أحد الأمور الذي جعلنا لا نولي أهمية لما يجري أمامنا سراً وعلانية » •

وتحاولون الصعود ••

تتاجرون بنا في المزاد العلني ، ونحن سكوت ننتظر •

وتستمرون في الصعود على أجسادنا التي أنهكتها المضاربات •

وتحيكون منها أحلامكم الوردية التي تمارسونها بشتى الأشكال •

تستمرون في الصعود ، وفي ••
ونحن ننتظر الانفراج •

الى متى تظلون تتسترون بالمداراة والتدجيل، وتكتبون أسماءكم بالبنط العريض في الصحف والجرائد الملونة لتظهروا على غير حقيقتكم •

انا على حافة الانفجار ، ولن يدوم انتظارنا طويلا •• همهمة خفيفة بدأت تنطلق من القاعة• أعادتني من الشرود الى واقع الانتظار • نظرت حوالي • كان الحاضرون بعضهم يتهامسون مثنى مثنى وثلاث والبعض الآخر موجود جسداً ،ثم بدأت ترفع الهمهمة ، صارت جلبة صغيرة جعلتني أنسى مرارة الانتظار •

ـ ما بك ؟
ـ عيناي تؤلماني
ـ الحك يزيدهما ألماً



خفتت الجلبة قليلا لتفسح المجال للحوار ..
تدخلت دون أن يوجه لي الكلام .

– أتعرف مصدر الألم ؟
– لا
– أعتقد أن مصدره الطلاء .
– الطلاء ؟
– نعم طلاء الغرفة . ألا تراه غير مناسب لشكلها .
– فعلا .
– أنا أيضاً بدأت أشعر بنوع من الألم . وكنت الساعة أبحث عن مصدره .
– قد يتطور هذا الألم ، ويودي بنا .
– فعلا
– ما العمل ؟
– لا يوجد الا وسيلة واحدة
– ما هي ؟
– اعادة الأمور الى مجراها .
– ماذا تعني ؟
– القضاء على البريق الزائف .

ارتفعت الأصوات من كل جهة باحثة عن البديل ..

– الديكور
– قليلا من التريث حتى نتبين الجوهر .
– الديكور يا جماعة .
– ما به ؟
– لقد حدث به تغير كبير .. لم يكن هكذا من قبل . صمت الجميع .. راحوا يتأملون جيداً أشياء الغرفة .. اقتربت من أحد الأبواب الموصدة .. سمعت حواراً هامساً حاولت التقاطه ، وان كنت مسبقاً أتحسس ما يجري في الخفاء .

– ما العمل ؟
– لقد وقع ما لم يكن في الحسبان .
– يجب تهدئة الأمور .
– كيف ؟
– ذاك هو السؤال .
– فلنبحث عن وسيلة .
– لقد كنا مشغولين بأنفسنا فقط .
– مـاذا ؟
– .....
– أهذا نقد ذاتي ؟
– ولم لا ؟
– ام .. أقترح أن تسبر الأغوار ، لنتمكن من ايجاد وسيلة لتهدئة الأمور .
– نحن موافقون .

اقتربت أكثر من الباب ، لأتمكن من ملاحظة حركاتهم . لم أتبين سوى أجساد تروح وتجيء .

« يبدو أنهم قلقون .. شيء رائع .. يجب أن نواصل الخطة ، ولا نتراجع »

ثم انطلقت مني صيحة .

– فلنواصل الحوار ، قد قربت لحظة المجابهة .
انطلقت الهمهمات داخل القاعة :
– ماذا يحدث خلف الأبواب .؟
– مشاورات ومناقشات .
– لا تهمنا المناقشات .
– ما يهمنا هو قتل الانتظار .
– والروتين .
– وتغيير الديكور المزيف .

ارتفعت الأصوات من كل ناحية .. نشطت حركة الأرجل والأيدي خلف الأبواب الموصدة .. خطوات تقترب من الباب .. تراجعت قليلا الى الوراء .. فتح الباب .. تعالى صراخ المنتظرين أكثر .

– الرجاء منكم الهدوء .
– لا سكوت بعد اليوم .
– لا انتظار بعد اليوم .
– معكم حق .. فلنتفاهم .

يعلو صوت المنتظرين .. يتحول الى هدير .. يباشرون في اسقاط أشياء الديكور ، وفي ذات اللحظة تسمع أصوات مبحوحة ، تحاول عبثاً اسكات الهدير .

نظرت الى الساعة .. كانت عقاربها قد شرعت في الحركة .

ديسمبر (كانون الأول) ١٩٨٣
جانفي (كانون الثاني) ١٩٨٤



قصة

القلق

موسى بن جدو

هل القلق ـ هذا القلق اللعين ـ أشد رهبة من الموت ؟ ••• هل تكون الحياة نفسها موتاً من أخس الميتات ؟ ••

ـ يا موتاً كنت أحبه أخشاه ، أستعذب خشيته ،،،

ـ هل جاد أنت في استعذاب الموت ؟ ـ •• لم كنت تخاف اذن ، ترتجف عند بداية كل معركة ؟ ••

ـ ما أعذب رعشة تسبق الموت ، تشدك الى بندقية ، تواجه بها عدواً تراه •• هل أجزم الآن بأن « رابح » خير مني ؟ هراء ••• رابح مات ، وأنا حي •• حي ••• الحياة •• هل القلق أشد ميتة من الموت ؟ ••

* * *

انقلب في فراشه وشد الغطاء على رأسه بقوة ، ثم ما لبث أن رماه بقوة أرضاً وقد تأكد من أن نوبة قلق أخرى تعاوده • تتنفس زوجته الى جانبه بانتظام :•• تسبح محتويات غرفة النوم الفاخرة في ضوء داكن ، خشب عالي الجودة ، منقوش ، مستورد ، تلفزة فيلبس ملونة، فيديو كاسيت ، ستائر من حرير صينية ، المذياع فقط كان من الصنع الجزائري ، هذا المذياع اللعين ربما كان مصدرقلقه، كنا نجتمع حوله يشدنا بقوة : صوت الجزائر الحرة ، صوت العرب ، صوت الجماهير•••وطن واحد كبير كنا نعيشه بعمق « من جبالنا » •

قبل كل معركة نخوضها ـ بعد أن نؤدي الشهادةغالباً ـ يكونآخرشيءنفكر فيه هو العمر • ما قيمة العمر فيالجبل؟؟ (رابح) لم يكن يخاف الموت ولكنه مع هذا كان يتمنى أعماراً :

ـ آه •• يا أحمد يا (خويا) لو كان ربي يعطيني (أعمار) ،، كل عمر في (مدينة) ، الأول في مكة والثاني في المدينة ، والثالث في القدس كالنبي والرابع في وهران والخامس في حماه وال ••• ودوت قنبلة في عنف ••• الله يرحمك يا رابح ••• رابح خير مني •• لا ••• أنا، أنا حي،، حي،، الحياة ؟ هل القلق اللعين أشد رهبة من الموت ؟

فتح عينيه بقوة وهو يقوم من فراشه وتعمد أن يطرد وساوسه بصوت مسموع: « لا .. أنا فعلا مريض ، كان يجب أن أعود فأرى الطبيب » .

في الحمام أشعل ضوءاً أبيض ناصع البياض ... بسرعة امتدت يده لتقضي على هذا البياض الرهيب ، ابتلع على مضض قرصاً شديد المرارة شعر به يسد حلقه ويبعث في نفسه رغبة قوية على القيء ... القر والحر ،، الموت والخطر والصحة في الجبل ، يموت الانسان في الجبل وهو واقف . وهو يجري ، و « هنا » الراحة و « الهنا » ، .. الطبيب والدواء وتموت كل يوم عشرين مرة في (فراشك) .. آه .. يا (رابح) يا (خويا) ،، يشد على رأسه بكلتا يديه ويهوي على حوض الغسيل .

* * *

في الصباح تأخر السائق ، صحب أبناءه بنفسه الى المدرسة . في ساحتها خفف عنه ضجيج الأطفال حدة القلق ؛ بنفسه عاد الى أبنائه في المدرسة ، ضجيج أطفالها يذهب القلق .

– أبي : معلمنا ، قال أنه يعرفك ، عاش معك سنين في الجبل .

– . . . . .

– أبي ، هل حقاً كنت تحمل بندقية ؟

– . . . . .

– أبي ماذا لو نزور الجبل ؟

– . . . . .

– هل بعيد هو الجبل ؟ بعيد ، يا أبي ؟

– . . . . .

تمتد يده لتشغل المذياع ،، يسكت الطفل ... « تواصل قوات العدو الاسرائيلي ، حصار بيروت ، تتصدى لها القوات العربية المشتركة ... يتأجل مرة أخرى موعد انعقاد مؤتمر القمة العربي لعدم ... » بقوة يخرس المذياع .

* * *

في البيت تلاحظ زوجته امتعاضه ، تسرع له بأقراص الدواء ، يشيح عنها ، مرة ، لا شفاء بها ، لا يعقبها الا القيء يخرج الى حديقة البيت، شجرة الصنوبر في مكانها من الحديقة ، تزداد كل يوم كبراً ، يخيفه كبرها ؛؛ لها ألف ذراع ولسان منه ، يسمع « صوت العرب » ، خلفها يبصر رابح ،،، عجباً رابح لم يمت اذن ! ،، يسارع فيخرج الى الشارع ، الوقت ظهراً « انه أكيد » من صوت رابح ماذا اذن ؟ رابح لم يمت ! الأشجار في الشارع ، كل الأشجار ، أشجار صنوبر، نخل ، تين ، برتقال لها لسان واحد وألف ألف ذراع ،، ماذا هل جاء الجبل ؟ هل ترحل الجبال الى المدن ؟ ... وناس .. ناس كثيرون ، صحابة ، شهداء ، من غزوة بدر ، من أوراس من بيروت من رمضان من كل شبر في الوطن ... شهادة يرددها معهم ... بندقية يحملها مثلهم ، يستعذب الآن رعشة الموت ؛؛؛ يتمنى أن يعطيه الله أعماراً ليسكن بها كل المدن ... يرحل الى بيروت الى القدس ..

موسى بن جدو

الجزائر في ١٩٨٣/٢/١

الاقتلاع

مصطفى نطور

وقف محيمدة أمام الكوخ القصديري المتشبث بحافة وادي الرمال ينظر الى الجهة المقابلة نظرات تفصح عن أعماق مثقلة بالذهول والأحزان، ثم التفت الى النسوة الجالسات يتحدثن عن الموت والأموات ، وراحة الراحلين عن هذه الدنيا الفانية، ويصرخن ، مـن حين لآخر ، في وجوه الأطفـال الذين عكروا وجدان الجلسة بضجيجهم ، وجريانهم ، وارتطام أقدامهم بالعلب الفارغة ، والقاذورات :

« – بوه بوه ، من غطس رأسه استراح

– الهم ، يا أختي ، تهزه أكتاف الحي

– استغفري ربك ، الروح فضلت الحياة ولو تحت حافر دابة

– هذا الطفل ، يا أختي ، جن الجنون

– لو كانت أرواحنا تحت حافر واحـد لحمدنا الله ·

– عيشة كلاب

– يا سعدنا لو كانت عيشتنا مثل عيشـة كلابهم ·

– بالك ، يا علي ، أخوك صغير ···· »

قطب جبينه ، وقال في سريته :

– من يراهن يتحدثن هكذا لا يصدق انهن، من قبل، كن يصرخن كذئبات فقدن صغارهن!

أحس بالاكتئاب الثقيل اللزج يتضخـم في أعماقه ويتشابك كاسلاك شائكة ، اتكأعلى الخشبة الخارجة مـن تحت سقف الكـوخ ، وأغمض عينيه تاركاً فجيعة موت أمه هـذا الصباح تكتسح رقعة التفكير وحدها ، لكن صداع رأسه لم يوفر له الصفاء ، فضغطعلى جبهته براحة يده اليمنى وترك نظراتهتنساب نحو الضفة الأخرى حتى تستقر علىالبنايات الجديدة المتربعة على الربوة كتحف جميلة ، عض على شفته السفلى ، وتمتم :

– لماذا ···

أخرسه صوت أحد المعزين ، التفت ، فوجد الحاج المرزوق واقفاً قدام الكوخ ،شرع عينيه وفتح فمه مـن هول المفاجاة ، زلزلت تماسكه رعشة ساخنة ، قفز الى ذاكرته ذلك اليوم الذي كان فيه عائداً من الثانوية رفقة زميلته بهيجة وهما يتحدثان عن الدراسة ، وأحلام المستقبل السعيد ، استرجع ،كمادته، مرض أمـه وعسر الأيام ، فراح يزفر جملا يائسة ، ويلعـن القـدر والأحوال ، أصرت بهيجة على عدم تحويل حديثهمـا نحو دروب التشاؤم بقولها :



ـ رأيت المسلسل التلفزيوني ،البطلة أحبت زميلها الفقيررغم اغراءات جارها الغني٠ فجأة ، توقفت سيارة « هوندا » ، نزل منها رجل ثخين يرتدي برنسأ أبيض وعمامة صفراء ، جذب بهيجة من ذراعها ، وقال بنبرة غليظة قاسية :

ـ سي محيمدة !

ـ اسمي محمد وأهل الحي فقط ينادونني هكذا ٠

ـ أعرف كل شيء ، ما نقصنا غير هذا! اسمع يا محمد أو محيمدة ، المثل يقول: خالط ندك والبس قدك وامش في طريق والدك وجدك، وأنا أقول لك : أبناء الحاج المرزوق لايخالطون الا أندادهم ٠ اعتن بدروسك لعلك تنجح وتخرج أمك من زبالة « دلاس » ٠

طاطا راسه وسار تحت عنف دوار ورعشة تشبه الرعشة التي زلزلته وأذناه تلتقط الصوت ، فكر في طرده من الحارة بنفس القساوة التي قابله بها ذلك اليوم ، لكن تساؤل الحاج المرزوق قطع خواطره :

ـ أين « الطلبة » يا ابني ؟
ـ لم يحضروا
ـ كيف ؟ موت بلا قرآن !
ـ لم نتفق على المبلغ
ـ كلام الله لا يقدر بثمن

(ومتى كان كلام الله يقرأ بالدراهم) أراد أن يقذفه بهاته الجملة ، لكنه تماسك ، وقال لنفسه :

ـ الرجل ضيف ٠ جاء ليعزيني ، وهذا وحده كاف لدفن أحداث الماضي ، فلو كانت تحبني فعلا لقامت بأي شيء ، أو لبرهنت لي على الأقل ٠ تفضل سي الحاج ، هات كرسيا يا ولد ٠

أضاف سي الى الحاج حتى يظهر له بياض قلبه ، وليشعر أهل الحي أن موت أمه لايخص سكان «دلاس» وحدهم ، وكان الحاج المرزوق فهم قصده ، فأسقط حالة التردد، وقال :

ـ سيارات الموكب لا تستطيع الدخول الى هنا ، من الأحسن أن ننقل المرحومة الى مكان آخر ، لا أسمح بخروجها الا في موكب ٠

ـ مكان آخر ؟ !

ـ شوف ، يا محمد ، يا ابني ، ربما تصورت أن ضميري ميت ، هذا من حقك ، ولو كنت مكانك لفكرت مثلك ، وحتى أريح ضميري ، قررت أن أكون في منزلة أبيك رحمه الله ، وأن أتكلف بدفن المرحومة ٠ اعتبرني والدك منذ الآن ٠

كان محيمدة يستمع الى الحاج المرزوق ويمسح خده براحة يده ليتأكد أنه في يقظة، أحس بمدى قساوة الأحكام التي شكلها من قبل ، فلم يعد يدري كيف يعبر له عن عواطفه الجديدة ، لقد كان يظن انه يستطيع أن يبلغ علو السماء ولا يمكن أن يسمع هذا الكلام من فم الحاج المرزوق ٠

ـ ندفن المرحومة اليوم أم نتركها لغد؟

ـ ندفنها بدون عشاء ؟ ! هل ارتفع الخير عن هذه الدنيا !

رد الحاج المرزوق على سؤال الشيخ الزردي وهو يتفادى الدخول في نقاش مع أي أحد من سكان الحي ، رد الشيخ الزردي بجفاف :

ـ سالت ابنها فقط ليمهل سكان الحي حسابهم ٠

ثم انحدر مع الممر الضيق نحو كوخه وهو يخرج نظارته من جيب صدريته ويضعها على عينيه حتى يتجنب الأوحال والأوساخ ، تبعه بعض النساء والرجال وهم يتبادلون استفسارات عن الرجل الغريب :

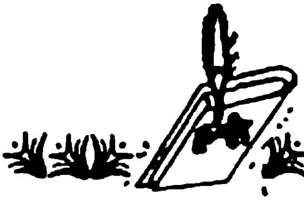
« ـ ربما يكون أحد أقاربهم

ـ لم تتحدث المرحومة عن هذا طوال حياتها

ـ على كل حال لا يصلك الا من قلبه معك

ـ الرجل عنده الرزق

ـ عنده الرزق ويقصد دار الموت بيديه في جيبه ! »



لم يبق أمام الكوخ سوى بعض العجائز اللواتي فقدن القدرة على اشغال البيت ، ارتاح الحاج المرزوق لهذا ، ربت على كتف محيمدة، وقال بنبرة لاتترك مجالاللاعتراض:

ـ ساحضر السيارات

واستدار صاعداً نحو الطريق الرئيسي اين أوقف سيارته ، بقي محيمدة متسمراً في مكانه يمزقه ذهول ، ويملأه اعجاب ، قرر أن يقوم بعمل ما ، دخل الى الكوخ ، وقف أمام جثة أمه طويلا ، ثم فتح صندوقاً عتيقاً ، وأخرج منه أوراقاً ، طواها ووضعها في جيبه وهو يوصي احدى العجائز :

ـ عينك على المكان لاله الزغدة

ـ خير يا ابني ؟

ـ سأحضر شهادة الوفاة ورخصة الدفن

قالها باعتزاز وخرج صاعداً علىالدرب المؤدي الى المدينة وهو يحاول أن يمحو صدى الأسئلة المترددة في نفسه عن قدوم الحاج المرزوق المفاجيء ، واهتمامه بموت أمه ، وجدار الكراهية الذي انتصب بينه وبين السكان دون ما سبب ، وعن نقل جثة أمه الى مكان آخر ، وعن الأقاويل والشائعاتالتي ستنتشر في الحي ؟

توقف أمام دار البلدية ، أخذت أنفاسه تتسارع وقلبه يدق دقات ثقيلة كعادته كلما قصد احدى الادارات ، أدخل يده في جيب سرواله ، وقبض على ذكره حتى لا يفضحه سيلان البول ، الضاغط بحرقة لا تقاوم ، جرى الى منعطف الشارع ، وراح يبول ودموع غزار تسيل على خديه ، أغلق أزرار سرواله، ورجع ، دخل بخطوات مسرعة ، توقف أمام بابالمكتب ، ضغطعلى شفته السفلىبأسنانه، وطرق الباب • جاءه صوت صارم من وراء الباب :

ـ ادخل

دفع الباب بيد مرتعشة ، ودخل :

ـ مساء الخير

ـ ارفع صوتك ، لم نسمع شيئاً

ـ مكتب تسجيل الوفيات ؟

ـ أحضرت شهادة السكن ؟

شهادة السكن ! ، شهادة السكن ! ،ردد الجملة بنبرة ضائعة تنبض بانهزام وخوف

ـ لم تسمع كلامي ؟

ـ سأحضرها

تمتم بصوت غائم وخرج يجر جسده ، توقف أمام الباب مستجيباً لزحف التفاصيل المستيقظة من أعماق الذاكرة كنمل أسود شعر بالخطر ، اتضح الشريط ، وانطلق من تلك الأيام التي قضاها جارياً وراء شهادة السكن •

« في منتصف السنة الدراسية هد المرض جسد أمه ، فلم تعد قادرة على القيامبأعمال المساكن الواسعة، قرر أن يعمل رغممعارضتها الشديدة والحاحها على مواصلة تعليمه ، قرأ الاعلان في الجريدة ، اتصل بالمصلحة ،فقبلوه كاتباً بعدما وضعوا أمامه قائمة بأسماءأوراق الملف ، انقطع لها أسبوعاً ، حضر كل الأوراق ما عدا شهادة السكن ، قابل رئيس المجلس الشعبي البلدي ، أوضح له بتوسل : انهيسكن بحي «دلاس» كما يسمي الأهالي الأكواخ النابتة على حافة الوادي ، ولا يستطيعتقديم وصل الكراء والكهرباء لانعدامهما في الحي، أصررئيس المجلس الشعبيالبلدي علىقانونية الأوراق التي تستخرج من مكاتب بلديته ، توسل ، قص حكاية الشهادة المستحيلة على الكثير من الناس ، دله بعضهم على سمسار يبيعها بمائتي دينار ، حاول أن يجمع المبلغ لكنه لم يجد من يسلفه ، في النهاية تطوع أحد زملاء الدراسة وقدمه الى أبيه ، قص عليه الحكاية ، فرق قلبه وامضى له شهادة ايواء•»

تابع الحوادث الراشحة منطبقات الروح المكمودة، خطرت له فكرة ، فرجع الى المكتب، طرق الباب ودخل بخطوات متزنة ، وضع ورقة بمائة دينار على المكتب ومكث صامتاً يترقب النتيجة ، التفت الموظف يمنةويسرة، ثم سحب الورقة بروؤس أصابعه الى درج المكتب ، وأخرج ورقة :



ـ الاسم واللقب ؟
ـ فاطمة بو شعيرة
ـ السن ؟
ـ ستون سنة تقريباً
ـ مكان السكن ؟
ـ حي دلاس
ـ تسخر مني ؟

ـ لا ، هكذا نسمي الأكواخ الواقعة قرب الوادي تندراً ·

ـ لا بأس ، لكنني لا أستطيع كتابة هذا الحي لخلوه من الكهرباء والكراء ، أين أسجل مسكن المرحومة في ··· في الرياض مثلا ، لا هيئتك لا تتناسب معه ، آ ، في حي فضيلة سعدان · انسب ·
ـ كما تريد ·

قالها بصوت بارد طالع من عمق الوجع وهو يتابع حركة يد الموظف ، والسخرية المبثوثة في بسمته ، لم يعد يهمه سوى الحصول على الورقة وتجنب عيون السماسرة حتى لا يخبروا الموظف الآخر بحقيقته ، تسلم الورقة طواها بعناية ، ودسها في جيبه ،وخرج قاصداً المكتب الثاني ، وقف أمام الباب ، تأكد من أن أحداً لم ينتبه اليه ، دخل ،أخرج الورقة ووضعها على المكتب ، رفع الموظف الورقة قبالة عينيه وراح يفحصها حرفاحرفا، ركز نظرته على وجه محيمدة ، وسأل بنبرة واخزة :
ـ أين تسكن المرحومة ؟
ـ بحي فضيلة سعدان ، كما هو مسجل ·
ـ اسمها ولقبها ؟
ـ فاطمة بوشعيرة
ـ السن ؟
ـ ستون سنة تقريباً
ـ هالكة أم متوفية ؟
ـ نعم ؟ !

نبش الموظف لحيته الكثيفة برؤوس أصابعه ، وقال بلهجة متأففة :
ـ اذا كانت تؤدي فريضة الصلاة نسميها : متوفية ، ألست مسلماً ؟
ـ لقد كانت تصلي ·
ـ تاريخ الوفاة ؟
ـ هذا الصباح
ـ تحتاج الى رخصة الدفن ؟
ـ نعم ·

أخرج الموظف ورقة من درج مكتبه وراح يكتب ويقرأ بصوت يبدي استفزازاً :يسمح بدفن السيدة فاطمة بو شعيرة في مقبرة مرزوق المتاخمة لحي فضيلة سعدان ···

ـ لا ، لا
ـ ماذا ؟
ـ سندفنها في مقبرة جبل الوحش

ابتسم الموظف ابتسامة ذات معنى ، ومرر القلم على شفتيه ، وقال :

ـ أليست مقبرة مرزوق أقرب الى حيكم ؟
ـ جدنا أوصى بدفن أبنائه في مقبرة جبل الوحش ·

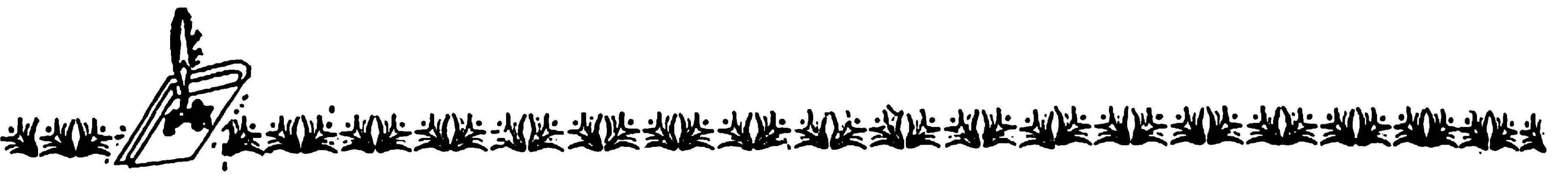
ـ يظهر أن جدكم هذا لا يعرف الاجراءات القانونية · هه ، قل لي : دفعت للسمسار أم للموظف مباشرة ؟

نزل السؤال على محيمدة مباغتاً ، فلم يجد غير الصمت يحميه ، فكر في تقديم ورقة مالية ، لكنه لم يتجرأ ···
ـ أين لازمتنا ؟

أدخل محيمدة يده في جيبه وأذناه لا تصدقان ما سمعتا ، أخرج ورقة بخمسين ديناراً ووضعها على المكتب وهو يقاوم ضغط الحامض المتجمع في حلقه ، التفت الموظف يمنة ويسرة ، ثم سحب الورقة برؤوس أصابعه الى درج المكتب ، وقال :

ـ لا تعتقد انني سأحتفظ بالمبلغ لنفسي ·
ـ ·····
ـ اجعله صدقة تجدها أمك في الدار الأخرى

تسلم محيمدة الورقتين ، وخرج قاصداً الحي وهو لا يدري على ماذا يركز ذهنه المضطرب ؟ تفتت ثقل الاعماق في شهقات بكاء حارقة ، فترك الدموع تسيل على هواها لتخفف من تأجج نيران النفس ، وأوجاع الأعماق حتى أطل على الحي ، أذهله منظر السيارات الواقفة على حافة الطريق المارفوق



الأكواخ ، فازدادت خطواته اتساعاً ، مال مع الدرب المار أسفل المزبلة ليختصر الطريق ، دخل الحي لاهثاً وهو يمسح اثار الدموع بظهر يده ، قابله الحاج المرزوق وعدد من الوجوه الغريبة على الحي واقفين أمام الكوخ ،وقبل أن يرحب بهم سأله الحاج المرزوق :

– منذ نصف ساعة ونحن نبحث عنك ، أين كنت ؟
– في البلدية
– في البلدية ؟
– حضرت شهادة الوفاة ورخصة الدفن
– ما زالت النية في قلبك يا ابني، لو أخبرتني لطلبتهما بالهاتف •

خفض محيمدة رأسه لاحساسه بدونية تضغط على قامته نحو الأسفل ، شعر بجسده يغوص في الوحل والقاذورات كدودة رخوة ضغطتها قدم ثقيلة •

– أحضرت السيارات لننقل المرحومة الى داري •

دوى طنين صاخب في أذني محيمدة ، تحركت عواصف مدمرة في أعماقه ،احتجبت الرؤية واختلطت تموجات الوان أمام عينيه، فلم يعد يميز سوى أصوات بطيئة متضخمة :

« – تنقل المرحومة ؟
– الميت يخرج الى قبره من داره
– لقد وافق ابنها
– هل خلا الحي حتى يدفن موته غرباء
– لماذا تضيع وقتنا يا الزردي
– اذا وافق ابنها فلا هو منا ولا نحن منه
•• اذا وافق •• ولا نحن منه •• المرحومة
•• شهادة السكن • أين لازمتنا ؟ تنقل المرحومة •••• »

فتح محيمدة عينيه، فوجد نفسه مستلقياً على سرير واسع ، قفز الى الأرض لكن ثقل جسمه غلب رجليه ، فسقط ، قام متكئاً على يديه ، مشى الى النافذة بخطوات متعثرة فتحها بصعوبة وراح يستنشق الهواء ليفك قبضة الاحتباس الضاغطة على صدره ، أحس بشيء من الارتياح يسري في عروقه سريان الدفء في لحظات قسوة البرد ، انفتح باب الغرفة ، فدخلت امرأة بدينة ، وقالت بنبرة تجمع بين اللهجة القسنطينية وبين لهجة القبائل الحضراء :

– أنا خالتك مسعودة، زوجة الحاج المرزوق، كيف حالك يا ابني ؟
– بخير
– الحمد لله ، تعمي جوعك بشيء ؟
– شبعان ، أين أنا ؟
– في بيتي

أجاب الحاج المرزوق بصوت يملؤه الاعتزاز ، ودخل ، جلس على حافة السرير وأمر زوجته بالانصراف لتحضير العشاء ، عندما خرجت مسك يد محيميده ، وأجلسه بقربه ، ثم قال :

– ابك على الحي، يا ابني ، من مات ارتاح•
– أين وضعت الجثة ؟
– هل تريد أن تهلك نفسك ، البركة في الأحياء •

التفت محيمدة الى الحاج المرزوق التفاتة وحش مجروح ، تأكد من نواياه التي تحيك شيئاً ما ، فقفز واقفاً ، وقال بصوت مضغوط:
– انني لا أفهم ما تقصد
– اجلس ، يا ابني ، اجلس
– لا
– اسمع يا ابني واهدأ ، قارن بين حالتك وحالي ، تصور ، لقد أراد الله أن يصيب ابني الوحيد مرض منذ سنوات، بالضبط في سنة ١٩٧١ ، عام الكفر ، وسرقة ممتلكات الناس ،دفعت من أجله أموالا كثيرة داخل البلاد وخارجها، لكن مرضه ازداد ، في هذه السنة نصحني بعض الأصدقاء بعرض حالته على أحد أولياء الله ، فوصف لي دواء لا يمكنني الحصول عليه الا بمساعدتك •

– •••••• ؟ !
– رأيت كيف تصبح حالتك أمام حالتي • اشارة موافقة منك تحقق لي أمنية شفاء ابني•
– •••••• !
– لا تقل شيئاً ، انني أفهم حتى صمتك ، كما قلت : ذهبت الى أحد أولياء الله ، فقال لي : عليك بقلب امرأة لم يمض على



موتها نهار وليلة ، تجففه تحت ضوء القمر مدة اسبوع ثم تفتته وتخلطه بالمر والكسبر ودم الهدهد ، وفي كل صباح تطعمه ملعقة مدة اسبوعين ، وسيكون شفاؤه مؤكداً باذن الله ، ما قولك في خمسة ملايين ؟

ـ مـاذا ؟ !

ـ تعطيني قلب المرحومة وأعطيك المبلغ حالا

دار محيمدة في مكانه دورة راعفة كأن تياراً خفياً مس جسده ، جرى نحو الباب وهو يدمدم بأصوات مبهمة ، لكن الحاج المرزوق مسكه من الخلف ولف ذراعه على عنقـه ، وأخرج قنينة صغيرة من جيبه ووضعها أمام عيني محيمدة ، وقال :

ـ قطرات من هذا السائل تكفي ، لا تركب راسك فأنا لحد الآن أتعامل معك بشرف

تأكد محيمدة من جدية الرجل ، فقال :

ـ قبلت

ـ هكذا تعجبني ، لقد ذكر الله في القرآن المال قبل الأبناء والوالدين ، تصبح على خير.

قالها بصوت مشرق وفك قبضته على عنق محيمدة ، وخرج ، أغلق الباب وراءه بالمفتاح بقي محيمدة وحيداً ، انفرط عقـد البصر والتماسك في صدره ، لبسته حركة الذهاب والاياب وسط الغرفـة ، التفت الى السرير التفاتة مباغتة كأنه عثر على كنز ثمين ، سحب الغطاء وجرى الى النافذة ، فتحها ، قدر المسافة بينه وبين الأرض ، وراح يمزقـه ، ويربط القطع الى بعضها. ربط الرأس في قدم السرير ، ودفعه ببطء الى جوار النافذة ، صعد اليهـا بخفة وهو يقبض علـى قطع الغطـاء وراح يتدحرج نحو الأسفل . أحس بسخونة تقبض على كتفه الأيسر عندما سقط على الأرض ، فضغط عليه بقبضة يده وجرى نحو الضفة الأخرى وقلبه يكاد أن يقفز من داخل صدره ، وأذناه تزفران صفيراً مصماً .

توقف أمام باب كوخ الشيخ الزردي . فك قبضته من على كتفه فوجد يده ملطخة بالدماء ، أحس بحرقة في رجليه ، نظر اليهما على ضوء الشعاع المتسلل بين ثقوب الباب ، فوجدهما مخدوشتين ، أخرج المنديل ، مسح الدم وهو يغالب رغبة في الدخول وخوفاً من الطريقة التي يلاقيه بهـا الشيخ الزردي ، عض على شفته السفلى ، دفع الباب ، انتصب الشيخ الزردي بثياب نومه مبهوراً وهو يردد:

ـ لا بأس ! . لا بأس ! ، خـير ؟

ـ الحاج المرزوق

ـ اهدأ ، وخبرني

ـ حبسني في بيته .. يريد أن يقتلـع قلب أمي ليداوي به ابنه

ـ يا لطيف !

ـ عرض علي خمسة ملايين ، وهددني بالسم ..

ـ كيف نجوت ؟

ـ هذا ليس وقته ، سامحنـي لقـد ضيعت عقلي ...

ـ من خلع ثيابه أحرقته الشمس ، هيا نخبر رجال الحي وسنرى .

ارتدى الشيخ الزردي ثيابه ، وخرج ، تبعه محيمدة وهو يصعد أنات مكتومة ، توقفا أمام كوخ المرحومة ، وضع الشيـخ الزردي كفه على أذنه ، وأخذ ينادي :

ـ الغيث ، الغيث ، يا رجال ، الغيث .

خرج الرجال مسرعين جهـة الصوت ، تاركين وراءهم النساء واقفات أمام الأكواخ يتبادلن استفسارات مبطنة بالحيرة .

تجمع الرجال أمام الكوخ وهم يتطلعون الى وجه الشيخ الزردي ومحيمدة في استغراب ، وذهول ، قال الشيخ الزردي وهو يرفع يده حتى ظهرت عروقه تحت ضوء الفانوس :

ـ ناديتكم ، يا رجال ، من أجل شرف الحي ، لقد أخذ الحاج المرزوق جثة المرحومـة ، كما تعلمون ، ليقتلع القلب ويداوي بـه ابنه المجنون ، هل تسكتون على هذا ؟

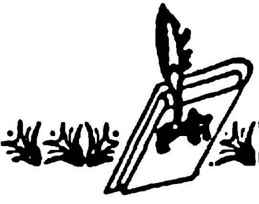
ـ من ربط بيديه يفتح بأسنانه ، محيمدة هو السبب .

رد أحد الرجـال بنبرة قاسية ، مرت همهمة تأييد بين الآخرين ، لكن الشيخ الزردي أسكتهم بقوله :

ـ ماذا تفعلون ؟

ـ نسترجعها بالقوة

ـ في هذا الوقت المتأخر ؟ !



ـ اذا استعملنا القوة سنعطي للحاج مبرر الدفاع عن النفس
ـ نخبر الدولة
ـ رأي ، كلام عاقل ، ما قولكم ؟

ـ ستذهب أنت يا الشيخ الزردي ومعك محيمدة والشيخ علاوة ، سننتظركم هنا.

سار الرجال الثلاثة وراء بعضهم على الطريق المحاذي للمزبلة يجر خطواتهم ثقل الصمت ، وصل محيمدة الى الطريق الرئيسي قبل الرجلين ، أشار الى سيارة أجرة ،توقفت، ركبوا • سال السائق وهو ينطلق :

ـ الى أين ؟
ـ عند الشرطة

ألقى السائق نظرة على الوجوه ،ودخل معهم في سرداب الصمت حتى توقف أمام قسم الشرطة • دفع محيمدة الثمن ، ونزلوا ، أوقفهما الشيخ الزردي ، وقال :

ـ لنترك واحداً فقط يتكلم
ـ لا نجد أحسن منك • رد الشيخ علاوةعلى الفور

قصدوا الباب الحديدي الواسع ،دخلوا، أخذ قلب محيمدة يفارق رتابته ويدخل في دمدمات الدقات ، عض على شفته السفلى ، وقطع البهو الطويل ملتصقاً بجانب الشيخ الزردي• توقفوا أمام شرطي نائم علىطاولة صغيرة قدام الباب الزجاجي المغلوق ، تنحنح الشيخ الزردي ، وقال :

ـ مساء الخير

رد وهو مغمض العينين :
ـ ماذا ؟

قفز محيمدة نحوه ، وشرع في سردالقصة بكيفية متسرعة ، أوقفه الشرطي بحركة من يده ، وقال بنبرة ناعسة :

ـ ارجعوا غدا ، المحافظ ليس هنا •
ـ غداً يكون الوقت قد فات ، يا ابني

رد الشيخ الزردي بنبرة استعطاف ، أخرج الشرطي ورقة من درج مكتب الطاولة بحركة أعادت الى ذاكرة محيمدة تفاصيل شهادة السكن وشهادة الوفاة ورخصة الدفن، قال الشرطي وهو يتجشأ :

ـ سجلوا الشكوى على هذه الورقة

تبادل الرجال نظرات حائرة ، مسك محيمدة الورقة ، انحنى على حافة الطاولة ، وراح يسجل مضمون الحادثة • وقعوا على ماكتبه وخرجوا تحت احساس مرير وخيبة قاسية • قال محيمدة بطريقة غير مقنعة :

ـ لا فائدة من الحضور غداً •
ـ العين لا تعلو على الحاجب ، القضية الآن في مكاتب الحكومة •

تضخم الاحساس بالمرارة في صدرالشيخ الزردي وهو يستمع الى رد الشيخ علاوة ، فسار صامتاً تبعه محيمدة والشيخ علاوة تاركين بينهم مسافات ، أوقف الشيخالزردي سيارة أجرة فركبوها وعادوا الى الحي ، وجدوا بقية الرجال في انتظارهم ، قص عليهم الشيخ الزردي بصوت ذابل ما حدث وانحدر الى كوخه ، تفرق بقية الرجال ، بقي محيمدة مثل سجين قاطعه السجناء ، دخل الى الكوخ ، بسط الحصير ، وارتمى فوقه ، أحس بثقل يضغط على رأسه ، وبصخب أصوات تتردد في أعماق النفس ، فدفن وجهه بين راحتيه ، وترك الدموع تسيل •

استيقظ الحي في غبش الفجر علىدوي محركات ، خرج السكان فوجدوا الحي يضج بالجنود والشرطة تعجبوا من كثرة العدد الذي أرسلته الحكومة لتسوية ما وقع ،صعد الحاج الزردي الى الكوخ ، دخل فوجدهفارغاً، قطب جبينه وخرج ، سال بعض الرجال عن محيمدة ، فاخبروه بأنهم لم يروه من ليلة البارحة ، ازدادت حيرته ، فهرول نحو كوخ الشيخ علاوة ، لكن صوتاً نحاسياً قيد رجليه

« نعلم سكان حي « دلاس» انهم مطالبون بتفريغ أكواخهم ، اجمعوا لوازمكم ، كل الذين نزحوا من جهة واحدة يقفون في صف واحد ، من هذا الحي تنطلق حملة ازالة الأكواخ شكراً »

عم الصمت أرجاء المكان ، وسرعان ما تحول الى صراخ ، مختلط بهدير الجرافات •

رحلة الشبق والبرق و الكوابيس

عمّار يزلي*

الظلمة كانت توزع أسرارها بالتقسيط على بساتين النخل السمراء وعصافير الليل قد بدأت تحوم حول رأسي الملفوف في الشاش الأسود الباهت.

نظرت حولي ... نظرت الى ساعتي ... نظرت سرا الى قلبي ...

الهي سيوقفونني ... الهي سيكتشفونني.. انقذ عبدك من اسفلت التاتار وانقذ بمشيئتك هذا الضالع أبا الهجرات ، الهارب من أكلة اللحم البشري ، اله المخلصين انقذ عبدك من طحاليب هذا النهر المتجوسق بين النخل .. من جواميس هذه الأحواض المتفسخة بالملح وشحنات « الملاريا » والبعوض . أنقذني الهي من تيفوس الدم ، اقرع أجراس كنائسك الكستنائية في آذانهم وارم الشهب بأعينهم ... اله البر .. اله البحر .. اني آمن بك قضاء وقدرا ... فانقذني من بطش أعدائي هؤلاء .. صاحت عصفورة في الليل الوحشي تنادي صغارها. وسمعت هدير سواقي الفلاحين تعقبني وكان الأطفال في الخرق يجمعون سعف النخل ويمضغون شمع الصبر تحت غمائم الليل البارد المظلم وأنا أمرق جسمي تحت الجسر الخشبي العتيق أطل من تحت أهدابي أراقب الليل وأراقب النهار وأتحسس وجعي على مقبض خنجري وأردد في صمت صلوات الراحل ...

أبرق نور لم أعرف هويته ... صاحت في داخلي الأوهام .

هو ذا شط العرب ... هو ذا شط ....

ولكن .. أين شط العرب ... ؟

قلبت خنجري على قلبي .. اختلج قلبي واختلج الخنجر والليل وشط العرب وأحسست بحمى دافئة في النخل والشجر ..

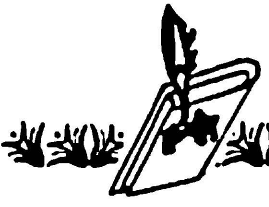
واستيقظت روحي الخائفة على وقع أقدام خشنة تدوس تحتها العشب اليابس وصمامات قلبي كانت تستأذن بالوقوف .. أطبقت جفني وتلمست سرا قلبي وخنجري وسحبت جسمي المتلبس بالجريمة تحت وريقات النبق ، قدماي الداميتان لا تقويان على حملي :

« اله الليل .. أيها المطلق .. انهم يتبعون خطاي .. انقذ مخلصك يا مجري الماء ومفجر الأنهار.. انهم ورائي واني أسمع شحدات سكاكينهم الدامية ... انني ...

كان القمر وقتها قد هاجر خلف سمرة الليل واتقد في الشمال نجم أشهب قد أكل جزءه الدب الأكبر ... »

كان النهر صديقا للفلاحين .. فقال لي صديقي النهر .. « سوف أشنق كما شنق القنال والنيل ويضيقون على خناقي كما فعلوا بالمضيق.

* عمار يزلي ، من مواليد ١٩٥٥ ، ولاية تلمسان ـ قاص ، له مجموعتان :
★ ما بعد الطوفان ـ تحت الطبع . ش . و . ن . ن
★ البصمات ـ تحت الطبع « « «
ـ باحث اجتماعي ، مكلف بالدراسات العمرانية بالمكتب الجهوي للدراسات والانجاز العمراني ـ تلمسان ـ .



فانا خائف ... وأنت تبغي الهروب .. فاركب بابورك النوراني المتقد بجنبك الأيسر واستل خنجرك من غمده وأدر به عقرب ساعتك الأصفر دورتين كاملتين باتجاه دورة الدم فالساعة بوصلة والمتقد بجنبك الأيسر بابور عمرك والنوتي النجم الأشهب المستجير بالدب الأكبر ...

.. خفت .. خاف النهر .. خاف الليل .. أدرت عقرب الساعة الأصفر انطلاقاً من درجة الصفر دورتين كاملتين باتجاه دورة الدم وفتشت جنبي الأيسر أتلمس رأسمالي وخنجري وأدرت رأسي نحو النجم القطبي وسرت .. وسار النهر.. وسار الليل معي والدب الأكبر والنجم القطبي أيضاً كان معي .. وتدفقت في نفسي تراتيل البحارة يفرقون الشباك المتآكلة وسمعت المتوكل يزمجر بين السواري المرمرية وأبواب الأبنوس تمضغ لبان غضبة الزمن ... :

– سحقاً لكم أيها الأنذال .. أتركتموه يهرب وهو وحيد لا فرس معه ولا لجام ولا تسريح ؟

– يا مولاي عفوك ... فلقد رأيناه يغادر هذا المكان ببابور نوراني يشع كالدر ، يحمل سيفاً كسيف « يزيد » ، يمتطي فرساً مطهمة ، سبيبها من سعف النخل وسرجها من الذهب الخالص والزبرجد ... به رائحة المسك والفستق ...

– ... انه البوراق .. يا مولاي .... البوراق ! ..

– اخرسوا أيها الملاعين ... أيها السياف ... اليك أعناقهم وابعث خلف الهارب الملعون أربعة من خيرة الفرسان ولا يعودون الا وابن « الزانية » معهم :

– مولاي ... عفوك .
– خذوهم ..
– ....

– أحسست بأوجاع في كل المعابد .. وحاولت أن أتخلص من عقدة في لساني : « ربي ، الذئاب الجائعة قد شمت من جديد دمي .. الجند يحفزون أحصنتهم والسيوف في أغمادها قد شحذت حتى درجة الصفر .. هذا الليل سوف تتلعثم فيه الأوجاع؟ .

وأعدت كتابي الى جنبي الأيسر وأبقيت يدي على قبضة خنجري .. تلمست طريقي بقلبي ونور النجم القطبي وأوقفت حمولة غضب كانت قدبدأت تتلألأ في أفق صدري ...

قادني الليل والنهر الى بيت فلاح هرم أسمر اللون .. يجمع تحت نجم الليل والشيح والنعناع وأوقد ناراً باهتة علق عليها سطلا من المعدن الأصفر وقال : « ضيفنا انت الليلة هذا الكوخ ورثته عن جدي الذي مات في حرب الترك والروس ... جدي جاء من أبعد الأصقاع الى هذه الأحواض يحمل السلاسل والطوق الفولاذي .. .خصمت أحد عشر قرناً ورأيت « علي بن محمد » يجهز العبيد في القرن الرابع الهجري يشعل نار الثورة ورأيت المسعودي يأخذ ريشة النعام والقرطاس ويلطخ التاريخ بالحبر والدم ... والشعوبية ...

... « جدي جاء الى هذه البقاع ومات في حرب الترك والروس .. ترك لنا هذا الكوخ ورسالة محشوة في قرطاس أغلق بالشمع الأحمر .. قال.. يقرأها على مسمع ابنتي الوحيدة.. رجل كفء.. ذو قامة طويلة .. أصلع الرأس ذو شاربين ظريفين يحمل سلسلة من الذهب الخالص في عنقه نجمة أرجوانية تتدلى من آخرة السلسلة .. تفوح منه رائحة مسك طيب .. على رأسه عمامة من الكتان الشامي الأسود ، رجل مهاجر . هارب من بلاده يبحث عن ملجأ وعن وسادة وزوجة شريفة تنعم بجمال ثاقب ، عشاؤها من الحليب والبلح ، شعرها بلون الزهر وشفاهها بلون النعمان .. »

... سكت الرجل ثم أضاف ... :

« لعلك يا سيدي العظيم أنت هو الرجل الموصوف » .

شعرت بلهيب حمى باردة تنتابني .. ورأيت في أعين الفلاح القروي علامة قلق وحيرة.. وشعرت بألف علامة استفهام تتقمصني ... :

– « .. لكن – .. ما سر الرسالة .. أيها الشيخ الطيب .. ما سر . »

– وارتمى الشيخ على يدي اليسرى يقبلها . فزحزحتها ..

رفع رأسه مندهشاً .. قبل التربة عند قدمي .. ثم أسرع اليها .. يوقظها ..

.. ابنته الوحيدة وتركتني دون جواب للحمى الباردة تدمرني .



ـ « رندة .. رندة .. انهضي .. رندة .. هو ذا الرجل المنتظر قد جاءنا ... انهضي ... أسرعي اليه .. قبلي التراب تحت قدميه المقدستين هو ذا زوجك الحلالي أسرعي اليه .. انزعي الكوفية والعقال من على رأسه .. الثمي جبينه الوردي وأدخلي يدك في صدره تلمسي السلسلة الذهبية والنجمة الحمراء ... وشعيرات صدره المسكية . أسرعي اليه .. هو ذا زوجك المنتظر ...

... وعاد الرجل .. ومعه القرطاس ... ومعه شيء آخر تفيض منه رائحة الفستق .. وكان ... يا لقلبي المسكون بالشبق الوردي .. ويا لأمي التي تركتني وحدي مرمياً بين أزهار البساتين .. انها رائحة أنثى طازجة تبعثرني !..

ارتعشت أركان جسمي .. وسجل مقياس ريشتر في جسدي بضع هزات أرضية وابتلعني تيار ماء ساخن .. فبارد .. فساخن .. فبارد ... فبارد ، فساخن ... حتى تشقق بنائي المعماري وخارت ركائزي وهويت على ركبتي أمام فناجين النعناع والقرطاس المشمع جوار ساريتين من الرخام الأبيض .. لم أعرف من أين جاءتا .. تلمست القرطاس وجدار السارية اليسرى فالسارية اليمنى ... مررت يدي بلطافة على السارية اليسرى .. فاليمنى .. أتلمس طريقي الى سقف البيت .. رفعت يدي الى فوق .. فازدادت السارية غلظة ونعومة ... وعرقتا حتى كادتا أن تتلاقيا عند السقف .. رفعت يدي وهب جسمي واقفاً .. عيناي ملقاتين على فخذي شقراء نورانية تبتسم في رقة ذهولية .. تشم خصلة شعرها المسافر خلف صدرها المصبوغ بمسحة الجمار وحناء « القاهرة » ... واقفة أمامي تنظر الي بعينين باهتتين وعباءة من النسيج البلدي الشفاف ذي الخطوط الحمراء الأفقية .. زاغ فيها بصري .

أخذتني لعثمة مطبقة .. حاولت أن أقول لهذه الغانية « ما أنا بالرجل الذي تنتظره وما أنا بصاحب الرسالة التي تركها جد أبيها الذي مات في حرب الترك والروس ... » حاولت ان أقول لها أنني مسافر الى بلاد الفرس أبحث عن ... ناقتي .. وغلامي .. وأن لي ورائي عائلة غارقة في الفقر وقهر الخلافة .. وأنني ..

وسكت لساني خلف الحقل الملغم بالتلفيقات وتراجيديا الخوف . وسمعت صوتاً ممزوجاً بتفاريد نائمة كانت تنسل من خلف سياج السدر خلف الكوخ الترابي الهرم :

« اجر .. اجر .. أيها المهاجر .. فخلفك الدراكويلا « الوحش يغبر الأرض والسماء تزأر تحت دكات أضلافه .. وأصلال السيوف .. اهرب قبل أن يلحقوا بك وتفني عمرك حيث فنيت أعمار آلاف الأسماء المنسية .. عبر القرون . »

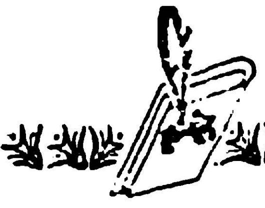
.. نظرت الى ساعتي وأدرت رقماً على اليسار .. فانبرى الرقم الأول والثالث ورأيت حمدان قرمط ... والحلاج .. وحبل المشنقة .. اختلج الرقم الثالث والرابع ورأيت الأهوار والجاموس ورأيت شط العرب وبلاد فارس والوالي العثماني ورأيت هولاكو يقود خمس عشرة آلاف جندي ويغرق دجلة بالتاريخ والحبر ...

ناديت : « أيتها الروح القدسية في قلبي .. امنحيني القوة والشجاعة أتغلب على نفسي وأفك عقدة من لساني تفقه هذه الغانية قولي ... ربي هب لي حكماً وأنقذني من عذاب الموت والعشق . »

... وقطعت حبل لساني يد ناعمة تتسلل الى عنقي . وصدري .. فلثمة هادئة على جبيني .. لفحتني أنفاسها المتقدة وأحسست بدفء ينتابني .. غضضت بصري .. لم أتمالك .. رائحة الأنوثة واليد البضة .. ولهيب نفسها كان يفجر في نفسي سنوات الكبت ... وكان ... نصف ساعة .. ومددت يدي الى كوفيتي : لم أجدها .. بحثت عن الكتاب والخنجر : لم أجدهما .. وعلمت أنني ذبت نصف ساعة في حضن حرم امرأتي ..

كانت الى جواري نائمة . ثديها الأيمن ينام على جبيني .. أصابعي مشغولة بالقرط .. ولسانها كان يذوب في فمي آه الليل .. لقد أتيت منكراً من غير أن أعرف .. الهي .. هذه الحمى تقتلني . راودتني عن نفسي فلم أستعصم .. وانبعث خلف سحب الظلام صوت خافت يردد في أذني :

« .. اهرب انقذ جثتك من الوأد ... فالغيلان خلفك تدك الأرض دكاً .. اهرب قبل أن يلحقوا بك . »



نظرت الى الفتاة ملياً : كانت لا زالت تبلع ريقها في نهم ... فخذها البض العاري مرمي على عجزي ..

غطيت الفخذ وأدت نهدها في صدرها ... فانبرت الحلمة تنظر غاضبة الي ... وسمعت ضجيج الوطن العاري .. وأمامي كان يعرض علي بضاعة قدرية ... هذه الفتاة الملهوفة بشغف الحب والمقدرة الفائقة على صنع الانسان ليلة واحدة كانت أمامي .. أهدتها الي الآلهة الموقوتة بارادة الرب . قبلت جبينها الوردي .. فجاءت مع القبلة وعاودني الصوت الخافت :

« أسرع .. أسرع .. فوراءك حقول مزروعة بالغيلان في أياديها الذعر .. أسرع يا مثقلا بجراح القوم وتاء التانيث الساكنة في جوفك الملتهب بحمى الحب وحرية العشق .. اجر .. فوراء هذه الصحراء الآهلة بالخوف .. هنالك فانوس عمرك .. أوقده .. يوقد لك قناديل طريقك الى المعبد الرسمي .. هنالك سوف تجد تفسير القرطاس وبيتاً تأويه أنت ومن معك . الفانوس على بعد ستة أيام وليلة .. الفانوس مخفي في قدر من النحاس الأحمر :

عند مصعد الضريح الشرقي للمقبرة المنسية .. تحت الشاهد الرأسي للقبر المثلث .. عند رأس المثلث .. على اليمين .. احسب بطول خنجرك الزعفراني ثلاث مرات .. واحفر عند نهاية الخنجر .. سوف تجد حسكة بحجم البيضة في داخلها بخور ما تكاد تلامس الهواء .. حتى تشتعل وتشم رائحة نفاذة بارودية الطعم لا تفتح الحسكة حتى تقرأ الفصل الأول من الباب الثاني من كتابك المقدس .. تفتح الحسكة وتغمض عينيك وانفك لبضع دقائق وسوف ينفتح القدر ويظهر الفانوس بلون بلورات الملح ... في الفانوس سوف تجد زجاجة فيها كوكب ذري يوقد بمجرد أن تفتحه ويشع منه بريق نوراني خفي .. يوصلك من يوم وليلة الى المعبد الرسمي ... » وقفت مشدوهاً .. أسمع الصوت ... وأعاد الصوت .

« هيا ... أسرع ... احمل زادك وذخيرتك وتمنطق بخنجرك ... احمل كل ما في الكوخ .. الا هذا الشيخ .. فان أجله قد حان » .

ونظرت الى الفلاح الفقير .. فرأيته عند مدخل الكوخ نائماً نوماً عميقاً ، أسرعت اليه .. قلبته يمنة ويسرة .. فما أفاق قط ... ضغطت على جنبه الأيسر ... فوجدت الروح قد غادرت جوف هذا الشيخ الهرم ..

حملت ما معي من زاد وتقوى .. حملت كل ما في الكوخ .. ووضعت يدي في يد زوجتي التي منحتني اياها الآلهة .. وسافرنا ... والفجر كان يدنو منا .. وسرنا وكان آخر الليل يسري ... نبدل بشراً ... ونستوقف بشرا ... ندخل قرية .. نبرح قرية .. نقطع أنهاراً .. نكشف أسراراً .. نجري .. نتوقف ونسال النجم القطبي : هل الغيلان لا زالوا نياماً .. ؟ فيجيبنا النجم : هم نيام . ونعود لنجري فنجري ونجري .. نسقط .. ننهض .. نضحك أحياناً .. نقهقه أحياناً ... نندس ونقوم .. نقوم ... ونندس .. نسال الشجر .. نسال الحجر والراجل والراكب .. ونسال طيور الليل والصراصير .. نفك ألغازاً .. نشبك أموراً ... يتركنا الليل .. يحملنا النهار ... يتركنا النهار يحملنا الليل .. نسال البوم ونسال الغربان .. ونعود لنسال النجم القطبي أما زالت الغيلان نائمة ؟ .. فيجيبنا النجم : نيام .. نيام .

نجري .. نجري .. نقطع رمالا .. نعبر وديانا .. ندخل ديارا .. نبرح ديارا .. نحيي اناسا .. نودع أناسا .. نسال المارة .. نسال القاطنين .. نحدث الاناس .. ونحدث الأنعام .. والشمس والكواكب السيارة وأسماك الأنهار والبحار .. ونسال الطيور المسافرة الى المغرب والعائدة من الشرق والذاهبة نحو الشمال والعائدة من الجنوب .. أتفحص يميني ويساري ... وأجري .. ونجري .. وتجري .. وأجري .. واعود لأسال النجم القطبي : أيها النجم القطبي .. أما زالوا نياماً ؟ .. ويجيبنا النجم : انهم وراءكم كالبرق .. انهم وراءكم .

تنتابني حمى فتاكة .. اضغط على جنبي الأيسر واتوسل لرب الكون أن يحميني ويحمي زوجتي والقضية .. وأجري ... ونجري ... وتجري ... وأجري .. ندخل امصاراً .. نبرح امصاراً .. نعرف أقواماً .. يعرفنا أقوام .. نقطع فيافي .. نودع النهار .. ونستقبل الليل ونستقبل النهار .. واعود لأسال النجم القطبي : أيها النجم القطبي :

أما زالوا بعيدين ؟٠٠ ويجيبنا النجم : انهم خلفكم ٠٠٠ انهم خلفكم ٠٠٠

٠٠ أصابتني هزات متالية ٠٠ عرق جسدي٠ وخارت قواي ٠٠ فلم أقدر ٠ نظرت الى زوجتي ٠ فاذا هي كالنحلة أمامي لا ملامح لمقدار تعب عليها ٠٠ عليها مسحة من لون زهر الرمان ٠٠

حاولت أن أنهض لأكمل المسير٠٠ فاستوقفني الليل ٠٠ عثرت قدمي بحجرة في الأرض ٠٠فسقطت ٠٠٠ نظرت الى الحجرة ٠٠ فاذا هي شاهد رأسي لقبر منسي ٠٠ واذا بالقبر المنسي ٠٠ بالمقبـرة المنسية ٠٠ واذا بالضريح أمامي٠٠ ويا للفرحة ٠٠ وصلنا !٠٠

دقائق غبت ٠٠ وقمت على الفور ٠٠ قدماي تسطران بدقات التعب والخوف فعلت ما علمنـي شيخي ٠٠ حسبت ثلاث مرات طول الخنجر علـى يمين الشاهد الرأسي للقبر المثلث قرأت الفصـل الأول مـن الباب الثاني مـن كتابي المقدس ٠٠٠ وحفرت ٠٠٠ فاستخرجت الحسكة وأحرقت البخور ٠٠ فظهر القدر ٠٠ أغمضت أعيني وأنفـي كما علمني شيخي ٠٠ بعد أن تركت زوجتي عند قدم القبر المثلث ٠٠ فتحت القدر ٠٠ فدوى في الفضاء صوت مهول وزعقت جدران الضريح من حولي ٠٠ فتحت عيني ٠٠ واذا بي أمام مصباح ذري يشـع بلون اخضراري خفي ٠٠ قلبت جسدي عند قدم الضريح تضرعت للالهة أن تحميني وتحمي زوجتي ٠٠ وحملت المصباح الذري وتسللنا هاربين في اتجاه الشمال الشرقي ٠٠ المصباح عنواننـا وزوجتـي الطيبة كانت محتفلة بالضوء المخضوضر وأشعـة ما تحت الحمراء الزاهية تحيي عيد ميلادها السادس والعشرين ٠٠٠

احتفلت بروحي الخائفة تلـك الليلة ٠٠٠ وكانت شحارير الوادي تغازل سحر هذا المتجوسق بين زهور الدفل وأعواد السمار والطحلب المنساب والعالق واليابس على ضفاف النهر الهادىء ٠٠٠ رأيت شولوخوف ذلك اليوم ٠٠٠ رأيت نهر الدون الهادىء ينساب تحت أقدام الفلاحين القوازق ٠٠ وحبات العرق كانت تنضح بها جباههم المحروثة منذ عهـد « ايفون الراهـب » ٠٠ ورأيت على التو المتوكل يستقبل المطاردين الخائبين ٠

ـ الويل لكم ان قلتم هـذه المرة ٠٠ انكـم رأيتموه يمتطي بوراقاً !

ـ يا مولاي ٠٠ عفوك ٠٠ فلقد رأيناه يغازل الأفق بامرأة شقراء عليها مسحة من ملائكة السماء ٠٠٠ على فمها القرمزي خاتم مسحور ما قبلت به رجلا الا وركبه مارد يخفيه عن الأنظار ٠٠ لقـد رأيناه يا مولاي ٠٠ يدخل المدينة المنسية ٠٠ويحفر في الأرض حفرة عظيمة ٠٠ ثم ما لبث أن زعـق الفضاء وانطفق يخسفان عليهما من ورق الشجر٠ فما عادا يظهران للأعين يا مولاي٠٠ لقد اختفيا عن الأنظار !

ـ اللعنة عليكم ٠٠ أيهـا المجوس المأخوذين بالخوف ٠٠ خذوهم ٠٠٠ أيها السياف ٠٠٠ اليك أعناقهم ٠٠

ـ مولانا ٠٠٠ عفوك

ـ ٠٠٠٠٠ خذوهم ٠

ـ ٠٠٠٠٠٠

فارقنا الصوت الذي كان يرافقنا ٠٠٠ وسرنا باتجاه الشمال الجنوبي بحثاً عن المعبد الرسمي حتى أكلنا من الليل نصفه ٠٠٠ فنمنا ملء جفوننا حتى بزغ في الأفق الخط الأحمر ٠٠٠ وعدنا للمسير ٠٠

كانت زوجتي تغني لي في صوت ناعم أغنيات الفلاحين السود الطيبين ٠٠ وأقرأ على مسامعها أشعاراً ٠٠ في ذاك اليوم العاشر من نيسان ٠٠٠ ورأيت الفارسيات عند مجرى النهر ٠٠٠ « يغسلن النهد بماء الصبح ٠٠ وينتفض النهد كرأس القطا من الغسل ٠٠٠ » ٠٠٠ وأحسست بالماء يجري في فمي ٠٠ وبحمى بركانية تنصهر في ، ورن في أذني الصوت يقول : « حذار ٠٠ أيها المسافر ٠٠ هؤلاء الصبايا هن ساحرات وقنابل بلاد الفرس والروم وبلاد بيزنطة وشط العرب ٠ » ٠٠ تقمطت جسدي المصبوغ بصبغة اليود ٠٠ وبخت عقدة نفسي حتى زاغت الشمس وهوى الليل ٠٠ تكورت في حجـر زوجتي أداعبها ٠٠ واستخرجت القرطاس مـن صدري أقرأه ٠٠٠ فهتف الهاتف : اياك وأن تفتح القرطاس قبل الوصول الى المعبد ٠٠٠ »

٠٠ أعدت دفنه في صدري ودفنت نفسي بين ذراعي وجسد زوجتي الملتهب حتى عدنا واحداً ذا ظهرين ٠٠



سرنا في اليوم الثاني ٠٠ وحمى المعبد فينا كانت تتوهج بين أضلعي والعطش المصيري يعبث بلهاتي الفارقة في عرض بحر شعر « هومير » ٠٠ وأثينا مدينة الصراعات الطبقية توقظ في أحلامي التي خلفتها ورائي في مستنقعات الملح : « سبارتاكوس » !٠٠٠ أيها الحالم بأثينا مقبرة للكهنة والسلاطين وجمهورية أفلاطون الكاذبة ٠٠ كابوساً في كابوس ٠٠٠ وتعيش رحلة الشبق والبرق والليل والكوابيس ٠٠ وحدك والجند الموغلون في زحام الحوافر ٠٠ وحدك ومن معك تعرفون فظاعة العيش بدون الحب ٠٠ وبدون خبز ٠٠ وحدك ومن معك تعرفون أسرار « علي بن محمد » ٠٠ وأثينا ٠٠٠ والأهوار ٠

٠٠ اتقد عند قدمي فجأة ضوء مفزع ٠٠٠ تجمع عند رأسي الجند كذباب المزابل ٠٠ واحتضنت زوجتي ٠٠ وقبلت كتابي ووضعت يدي على خنجري ٠٠

ـ ٠٠٠ من أنتم ؟
ـ ٠٠ جند الشاه ٠٠ جئنا نوصلك الى معاليه!
ـ ٠٠٠ آه ٠٠ عدت !

٠٠٠ قادوني وزوجتي في حشمة الليل الى مركز التحقيق ٠٠ سحبوا مني القرطاس والخنجر والكتاب المقدس ٠٠٠ ثم أودعوني في قبو كجوف سلحفاة حتى طلوع الشمس ٠٠ وفتح الباب ٠٠ ودخل اثنان من الجند ٠

قيل ٠٠٠ من أنت ؟
خفت أن أقول لهم ٠٠ « رجل هارب من وطنه ٠٠ الذي تناوله العسكر » ٠٠٠ غارت عيوني ٠٠ بكاء ٠٠٠ وتمزق الوطن في لساني ٠٠ بكيت ٠٠
ـ ٠٠٠ أنت شيوعي ؟ ٠٠ انطق ٠
ـ ٠٠٠٠٠٠
سكتت ٠٠ ولم أجب ٠
ـ أنطق والا ٠
ـ ٠٠٠٠٠
سكتت ٠٠٠ ولم أجب ٠
٠٠ غمزة بالعين اليمنى ٠٠ و ٠٠

« مزقت الأثواب على جسدي ٠٠ وجاؤوني بالجلادين ٠٠٠ تعاقبني بالسوط ٠٠٠ ثلاثة جلادين ٠٠ وكان لكبير الجلادين عينان كبيت نمل وشعر خنازير ينبت من منخاريه ٠٠ »

ـ اعترف الآن ٠٠٠ اعترف ٠
ـ ٠٠٠٠٠
رفضت ٠٠ رفضت
ـ اعترف الآن ٠٠ اعترف
ـ ٠٠٠٠٠٠
رفضت ٠٠ رفضت
ـ اعترف الآن ٠٠ اعترف
ـ ٠٠٠٠٠٠
رفضت

خلوا سبيلي ٠٠ تركوني مقيداً ٠٠ وعادوا في اليوم الثاني ٠٠٠ سحبوا القيد من معصمي ٠٠ « فجاء اللحم مع القيد ٠٠ » ٠٠ وأعاد الجلاد ٠٠ :
ـ أعترف الآن ٠٠٠ اعترف
ـ ٠٠٠٠٠

نامت كل الأوجاع ٠٠٠ وكل العضلات في جسدي مر عليها السياط ٠٠ تشقق لحمي ٠٠٠ تشقق لحمي ٠٠ تشقق ٠٠ نامت الكلمات على شفاهي بالتعذيب وسوط الجلاد ٠٠ ما نام أبداً ٠

ـ أعترف الآن ٠٠٠ اعترف
ـ « أعترف لكم بماذا ٠٠ ليتني أعرف بماذا أعترف لكم ٠٠٠ أعترف لكم بماذا ؟ »
٠٠٠ غابت عيناي ٠٠٠ وقلبي من فرط التعذيب ٠٠٠٠

كفوا عن تعذيبي وانقلوني تحت الأرض في ظلمة دهليز مخرب الحيطان وجاؤوني بزوجتي مكشوفة العورة ٠٠٠ وقيل :

ـ أعترف الآن ٠٠٠ اعترف
ـ ٠٠٠٠٠
رفضت ٠٠٠ رفضت ٠٠٠
اعترف الآن ٠٠٠ والا ٠
ـ ٠٠٠٠٠٠
ـ ٠٠٠ بكيت ٠٠٠٠ وسكتت ٠٠٠
ـ ٠٠٠ والا ٠
ـ ٠٠٠٠٠٠
ـ يا هرقل ٠٠٠ اليك هذه المرأة !
ـ ٠٠٠٠٠٠

٠٠ ودخل يهرول ٠٠ عملاق ليس كبني البشر ٠٠ لونه كالليل اذا اعتكر ٠٠ شفاهه كخف جمل ٠٠ في أذنيه حلقتين من معدن البروتر بحجم الخلخال الرطلي ٠٠٠ مفلطح الأنف كروثة بعير أهلكه



الاسهال ... رمى سترته ... وتقدم منها عارياً كالعجل ..

... تراجعت المرأة ..

واحسست بهيروشيما تنفجر في جسدي .. حين انقض عليها من الخلف وطواها للأمام ... دمرتني صرخة زوجتي المدوية وهو يدخل عضلاته في جسدها الطري ... :

« رندة ... رندة ... صرخت ... ربي .. أما وصل ؟ » .

.. أدمعت عيناي من البكاء وحب الملائكة وكلمات الكتاب المقدس على شفاهي نغمات سحرية تعزفها مفاتيح من السماء السابع ...

.. استأذنت الهي بالسكوت عن الذكر واستسلمت للمشهد ياكلني .. رندة .. أمامي عارية .. ملقاة على الأرض .. رندة !

« ربي .. رحماك .. أنت الملقي عليك حبي بالسحر .. وعندما تغدق الأرض بنورك السرمدي .. أنت الواحد .. الأحد تنجي من تشاء وتحيي من تشاء .. ربي .. بقدرتك هب لي حكماً ... وهب لي من أمرك رشدا ... »

... انبرى صوت معلمي يجلجل في الأفق :

ـ « اذكر اسم الشيخ .. الجليل الذي أهداك الفتاة ... ثلاث مرات . .هو منقذك .. ومنقذ زوجتك.. وكتابك النوراني..وخنجرك وقرطاسك السحري » .

« .. الله ... الشيخ .. سلامة الشيخ سلامة سلامة ... الشيخ .. » واحسست بقوة جبارة تنفخ في جسدي قوة خمسمائة وثمانين حصاناً بخارياً ... وبأرجلي تطول .. تطول .. حتى عادت على بعد عدة أمتار من ملتقى الأرجل ..

جمعت قوتي.. ورفعت يدي المقيدتين للجدار فجاء القيد الحديدي مع الجدار ..

هويت على العملاق بمعدل قوة عدة قناطير بوحدات نيوتن الفيزيائية ... هوى الفيل أمامي. وكان أبرهة الحبشي في الخارج يهرب برجاله تحت قصف الحجارة .. والطير الأبابيل من فوقهم .. كانت تغير غارات الحرب ..

حملت زوجتي والدهشة تقتلني .. غطيتها بردائي .. خرجت من فجوة الجدار .. مررت على القبو المظلم .. حملت خنجري وقرطاسي وكتابي المودوعين في خزانة الشاه .. الصوت دليلي .. طريقي الأمان .. أفتح أبواباً .. تنفتح لي الأبواب .. أخرج من باب .. يوقفنا الحراس .. يهوي الحراس.. تقابلنا الجدران.. تخر الجدران حتى وجدنا أنفسنا خارج الحصن ووجدت نفسي أما م نهر جار قليل الماء.. كثيف العشب ..أخرجت عدة لترات من الهواء المضغوط واستنشقت نسمات البراري الآمنة .. قبلت زوجتي على جبينها عدة قبلات محرقة .. وبكينا واحداً .. ثم ضحكنا واحداً .. وعدنا للبكاء .. ثم للضحك .. بكينا وضحكنا .. ضحكنا وبكينا .. حتى كان الغروب.

... نمنا .. ونام الليل معنا .. والنهر ... والأوجاع .. وفيها .. كان الصوت يردد لوحده : « المعبد عاد بعيداً .. المعبد عاد بعيداً.. »

... وفي الصباح .. علمت من معلمي أن المعبد قد هوى على آخرته لدى ذكر اسم الشيخ ثلاثاً .. خلاصي .. وخلاص زوجتي كان في سقوط المعبد ...

ـ « سقط المعبد .. سقط المعبد .. »

عدت للبكاء .. وعادت زوجتي للبكاء ... وعاد الصوت يقول :

ـ « حكم عليكما بالتجول الأبدي ... والمغامرات ... سوف تعيشان أكثر من مرة .. وتموتان أكثر من مرة .. لكن ما دام القرطاس بين أيديكما .. فأنتما وارثان الجنة والأرض ووارثان الذرية ووارثان التاريخ . »

.. أدمعت عينا زوجتي .. وتلقفت من مقلتيها دمعة ساخنة كانت تهم بالسقوط .

ـ ... رندة ... لا تبكين .. نحن أبدالنا التاريخ ـ ..

ـ ......

وسرنا .. وسار الليل .. والنهر .. وكانت عصافير الليل تسافر معنا الى حيث لا ندري ... الى حيث لا أحد يدري ..

تندوف في وات ـ سبتمبر ١٩٨١
الجزائر

المجنونة

قصة

جميلة زنير

- ١ -

الشمس تداعب المنازل الريفية القديمة .. البرد يأبى أن يلقي أسلحته ويستسلم .. سرت في درب طيني لون حذائي .. التقيت عند النبع بـ « ريحانة » فسلمنا ... وسألتها عما اذا كانت عائدة من الحقل فقالت :

– لن نذهب الى الحقول فاليوم أربعينية المرحوم « شعبان » وأنا مكلفة بجمع النساء على الطعام قبل أن يبرد .

تركتها تكمل مهمتها وعرجت بدوري نحو بيت المرحوم .

- ٢ -

حين وصلت المنزل ، رأيت قصاع الطعام الفخارية تملأ فراغ الباحة .. حييت النساء اللواتي كن منهمكات في تكوير خرق بالية يجعلنها على رؤوسهن تحت القصاع وينطلقن بخطى حثيثة نحو المقبرة الواحدة تلو الأخرى ... حملت دلو ماء وتبعتهن أصعد الوهدة الوعرة حيث تجثم في الأفق البعيد مقبرة القرية .

- ٣ -

قرب الضريح وضعنا كل شيء على العشب ، وكانت القبور المتراصة تحف بنا من كل جانب لكأنما لم يبق شبر واحد لا يضم رفات انسان ... جلسنا صامتات ننتظر وصول النساء ، ولم نكد نسترد أنفاسنا حتى بدأت أسرابهن تتوافد ... تحلقن حول القبر دفعة واحدة وطفقن يولولن بأصوات محملة بالنحيب الذي جلل القبر ورددت الوهاد صداه ... بعد لحظات شرعت كل واحدة تمسك عن عينيها الدموع ... وبدأت الأصوات تخفت شيئاً فشيئاً وترتفع الرؤوس المنكسة عن الأرض .. وبسرعة انحلت الدائرة المضروبة حول الضريح وافترشت النسوة الحشائش وأقعين على الأرض.. وزعت الملاعق ورفعت الأغطية عن الطعام واندفعن يأكلن بهدوء .

- ٤ -

أقبلت « فجرية » الضريرة تسير بخطى متعثرة حاملة فوق ظهرها طفلا وهي تتحسس الطريق بحذر في اتجاههن . تخلت احداهن عن ملعقتها وأجلستها مكانها . ولكأن قدومها قد أضرم فيهن فتيل الثرثرة فانفجرن بمختلف التعاليق والتساؤلات .

– هذا طفل « خدوجة » فأين هي ؟

ردت الضريرة بعد أن ازدردت اللقمة الأولى .

– أخذت فجر اليوم الى المستشفى .

– أمس فقط التقيت بها عند النبع ، علقت احداهن .

ردت وهي تمسح بظاهر يدها شفتيها :



ـ لقد باتت تنزف طوال ليلة أمس دفقات من الدم الى أن أغمي عليها ·

ـ ومتى تعود ؟

ـ بعد أسبوع ، قال الأطباء ·

ـ وما الجدوى من بقائها هنـاك وقد ضاع الجنـين ؟

ـ أجريت لها عملية غسل الرحم وهي في حاجة للتزود بالدم الذي فقدته ·

ـ المسكينة · وأطفالها لمن تركتهم ؟«فجرية» أختها لا تنفع حتى نفسها ·

ـ تساعدها جدتهم ·
ردت « فجرية » وقد سمعت اسمها يتردد :

ـ أنا والحق لله لا أقدر عليهم ·
قالت احدى العجائز بلهجة الخبير الواثق:

ـ لو لم تكن قد ذهبت الى المستشفى لشفيت في بيتها بالأعشاب والكي ·

ـ أضافت عجوز أخرى مؤيدة ·

ـ بمجرد أن تحس الواحدة منهن بأبسط ألم حتى تتمارض ، ولدت خمسة عشر مرة ولم يكشف على جسدي طبيب ·

أخذ الموضوع أبعاداً ومتاهات جديدة فلم يعجب بعض النساء فتغامزن وفتحن ملفاً آخر لموضوع شغل نساء القرية ورجالها ·

ـ ما هي أخبار الهاينة مع بوجمعة ؟

ـ ربح القضية وتم الطلاق ·

ـ استضعفها المسكينة ، لو أن والدها مازال حياً لما جرؤ على ذلك ·
قالت احدى قريباته محتدة :

ـ كان « بوجمعة » أول من ابتدع الطلاق ·
تدخلت « فجرية » بعنف :

ـ اللئيم ·· أنسي أيام كانت تحمل اليـه الزاد في الجبال متحدية الموت والعساكـر والحركية ، والآن حين انتفخت بطنه سمنة وجيبه مالا يتخلى عنها ·

قاطعتها أخرى مؤيدة :

ـ لقد تمسك بها لتجوع وتعرى معه آنذاك ، واليوم يستبدلها بواحدة في عمر ابنته دون خجـل ·

ـ ٥ ـ

فجأة أطلت « الهاينة » من المنحنى ··· اشرأبت الأعناق وارتجفت القلوب ··· كانت تحمل في يدها اليمنى هراوة ضخمة وفي الأخرى سطلا تنز ثقوبه قطرات سوداء ·· يغطي رأسها منديل حائل اللون تطل منـه خصلات شعرها الأشعث وفي أعقابها يسير كلب هزيل·

تململت بعض النسوة في أماكنهن محاولات الافلات ، ولكنها أوقفتهن مهددة بهراوتهـا وبحركة عنيفة من رأسها ··· ران على المكان صمت جنائزي حين قالت :

ـ الأبيكن الكلب تهربن ؟

وحين تراجعن خائفات غرقت في ضحك صاخب ··· كانت تحدجنـا واحدة واحدة بنظرات غضبى وكأنها لا تعرف لأحدنا وجها قبل اليوم ··· شعور مبهم يسكن صدرهـا ويدور برأسها ·· تعقد حاجبها تارة وتزم شفتيها أخرى ، وفجأة تتخلى عن هذه الحركات فتسترخي ملامح وجهها وتستكـين قليلا الى الهدوء ··· كنا خائفات منها مشفقات عليها ··· قالت بهدوء :

ـ جئتن تحيين حفل زفاف « بوجمعة » ··· سنظل نقيم له الولائم كل يوم هنـا · وضربت فوق الضريح بهراوتها فتطاير التراب فوق الرؤوس ، أضافت بصوت مبحوح :

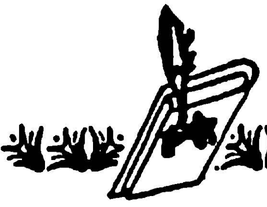
ـ أنتن لا تجمعكن الا دقات الطبول ولا تفرقكن الا ضربات العصي ·

ولوحت بهراوتها فوق الرؤوس المنكسة وواصلت :

ـ جئت كما ترين رفقة الكلب الى حفلكن البهيج ، كيف لم تستدعينني وتجئن خفية عني؟

تجرأت احدى العجائز وخاطبتها :

ـ تعالي لتتناولي بعض الطعام ثم نتحدث فأنت جائعة ·



حدجتها بازدراء ولم ترد ، باشارة من يدها تقدم الكلب الى القصاع ، داساخياشيمه فيها فتنحت النسوة عن طريقه فدنت بدورها منه وجلست بجانبه تغرف الطعام بكلتايديها وتجعله في صدرها ··· خاطبتها امرأة أخرى من جديد بكلمات هادئة علها تشغلها عن العبث الذي تمارسه قائلة :

– تعالي اجلسي بقربي ·· وأفسحت لها مكاناً بجانبها ·

لم تلتفت اليها ولم ترد بل بقيت منتصبة تنظر صوب زوج المرحوم وقالت :

– تعالي أنت !

نظرت المرأة حولها متمنية ألا تكون المقصودة فوجدت كل العيون معلقة بها فقالت:

– ولماذا أنا بالذات يا « الهاينة » أختي ؟

– تعالي ··· لا تخشي شيئاً ·

تقدمت نحوها بخطى متعثرة ··

أردفت بتوسل :

– ارقصي ··· ارقصي هذا يوم عظيم ·

رفعت السطل لتجعله على رأس المرأة فتراجعت هذه الأخيرة مذعورة الى الخلف فعذرتها بحدة ·

– لا تتراجعي · تقدمي مني لأطرد عنك الشياطين ·

– أتجعلين بولك على رأسي وتقولين لي أطرد عنك الشياطين ·

– هذا السطل طاهر ، أنا أتوضأ منه ·

وتحت تهديد الهراوة قبعت المرأة المفجوعة أمامها فاقتربت منها وجعلته على رأسها

فراحت قطرات الماء الملوث تلون ثوبها بنقاط سوداء بدأت تكبر وتكبر ···

– ارقصي ··· قالت متوعدة ·

– لا أرقص ··· أجابت المرأة بصوت خائب متكسر ·

ضربت الأرض برجلها وهراوتها وقالت:

– ترقصين مرغمة ···

واتجهت نحو النساء آمرة اياهن بالتصفيق والغناء فتحركت الأكف مصفقة برتابة : طق ··· طق ···

انخرطت المرأة في عويل مذعور ···· وانتقلت العدوى الى بقية النساء ·

اختلطت التصفيقات بالبكاء ، فأمسكت المجنونة بطرفي هراوتها وعلى صوت هذا الايقاع الغريب راحت تؤدي رقصات دائرية عنيفة لم تلبث بعدها أن انحنت على الأرض لاهثة في وضع طقوسي صامت ·· ثم ارتفع صوتها كعواء ذئب جريح ·

سكيكدة في ١٩٨٢/٢/٢٠

* * *

أسطورة شعرية

أعراس نيبتون

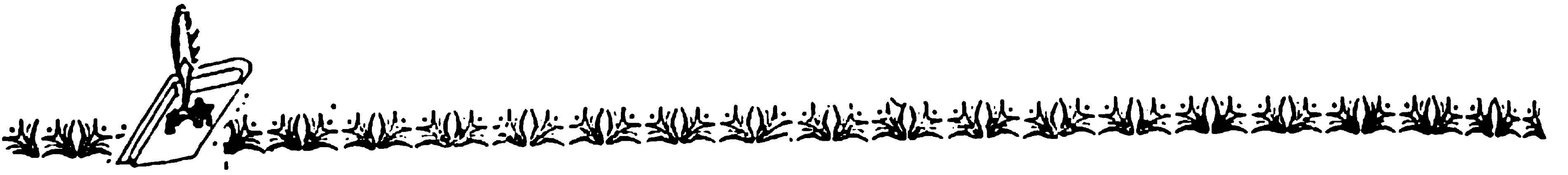
الطاهر بوشوشي

وفتيــة اربعــة كالظــلال على خليج النور حطوا الرحال
أشباحهــم تسبح هفهافــة تحكي أساطير الصبا والجمال
تقصهــا الأمــواج في لوعــة فيطــرب اللج وتصغي الجبال

ـ ١ ـ

سمعــت مــن رائدهــم صيحــة وهــو ينادي صحبه في اختيال
يقــول : « من نحن هنا في الدنا ؟ » فينصت البحر لـه في انفعال
« ما الجسم ؟ ما الروح ؟ وما عمرنا ؟ ثـم الى أي وجـود تحـال ؟
يا طـالما خضنـا غمـار السرى وأرهـق النـوتـي داء عضـال
وليس في الأفــاق مــن نجمــة تهـدي وما في الـروح الا الكـلال
ترتطــم الأمــواج مــن حولنــا وتعـول الأريــاح بين الجبـال
ومـا بلغنـا شـاطئـاً آمنـاً يسطع فيـه الحـق الا الضـلال
قـد أطلقـوا الصاروخ نحو السها وعقلنـا لا زال قيـد العقـال
من عهـد أفـلاطـون أو قبـلـه ما وجـدوا حـلا لأدنى سـؤال
مـا الدهـر ؟ ما الانسان ؟ ما شانه ؟ ما الجسم؟ ما الروح ؟ وما الانفصال؟
هـل لبني الانسان حـريـة أم خلقـوا حتماً بغـير انتحـال ؟
ان كـان موتي قـدراً سابقـاً فليس في التعجيـل الا امتثـال
أو عـدت مـن بعـد تحـدي القضا اذن فتجـريبـي شـفى كـل بـال

* * *



وغـــاص في اللـــج بأثـــوابـــه		يسبح نحـو الشمس سبح الرئـال
حتـى امتّحـى في المنتهـى طيفـه		وهـو ينـادي : أيـن أيـن المـآل

ـ ٢ ـ

تقـدم الثـــانـي وفي كفـــه		نصل حـديد من طـوال النصال
يـرمـي بـه الحيتـان في عقـرهـا		بمـرح الـلاهـي فنـادى وقـال :
« لا تسـألوا عن سـر هـذا الورى		ما العمـر الا البطـش والاهتبـال
أو صـولـة تكسبنـا المشتهـى		أو همـة تعـلو عـلى كل عـال
كـونـوا كنبتـون شـديد القـوى		مقلـّب السـفن ومفنـي الرجـال
أعـراس نيبتـون وأفـراحـه		مـآتـم النـاس بسـود الليـال
اذا سـرى النـوتـي في فلكـه		أبصـره وهـو ينـادي تعـال
كـونـوا هـرقـلا مـن شأى بأسـه		كـل شـديـد عملقـي الصيـال
فانمـا بالفتـك تـؤتـى المنـى		ويرتقـى كـل بعيـد المنـال

* * *

ثـم ارتمـى في البحـر لا هـائبـا		وصـال في أعمـاقـه لا يبـال
وأذعـن البحـر لـه سـاعـة		أو بضـع سـاعـات فطـال النـزال
حتـى رمـى البحـر بـه جثـة		تطفـو عـلى الطحلـب بـين الرمال

ـ ٣ ـ

وحـرك الثـالـث قيثـارة		غنـى بهـا الأكـوان أشجـى موال :
« ليـلاي هـل للصـب مـن قـارب		يرسـي بنا عنـد عـروس الليـال
أولا فهـل للقلـب من سـاحـل		يطلع فيـه السحـر دنيـا الخيـال
عـرائس البحـر أبحـن الهـوى		وامنحن ما يـذهـب عنـا المـلال
فطـالما سـرنـا وطـال السـرى		وليس للعـين بكـن اكتحـال
أنشـدننـا مـن كـل لحـن حـلا		فـانمـا الأشـعار سحـر حـلال
واسـكبـن مـا يذهب عنا الجـوى		الـراح للعشـاق روح يسـال
عـرائـس البحـر أدرن الطلـى		فكلنـا للبحـر بعـض العيـال
نقتـات مـن حيتـانـه سـاعـة		ثـم يـريـنـا بطشـه والنكـال
سـنصبح القـوت لحيتـانـه		وهكـذا الأيـام حـال بحـال
قـد تعـب الفكـر ولـم نسترح		والعيش كـل العيش تـرك الجـدال



يا طلــل البحــر أجب خاطـري — أيــن أحبـائــي صحــاب وآل
أكلتهــم يا بحــر في لهفـــة — فاصبحــوا هــذا التـراب المهال
ومـا رحمت الطفــل مسترحمـا — ولا أبــاه ضـارعـاً أن يقـــال
وكـم حسبنـاك عظيــم الجـدى — فكنــت يــا بحــر عظيـم الوبـال
وغـرنـا منــك وميض الســنا — نحســبه ـ زورا ـ وميـض الـلآل
مــا أنــت الا خــائـن للهــوى — اذا امتطينـــاك أطلـت المطـــال
تمهلنــا حينـا ليــوم النــوى — وتــدعــي أنــك رب النـــوال »

* * *

فزمجـر البحـــر لتجـديفــه — وارتطمــت أمـواجــه كالجبــال
وهــب غــول البحــر فاغتـالـه — والحـرب بـين الخائضيهـا سـجال
فكــان للشــاعــر ابـداعــه — وكـان للغـائـل فصــل المقـــال

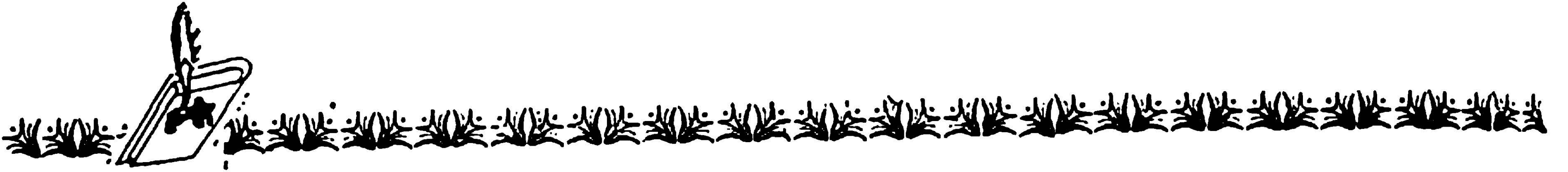
ـ ٤ ـ

وأبصــر الـرابـــع اخـوانـــه — في الشـفق الباكـي وراء التـلال
لمـــا رآهـــم هلكــوا في الصبـــا — من دون توديــع لعهــد الـوصـال
مسـخ صخـــراً جامـداً في الــورى — يخلــد الماضـي ويرثــي الخصـال
قـام عـلى البحـر لطـول المدى — تمثـال صـدق عبقـري المثــال
ان رشــه المــوج بـدا واجمـا — وقـد جـرت أدمعــه في انمهـال
فقيــل هــيروس الــه الهــوى — وقيــل أبـولـو الــه الجمـــال
كــم نحـت الـدهـر أساريــره — وصقــل الجثمـان أبهـى صقــال
يبصــره النــوتــي مــن فلكــه — اذا نــاى في الفجـر نحـو الشمـال
مــا خطبــه ؟ مـا ذنبــه ؟ انــه — لم يــات شـيئاً مــن قبيـح الفعـال
وانمـــا أفنـــاه اشفـاقـــه — على خليـــل ألمعــي الخــلال
مــا المـوت ؟ ما الحشر ؟ وكيف اللقا — ان أطفـات هوجـاء نــور الذبال ؟
رجعــت في أمــري الــى خـالقـي — ســبحانـــه منفـــرد بالجـــلال

ـ ٥ ـ

كـــم واقــف مثلــي عــلى شــاطىء — تسـوده اللوعــة والانعــــزال
يعلــل النفـس بطيــف الصبـــا — وللصبــا نجــم طــواه الــزوال

* * *



أجنحــــة مبسـوطـة في الفضـــا　　أم شــرع عــابـرة في الخيـــال ؟
أم تلـك فـــوق اليـم عن جانبـي　　خطائـف البحــر خفــاف عجـال ؟
تهـــوي مـــن الآفـــاق منقضـــة　　عــلى ذرى المـــوج هــوي النبـــال
وتنشـــل الأسـماك مــن جـوفـه　　ثــم تؤم الأفـــق بعـــد انتشـــال
وتـــارة تســبح في لجـــــة　　رقــراقـــة فيـاضـــة بالـدلال
مــا أشبه الدنيـا بسـرب القطـــا　　لولا صـداهـا في بعيـد المجـــال

* * *

ايـــه طيـــور البحـــر شبه الردى　　مـــاذا حـــداكـــن لتلـــك الرمـال ؟
جــرداء مــا فيهـــن الا الظمـــا　　وطلـل للتــرك ينعـى القتـــال
وهـــرة قـــد أكلـت طفلهـــا　　والبحــر يرغـي مزبداً في انشـغال
بالأمس كنـــا هـــا هنـــا صبيـــة　　نلهـــو مـع الفلـك اذا الفلك مال
واليـوم ما أوحش هـــذا الحمـى　　يرنـــو الـــى خالقــــه في انذهـــال

* * *

ايـــه طيـور البحـــر هـل رجعـة　　الى شباب العمـر بعـد اكتهـــال
وهـــل يرد البحـــر مـــن قـــارب　　ضلوعـــه قـــد أكلتهـــا السعال
رجعـت في أمــري الــى خالقـــي　　ســبحانـــه منفــرد بالكمـــال
يا بحـــر ايقـــز يوم(١) أين الذي　　بنـــى بهـــا الأسـوار ثــم استطال
وأيـــن عشـــرون فتـــى حـولـــه　　بنـــوا عمـاد المجـد مثـل الجبال
هــم العمـاليــق بفجــر الـدنـــا　　قـــد علّمـوا المغـرب خـلق المحال
وأيـــن فينيــــق وأيـامهـــــم　　خانقـــة العيـش بعـــز ومـــال
لا تنــس رومـــا ان حكـامهـــا　　أخـلـوا وأجـلـوا وأبـادوا النجـال
واستعبـــدوا الشــعب فعـــم الأذى　　ونـاضـل الشعب فطـال النضـــال
افريقيــا مـــوطـــن أســـد الشـرى　　فاحـــذر بنـــي افـــريقيـــا أن تذال
لا تنس يـــوبــا انـــه مـــاجـــد　　كـــاد يضاهـــي في العـلا (حن بال)
زعـــزع قـــوس النصــر مذ شـاده　　سبيـــون بالـــزور وســـوء الفعـــال
امـــارة في الأرض قـــد أصبحـت　　حجـــارة مفـــروشـــة للنعـــال
تضحـــك أو تبكـــي كمـــا لو تـــرى　　يــوم الثـلاثـاء رؤى الكـرنفـــال
واذكر عـــن الونـــدال قومــاً عثـــوا　　وأصلـــوا المغـــرب نار اشـــتعال



قيـل غــزاة لهــم صـولــة　　أينهــم اليــوم وأيــن الصيال
لقـد قضـوا بالزور ثـم انقضـوا　　والمجـد بـاق هـا هنـا لا يــزال

★ ★ ★

يـا طلــل التــرك بمزغنــة(٢)　　ســل طلـل الاسبان والبـرتغــال
أين الأسـاطيــل وحكـم أتــى　　بالسيف والنطـع وحجـز الغـلال ؟
كارلوس(٣) يدعو الجنـد أن يثبتوا　　وسـفنه غـرقى تعانـي الـوبــال
فانتصــرت في البحــر مزغنــة　　وغـاص في اللجــة جيش الضـلال
بـل أين قــوم زعمــوا بعـدهـم　　أن يحجبـوافي الأرض نور الهـلال ؟
عـلى حصـان من بــرنـز رسـا　　قبـالـة المسجد كيمـا يقـال ...
اقــام قــرنـــا بيننـــا راسيـاً　　وزد عـلى القـرن السنـين الثقـال
حتــى امتطـى البحـر الى أهلـه　　وعـاد مـن حيـث أتـى واستقال
ما أنـس لا أنـس عــداء الألـى　　أجـروا دم الطفل وذات الحجــال
فرّوا عــلى السفن بجنـح الدجى　　وحملــوا أعـلامهـم في السـلال
والأرض مثـل العِـرض منّاعــة　　الا لمـــن يخطبهـــا بالحــلال

★ ★ ★

أعــراس نيبتــون وافـراحـــه　　مآتــم الدنيــا بســود الليـــال
رجعـت في أمــري الــى خالقـي　　سـبحـانـه منفــرد بالكمــال

آذار ١٩٨٢　　الطاهـر بوشوشي

★ ★ ★

□ تعـاليـق :

١ - ايقز يوم باليونانية معناها العشرون وهم الأبطال العشرون الذين رافقوا هركول في غزوه للدنيا في مطلع التاريخ .
٢ - مزغنة الاسم البربري القديم للجزائر قبل الفتح الاسلامي .
٣ - كارلوس الخامس امبراطور اسبانيا في القرن السادس عشرمني بهزيمة شنعاء في خليج الجزائر فاغرق اسطوله كله بانتصار الاسطول الجـزائري .

المحـــرّرون

مهداة إلى نصاح وصالحي، وميموني وعليلي عبد الرحمن

محمد عون

انهـم لمنشدون من وراء مسيرات الفصول الرائعة
ما بعـد زوارق الارادات ٠
كبحـارين شبان ذوي نظـرات مملوءة ٠
موانىء ، وصباحـات ، حيث ستزدهـر جباهنـا ٠
انهـم أصدقاء الانسان منذ آلاف السنين الفانيـة ٠
وعندمـا يشقون المـدن تحيا الأحـلام من جديد ٠
ويحومـون فـوق حقـول الليالـي الأسطورية ٠
فاذا بزمـان عجيب زمـان ، زمان التحرير يسطع
ويعلمنـا ، وينشر فوق سهولنا ، عبر سحر شواطئنا الفريدة ٠
التي تنسجها ، وتمددهـا اراداتهم الزاهيـة ٠
وزمـن عجيـب ، ينضجنـا ويبهـرنا ٠
وأحيانـاً وطول الشوارع التي ينبعث نخيلهـا ٠
عنـد ذكـرى كـل العشـاق ٠
غمـروا تحت أمطـار النسيان التي تاملناهـا ٠
لهـؤلاء المحررين الذين تحركت احساناتهـم ٠
« كانك تهمسين لهـم » زرابي من مجـد ٠
هـم هـذه الأمسيات حيث نحـن ٠
(الغربـاء عـن القـرون الشنيعـة) ٠
نسـتمع اليكـم تباركـون وتطهـرون ٠
هـذا العـالم ونحن تحت أعينكـم البعيدة نلمع ٠

شعر مترجم عن الفرنسية

لمحمـد عـون

أناشيد روسية

إدريس بوذيبة

\- ١ -

احزن أو لا تحزن
فالسنوات القادمة
أقسى سنوات العمر
وأقسى من كل التأويلات
ومن كل أقاويل الصحف الأولى
هيىء نفسك
لا يفجئك الوجه القادم ...
انهمو آتون

لا تتلولب آنئذ
ان التقهقر للخلف جبن
أن تشنق اصباحاتك
أن يغتالوا حلمك وعصافيرك
جبن ...
جبن ...
جبن أن تسكت

\- ٢ -

يا قنفدي الطبع ، ويا أخطبوط العصر
لا تتشرنق ...
أينك أنت ؟

أين صهيل الخطب الشعر جواز مرورك للاحتفال
بأرصدة قادمة ؟

اينك انت ؟
أزفت الساعة ....
حدق صوبي ...

اني أخلط كيمياء الوقت بأنفاسي ،
وملح الدم المتساقط من أوجاعي .
اني أسمع أنة قبرة اغتيلت في نيسان الحلم الزهر ،
ليموت الليل ...
حدق صوبي ...

اني أحفر في أثلام القلب مجاري أخرى

لن تنساق لحوض البحر ،
هذي المرة لن تنساق

حدق قبل فوات الوقت ...
اني - لو تدري - كالأشجار
أغير أوراقي ولحائي
لكني لن أبدل أسمائي
ولن أبدل نبضي ومواقع خطوي .
أنتقم الليلة لعصافير الشعر الحلم
للأزهار الراشحة
بالفجر .

من علق أوراقها للريح وللموت ؟

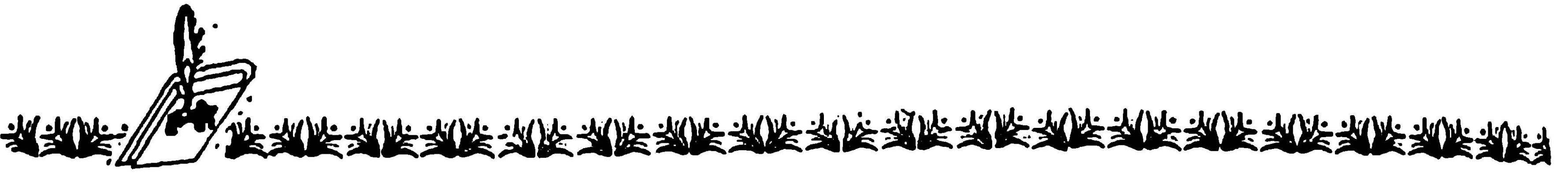
من هرب صوتي النابض بالكلمات ، الساحق لأفاعي
البطش ؟

لن يهدأ جرح الزهر ...

سأفضح بئر الزيف ،

وأكشف خيط السر .

فالحرس الرابض في جنبات القصر



اشلاء بطلاء الزيف مموهة ·
سأدك القلعة
وسأنزع أحلامهمو المنقوشة فوق الماء
لن أعتصم اليوم بغير العشب ،
ومن لبنات العرق الموج سأصنع وطناً ،
يسكنه الشعراء ، والفقراء ·

ـ ٣ ـ

أتدجج بالنار
أتوهج داخل أعصاب الأرض
فقميص الليل سينشق
وستخرج أفعى ···
لا تقتات سوى برحيق العين
ودم القلب ·
وستلتف بقسوة
حول الجذع
وستملأ هذي الأرض فحيحاً وخراباً ···
من ذا يخرج من كهف الصمت ؟
اني منتظره ···
يا انسان الفجر البرق
توكأ فوق حطام عظامك
فالألم الأعظم كان رفيقك منذ البدء ·

ـ ٤ ـ

(أنليل)(١) يصدر أمراً بالتخريب وبالتدمير
وتفشى الداء وساد القحط
وتمردت الأرض فأنبتت الملح
وجف الحقل فلم ينبت الا التيه
وأوراد الرمل الشاحب ···
وتحرك (آيا) فزعاً ···
(أنليل) يصر على التدمير
فالضحكات الصافية
أهازيج الفرح الطفل
تخدش صفو النوم لديه
انهمو البشر ···
أنى تمشي تلقاك وجوههم الملأى بالازعاج
زرعوا الأرض ضجيجاً
عاثوا في الأرض فساداً بالتعمير
لم نخلق أحداً عبثاً
من ذا أخرجهم للكون ؟
ما أسوأ يا (أنليل) أن تتمرد أشياء من صنعك عنك!
وتحرك (آيا) يفشي السر الأعظم في الأنحاء ···
« هدّم بيتك يا (أوتنا بشتم) قبل فوات الوقت ،
ابنِ من قصبات السور سفينة
تصبح هذي الأرض غير الأرض
وسيطلق (أنليل) أمره
بالكسح وبالسحق
لا عاصم الا قاربك الأوحد من طوفان الرب
الغاضب · »

ـ ٥ ـ

يا حبيبتي المبطنة بالنار
تلفك الصعاب والمداخن العتيقة
أمارس انتعاشي البحري
وأحمل اليك رؤية الشهيد والنبي ·
سيهرم الأطفال
تعقم النساء والفصول
وتغمر السيول والدماء
شوارع المدينة
ومن عوامة العذاب والألم
سيخرج الانسان ـ في رعشة الولادة ـ كمدية يمزق
الحجب ·
سيعزف التراب والسماء

أنشودة البشر

يا شاعر المدينة

لم تنته المدينة !

ـ ٦ ـ

تهرول الأيام والسنون

تهرب أعمارنا في لجة العويل

ووجهك الحزين في غيابك الطويل

يقاتل الحدود

زنوبة الأشواق والرؤى

زنوبة الحنين والرسائل المهربة

اني هنا من أجل حبنا المصادر العنيد

مبعثر ممزق شريد

رسائلك ...

تجيئني في العام مرة

تجيئني في العمر مرة

خطها الجميل ما به ؟

مجرح الفواصل

مكسر الحروف

وحبرها يضج بالشحوب

فما الذي أزال عنه النمنمة ؟

وما الذي أقحمه في العتمة ؟

رسائلك ...

واحدة تمر من دمي

واحدة تعانق الجدار

وواحدة ، تساقطت في أعين الرفاق .



هامش :

١ ـ ان الآلهة اجتمعت واجمعت بتحريض من الاله (انليل) على احداث الطوفان . لكن (أيا) هو الاله الوحيد الذي عارض القرار الذي دبر لافناء البشرية وابتلائها بالوباء والقحط ، فسرق السر الأعظم وأفشاه (لأوتنابشتم) وحذره من خطر الطوفان القادم وأمره بصنع سفينة يحمل فيها من كل زوجين اثنين ليحافظ على الجنس .

(عن ملحمة جلجامش)

سكيكدة في فيفري ١٩٨٢

آه .. لو ينطق الشهداء !.

محمد بلقاسم خمار

وأقبلت ، أسرعت ، اقدمت ،، ٠٠ !
وأحجمت ، أدبرت ،، غادرت ، ٠٠٠ !
فما كنت لي عند يوم الرجوع
ولا كنت لي عند يوم الوداع
ولا يوم أوقفت راحلتي عند خط الوصول
الى اللا وصول ٠٠٠ ؟

* * *

تذكرت أطياف وجهك
ابصرتها من خلال الدموع
وكانت غبارية اللون ؟
عيناك ،، باهتتان ،،
مراياهما خلف بحر الضباب ،،
تشعان ، ترتعشان ،
بقايا لهيب على شاطىء من ركام الشموع
وبيني وبينك مد البحار
فكيف الرجوع ،،
اليك أيا زفرة القهر بين الضلوع ؟

* * *

وعيني ترف
تذكرت ،، والشوق آخر زادي
وفتشت عن صورة غضة لك
أو بسمة منك
أو جملة في حقيبة عمري ،،
فتشت حتى سلال الصحف
عن قصتي عنك
أو أي شي كتذكار
أهديته لي ،، ولو مرة في الحياة
الى زمن الحب ،، والشوق ،، والانتظار
وفتشت ،، وفتشت ،
لا شيء ،، غير الأسف

* * *

وأدبرت ،، أسحب رجلي
بلا أي خف
وكانت على ظهر كفي يدي
وشوم هلالية الشكل
كانت بقايا خدوش
وأدركت أن التي قد عشقنا ملامحها
سحروها ،، وأصداؤها سحرتنا ،،
ويوم انتحار الفراق
قطعنا اليها الربى والمروج
ولكنها أنكرتنا
حبيبتنا جرحتنا ،، رمتنا ،،
وصارت تميل الى البعداء
تمد لنا الشوك ، والورد للغرباء
حبيبتنا سلبوها
الا رحم الله ذاكرة الشهداء
وللعاشقين على كل رف ،،
وفي كل كهف ،،
صلاة الرجاء
والأسف ٠

* * *



سقى الله أيامكم يا ضحايا الشرق
فاي الينابيع في نهركم لم تجف
وأي المواكب للبذل من بعدكم لن تقف
بنيتم لكم في السماء البروج
وصرتم نجوما لآفاقنا
تخطط للمدلجين الهدف
وعبدتم الدرب نحو العلا للخلف
وسارت قوافلنا بعدكم
ولكن ريحا شمالية فرقتنا
أصابت بتيارها شمسنا
ومرت على قبس الضاد فينا
مرور اللئام
وقالت لتيار أوراس : قف
وسرنا فرادى ،، فتهنا
نسابق قامتنا كالظلال
ونخشى اذا ما التفتنا الى جهة الشرق
نخشى اذا ما رأينا السماء ، التلف
فقدنا طفولتنا ،، ثم عدنا اليها بعمر الكبار
نسينا خناجرنا في الجبال
وركضنا الى الأهل نحبوا كحبو الصغار
ننوء بعاهاتنا
نستجير بآفاتنا
جياعا ،، نلوب بحرماننا
نطارد كل الصدف
الى أن رمتنا الليالي شظايا نتف

* * *

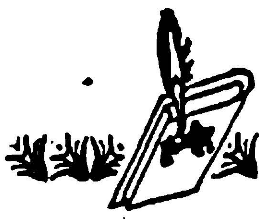
مشينا على الجسر من جثث الشهداء
ولم نكمل الجسر مثل السلف
ودسنا باقدامنا قبلات العناق
ولم نهب الجسر في زحفنا أي شيء براق
ولم نمش كالجند صفا لصف ،،
وما كان كالأمس واحدنا مثل ألف
ورغم اختلاف المسافات في القرب والبعد
حيث المتاريس لما تزل تتربص حين انطلاق
ورغم التهافت في جبهات الخطر
صمنا عيون الحذر
نسينا الملاحم مسحورة في جنون الترف
تركنا المنصة بالقرب من هوة المنعطف
وباسم الاخاء دفنا بذور الشقاق
وباسم الولاء رضينا التعدد في وجهات النظر
وباسم الصفاء نسفنا يمين الطلاق
وباسم التسامح •
ـ والثار في أرضنا يرتجف ـ
سلكنا سبيل الوفاق
وقلنا لجلادنا : لا تخف •
عفا الله عما سلف •

* * *

لقد مات « هتلر » منذ نصف قرن
ولم يبق من عرشه حائط أو سقف
ولكن ذاكرة الفيل في الغرب
ينعشها الاحتراق
فلم تطفىء النار ،،
لما تكف
تغذي انتقاماتها ألف فرن
ومذ نصف قرن
وكفارة النازيين الذين أبيدوا
يسددها الأبرياء من العرب النازحين
ومذ ألف قرن
وباسم الصليبية الأم
نصلب في كل أرض وفي كل حين
وباسم الصلف •
وها هي ايران ،،
يغمرها النور في ليلة القدر
فتمضي الى الانعتاق
ولفتك درب الخلاص
على شد غزوة بدر
وتصدع آياتها البينات
بلفظ قوي مبين ،،
الى موعد الثار
يا مسلمين ،،
وتفتح للمجرمين الملف
وتعلن ميلاد يوم القصاص
فعين بعين ، وساق بساق
وكل امرىء يتقاضى بما قد جنى واقترف

* * *

ومن قبل كنا
اذا المرء منا انحرف
فليس له غير رجة سكين
أو حبة من رصاص ،،
وقد كان أدنى قصاص
لفافة تبغ بأنف



ومـن بعـد صرنـا
نرى الذنب مهما طغـى وانكشف
اذا ما بدا عهده من سنين
نحـاذر ذكراه حتـى ،، باف ،،
ونحضن فاعـله باشتياق
ونمطـره بالغـلال
ونقـذف مفعـوله بالحشف
ونرفـع أصواتنـا بالدعـاء :
عفـا الله عمـا سلـف ٠

* * *

يمـوت ـ تشومبي ـ كجرذ سجين
ويرمـى بـه كالجيـف ،،
ويسـحل نوري ـ العراق
يـداس بأحذية الفقـراء
ويستل سيف العدالة في كل كف
يطارد شـاه ونوبان ايران
يحصـد في عصفه الخائنـين
وأرنـو الى بعض من في حمانا يلف
وهم يحملون بهاماتهم وصمة العار كالآخرين
ولكـن مصائرهـم تختلف ،، ؟

* * *

وألعـن ريف المكـان وظلـم الزمـان
ويجتاحني الألـم المر يحتل مني الخناق
فالعن أحلام أيام (آذار)
وأوهـام أي اتفـاق
وأجـواء كـل الغـرف
وألعـن من يتسلل خلف النفاق
لينهش لحـم الكتف
وأشـعر بالقيء يعصرني
بالقـرب
اذا ما تأملت أسباب مـوت الرفـاق
وأسباب دنيا عفا الله عما سلف ،،،

* * *

عفـا الله عمـا سـلف ٠ ؟
ومـن قـال هـذا ،،، ؟
وهـل يسمـح الله ،،، ؟
اذا كان في العفو أن نهجر الشهداء
ونلقي بأكبادهـم ،،، برسالاتهم في الخراب
ونحشر من جاهدوا في زوايا العفـاء
ونرحـم أي خبيث دلف ،،، ؟
وهـل يسـمح الله ؟
أن نتناسـى العـذاب
ونحنـي الخدود لمن جز منا الرقاب
ليصفعنـا بالأكـف ؟
وهـل نرتضـي من عـدو حقود
ليلقـي بتاريخنـا في الضبـاب
وأمجـاد أبطالنـا
ويسـلب أفـراح أطفالنـا
ويلهـو بهـم في مدارجـه كالتحف ٠ ؟
الا ،، لا عفا الله عما سلف ٠

الفراشة

حمري بحري

كانت تأتي لحقول القمح المرشوش بزهر النعمان .
وتطير على هامات الأشجار ، وفوق الأعشاب ؛
وبين الوردة والسورة ...
وتحط على قرب مني
أتفرج فيها ؛ ثم تطير
ويطير القلب وراء جناحيها .
كانت أول لون يدهشني
وأنا طفل مأخوذ بالألوان
وركضت ألاحقها في كل مكان .
وتركت ورائي قريتنا
ودخلت قرى أخرى
والعمر جواد يركض في خيط من دخان .
وسألت كثيراً عنها
قال النبع وزهر الرمان :
مرت ...
وأشارا نحو شجيرات التوت
وبأعلى غصن ...
كانت تتدلى في خيط وتموت
وأنا ما زلت ...
أتشبث بالشجرة
والعمر يفوت .



دموع جلجامش

د . بوشعير رشيد

أنكيدو .. أنكيدو .. أنكيدو
مهمل أنت ، على الثرى ممتد
عيناك ضارعتان الى السماء
أأنت طود أشم
أم أنت اعصار محتد ؟
لسانك يتدلى
يحفر النمل على صفحته
ألف درب ودرب
والأنف منتصب
علماً ممتنعاً في حومة حرب
لكن الدود تنهشه
كالنسور الضارية
تنتزع فتات اللحم
من كتف عارية
وغابات شعرك الفاحم
على الجمجمة ، والصدر ، واليدين
تترنح في مهب الريح
وتسقط كأوراق الخريف
وأنا أبكيك ، يا صديقي الحليف
بالرعد ، بالمطر ، بالدماء
أيها الليل العصيف
وأنا أبكيك، يا صديقي، يا قلبي النابض
بالذكرى ، بالكبرياء
بالحزن الرابض
ولهب الصحوة
يحرق روحي
بالسؤال تلو السؤال
عن سر الخلود
وسر الزوال
عن أنف يأكله الدود
عن موت مقلتين
عن موت كفين



كانتـا ترعبـان الجبـال
وتعصـران الليـال
يـوم النـــزال

* * *

أنكيـدو .. أنكيـدو .. أنكيـدو
يا أمـــلا مسجى
مـن لي بزنـد بعـدك
يـوم يفتقـد الزنـد ؟
من لـي بصرخـة بعدك
تـدوّي في الشـعاب
فتـرجـف الرعاديـد ؟
من لـي بصولـة ساعديك
فتحنـي جباه المـردة
والطغـــاة
والصنـاديـد ؟

* * *

كـم أرهقتني التيـه في الأدغـال
والبحـــار والوديـان
عبثـاً أفتش عن اكسـير الحياة
لـك ، يا صديقي المسجى
يا نبعـاً مـرجى
هأنـذا أكسر عصـا الترحـال
وأجثو عنـد رأسـك المعفـر
أسـكب دمعـاً
من شيمتـه أن يتكبـر
أسـكب دمعـاً في مقلتيـك ..
ربمـا تعـود اليهمـا الحياة
فينثـال النـــور
ويـذوب السـبات
يا أنكيـدو ، يا وطنـاً
تنهش الديـدان خلايـاه
يا شـهيداً أحيـا بسـناه

د. بوشعير رشيد
(الجزائر)



مقاطع من قصيدة

قراءة طلسمية لكف مذبوحة*

عز الدين ميهوبي

- ١ -

لن أبحر في عينيك ..
وأجعل هذا البحر مرايا صامتة كالحزن ،،
وأعكس أيام القحط المشدودة كاللغة
الموؤودة تحت مواجع هذا القرن ..

لن أكتب في عينيك ..
فأنت بداية حرف موروث عن ألف نبـي
كان يموت ولا يترك غـير الفطرة
تكبر داخل أرحام الطـين ..
لن أسقط في عينيك ..
فاحمل في نعش الرؤيا
ويصلي البحر عليَّ
وأمنح صكاً للغفران
لأكمل مرحلة التدجـين ..

- ٢ -

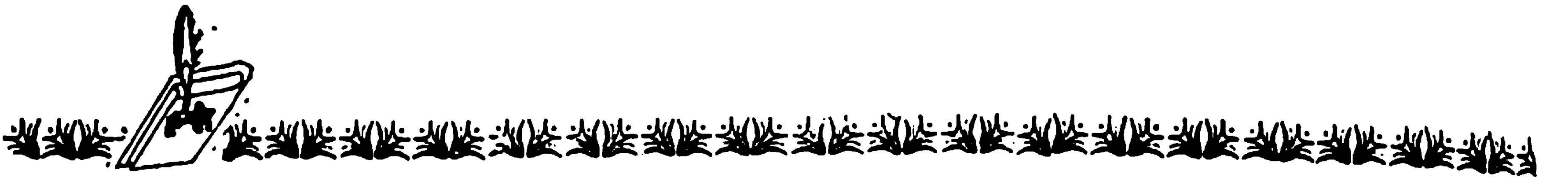
ناديت البحر ..
لماذا يخافك قحط الأرض
وقافلة الأسماك تشد اليك زعانف
تحمل روح الماء ! ؟
ناديت البحر ..
لماذا الرمل تمدد عبر الشاطىء
ينتظر العودة نحو البدء
ويغمض جفنك ..
مسكوناً بالصبر ورائحة الصحراء ! ؟ ..
ساضم الرمل ..
الى أزمنة تتجرد من سفن بلهاء ..
لتختزن الشطـآن
وتحتضن الأنداء ..
ناديت البحرَ ...
ففاض الموجُ
وكنت أسافر صوب البحر ..
ألاحق صوت البحر ...
لأجمع آخرة الأصداء ..
ناديت البحر ...
ففاض الموج ..
وعدت ألملم قافية الميلاد الأول ..
أحفرها كالثلم على شفة
لا تعرف غير رحيل الماء !!..

. . . .

تتقاطع في حلقي الكلمات المرسومة
في سفر أزلي يتلى
عند صلاة الفجر ..
وعند مجيء الأموات بلا أكفان ...

يا شاهد موتي ..
أنا من برج ..
لا يعرف غير الحب المذبوح
وحلم لا يكبر في جفن أخضر
لا يعرف غـير الغوف
وآخرة الأحزان ...

* قصيدة طويلة .. تشكل ديوانا مستقلا . كتبت خلال صائفة ١٩٨٣ .



كلمة الدكتور محمّد العربي الزبيري

الأمين العام لاتحاد الكتاب الجزائريين

أيتهـا الأخـوات ،

أيها الأخوة الأدباء والكتّاب العرب ،

انه لشرف عظيم بالنسبة لاتحاد الكتاب الجزائريين أن يقع عليه اختياركـم لاستضافة المؤتمـر الرابع عشر ومهرجان الشعر السادس عشر ، ويشرفني ، شخصياً أن أنوب عن جنود القلم ومناضلي الكلمة الحرة بالجـزائر ، فاتوجـه اليكم جميعـاً بالتحية الخالصة ، وأرحب بكم في بلدكم متمنياً لكم اقامة طيبة تمكنكم ، زيادة على تأدية الواجب الذي جئتم لأجله ، من تمتين الصلة وتوثيق العلاقة مع أشقائكم ، ومن التعرف عن كثب ، على منجـزات ثورة نوفمبر العظيمة في جميع المجالات • أما الذين شاركوا ، في المؤتمر العاشر ، فان تواجدهم هـذه المرة بيننا سيسمح لهم بتقييم الخطوات الجـديدة التي قطعناها في حوالي عشر سنوات •

واذا أحييكم ، فانني ، كـذلك ، أشكر كـل واحد منكم جزيل الشكر على تحمله متاعب السفر، وتضحيته بالوقت الثمين والمشاغل اليومية الخاصة في سبيل المشاركة الفعلية في معالجة القضايا الهامة التي يطرحها جدول أعمالنا ، والتي هي على صلة وثيقة بحياة الأمة العربية الجريحة في أكثر من مكان وعلى كثير من الأصعدة •

نعم • نحن لا نعتقد أن من السهل على الانسان العربي الواعي أن يدرس أي موضوع يتعلـق بوجوده الخاص أو بالمحيط الذي يعيش فيـه دون التعرض ولو بايجاز ، الى الوضع المزري المفروض على هذا الذي نسميه تجاوزاً وتطاولا ، بالوطـن العـربـي •

فمن هذا المنطلق ، أستسمحـكم لأذكر بـأن كل مناقشة لموقع الأدب العربي من الثقافة والاعلام لن تكون كاملة الا اذا أخذنا بعين الاعتبار واقـع الفكر والايديولوجية في كافة البلاد العربية ذلك أن الأدب اذا كان هو الذي يفرز الفكر الخـلاق الذي يضع الايديولوجيـات ، فان هذه الأخـيرة ، عندما تكون مهيمنة ، هي التي توجهه وتؤثر فيـه وتوفر للفكر مجالات الازدهار والتطور • ومـن المعلوم ، كذلك ، أن الثقافة والاعلام يخضعـان للسياسة التي توضع لهما من طرف الأنظمة الحاكمة وفقاً لايديولوجية معينة •



وعلى هذا الأساس ، يبدو لنا أن المشكل الرئيسي يكمن في مدى قدرة المثقف العربي ، بصفة عامة ، والمفكر والأديب ، بصفة خاصة ، على التأثير الفاعل في الايديولوجية المهيمنة، لأن التمادي في الاعتقاد بان السياسة شيء والأدب شيء آخر لن يقودنا الا الى خلق نوع جديد من أدب القصور الذي يهمل الجماهير الواسعة وما تعانيه من هموم ومشاكل أو يجعل منها ملهاة لطبقة صغيرة أفقدها المال والجهل كل حس وطني .

وبعبارة أكثر وضوحاً ، فان الأدباء والكتّاب العرب يجب أن يخلقوا لأنفسهم الظروف الموضوعية التي تمكنهم من احتلال مواقع الصدارة ، أي مناصب الحل والربط في كافة الأنظمة العربية ، حتى يتمكنوا من الاسهام حقيقة في بناء مستقبل الأمة العربية الذي نريده خالصاً من كل أنواع الاستبداد والاستغلال .

ان الأديب الحقيقي والمفكر الأصيل قادران على القيام بالدور الريادي في عملية تكوين الجماهير ورفع مستواها الثقافي والسياسي وفي تعبئتها ، بعد ذلك ، من أجل صنع المعجزات ، انهما يشكلان همزة الوصل بين القواعد الشعبية وحكامها .

وان هذه الوظيفة الخطيرة لا يمكن تأديتها الا اذا عرفنا كيف نكسب ثقة العمال والفلاحين والشباب ، ومعلوم أن ذلك موقوف على مدى تحلينا بمجموعة من الخصال أهمها الشجاعة والصدق في التعبير عن طموحاتهم من جهة وفي ترجمة سياساتنا التنموية من جهة ثانية أن علينا أن نتخلص من عقدة ما يسمى بأدب السلطة ، وأن ندرك بان الانفصال عن هذه الأخيرة مثل الانفصال عن الجماهير لا يساعد الأديب على القيام برسالته على أكمل وجه . ولكن التواجد هنا وهناك في آن واحد ، هو وحده الذي يفسح المجال لخوض الثورة الثقافية التي ما أحوجنا اليها لتكوين انسان عربي جديد قادر على مواجهة التحدي في جميع الميادين .

وهناك عقدة أخرى يجب علينا التخلص منها وتتمثل في توزيع لصاقات الرجعية والتقدمية على جبين هذا أو ذاك من كتّابنا وأدبائنا وذلك في الوقت الذي نحتاج فيه فقط الى توحيد قوانا من أجل التقدم في طريق التنمية الشاملة لأن حالة التخلف التي توجد عليها جماهيرنا لا يقضى عليها الا بتظافر الجهود ولأن وضع الأمة العربية في غنى عن كل المشاكل الهامشية وان معالجة موضوع الأدب العربي بين الثقافة والاعلام ينبغي أن تشكل بالنسبة الينا جميعا اطاراً واسعاً يساعدنا على اعادة النظر في كثير من المصطلحات والمفاهيم وعلى التامل في صيغة جديدة لمواجهة الاستلاب الفكري الذي يمنعنا من وضع الاستراتيجية العربية القادرة على التصدي بنجاح للغزو الامبريالي والصهيوني في ميداني الثقافة والاعلام .

أيتها الأخوات أيها الأخوة .

ان انعقاد مؤتمرنا هذا يأتي في فترة حرجة من تاريخ الأمة العربية ، ومن غير المعقول اطلاقاً أن يجتمع ممثلو المفكرين والمبدعين العرب : فيتحاورون ويتناقشون طيلة أربعة أيام كاملة دون أن يلتفتوا الى قضايا الساعة التي تهز الساحة العربية، أي دون أن يتعرضوا لقضية فلسطين وما يجري في لبنان والأراضي العربية وفي الصحراء الغربية ودون أن يناقشوا حقيقة الحرب التي تدور رحاها بين ايران والعراق .



وبالنسبة للكتّاب الجزائريين فانهم يرون أن مأساة الوطن العربي تكمن في عدم الاهتمام بالانسان وحرمانه من ممارسة الديمقراطية التي تمكنه من تحمل مسؤولياته كاملة سواء في مستوى اتخاذ القرار الخاص بها وتطبيقه • كما أنها تكمن الى حد كبير في الهجمات الاستعمارية المكثفة المركزة على الاعلام والثقافة خاصة ، والهادفة الى فصل الأنظمة العربية عن جماهيرها لأن ذلك هو الشرط الأساسي للابقاء على حالة الاستغلال والتجهيل والتبعية الدائمة •

وان الجزائر الواعية لهذه الحقيقة لتخوض خاصة منذ المؤتمر الاستثنائي لحزب جبهة التحرير الوطني ، معركة اعلامية وثقافية كبرى يرعاها شخصياً ، فخامة رئيس الجمهورية الأمين العام للحزب : الأخ الشاذلي بن جديد • وآمالنا واسعة في أن تنجح هذه المعركة لأن على ذلك يتوقف نجاح الشعب الجزائري في تحقيق استقلاله الكامل •

ولكن الجزائر تؤمن بأن مصير الوطن العربي واحد ، وبأن العالم ، اليوم ، يعيش عصر الاتحادات والتكتلات ، وعليه فاننا مدعوون من خلال هذا المؤتمر الى العمل على وضع برنامج عمل يكون في مستوى طموحات جماهيرنا الشعبية وقادراً على الاسهام بقوة في تغيير الذهنيات الجامدة وارساء قواعد الحرية والديمقراطية التي يتوقف على حقيقة ممارستها ترشيد المجتمع •

أتمنى لأعمالنا كل النجاح ، وأرحب بكم مرة ثانية ، وأقول بصوت صارخ : عاش النضال الصادق من أجل اقامة علاقات عربية جديدة في جميع المجالات ومن أجل تكوين انسان عربي قادر على التغيير ، غيور على حريته واستقلاله •

والسلام عليكم ورحمته تعالى وبركاته



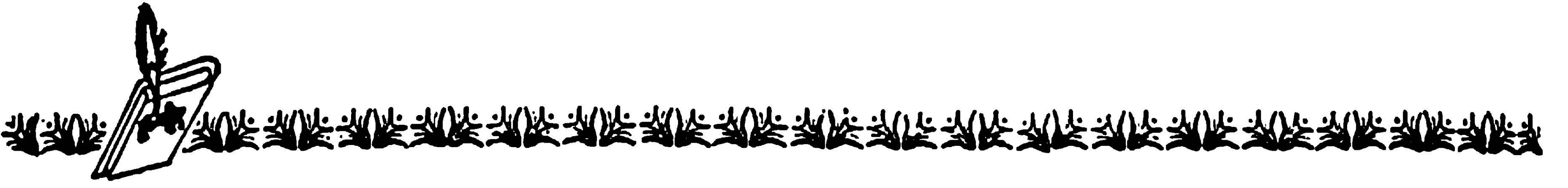
كلمة الأخ بوعلام باقي

عضو المكتب السياسي وزير العدل

أيها السادة والسيدات :

يسعدني أن افتتح مؤتمركم باسم القيادة السياسة وعلى رأسها الأخ الشاذلي بن جديد رئيس الجمهورية والأمين العام للحزب ، وانها المناسبة سعيدة هذه التي تجمعنا بالكتّاب والأدباء العرب على أرض عاصمة بلادنا التي تعتز بوجودهم وتفتخر باحتضانها لمؤتمرهم فمرحباً بكم أيها الأشقاء بين اخوانكم وفي بلدكم حللتم أهلا ونزلتم سهلا .

ان مؤتمركم الرابع عشر الذي تعقدونه ابتداء من اليوم والذي يتعرض فيما يتعرض الى موضوع الأدب العربي بين الثقافة والاعلام تعلق عليه جماهيرنا بالجزائر أكثر من كل بقعة من الوطن العربي آمالا كبيرة وتنتظر منه الحلول الناجعة سواء في ميدان الثقافة أو في ميدان الاعلام وهما ميدانان لا يزالان عرضة لغزو أجنبي يقصد الهيمنة على الثقافة والاعلام وتسخيرهما لخدمة مصالحه ويريد التأثير على التقاليد والقيم الوطنية بما يعرضها للمسخ والتبديل ، وان الوسائل المادية والبشرية التي يسخرها في هذا السبيل لجديرة بأن تمكنه من بلوغ أهدافه لو لم يكن لها كتّابنا وأدباؤنا بالمرصاد ، وان الجزائر التي عرفت الغزو الاستعماري بكل ما تضمنه من بلايا ورزايا ومحاولات التجريد والتغريب طيلة قرن وربع قرن لم يبق شعبها مكتوف الأيدي أمام هذه المحاولات التي كان هدفها القضاء على مقومات شخصيته والذوبان في شخصية مغتصبيه بل دفعها بكل ما كان لديه من قوة وقاومها بكل ما كان يملك من سلاح الى أن خرج من المعركة منتصراً وبالمحافظة على أصالته ظافراً ، وهكذا رأينا آية السيف تحميها آية القلم منذ وطئت أقدام المستعمرين القذرة هذه الأرض الطاهرة ولم تغن الاستعمار جحافله من المعلمين والرهبان المبشرين الذين كان يعوّل عليهم في استيطانه الفكري فلم تلق مكاناً بالأذهان دروسه التي كان يلقنها للأطفال الجزائريين بمدارسه من أنهم من أحفاد الغوليين وان وطنهم الأم هو فرنسا ولغتهم هي الفرنسية ولم تثبت أمام الحق المبين أحلامه في اقبال الأمة على التجنس أو استعداد أفرادها للتفرنس بكل ما يطويه من تنصير وتهجير رغم كل ما بذلته سلطات الاحتلال من أساليب المحاربة للغة والدين وتحريف التاريخ واقرار الدخيل من العادات والسلوكات ولم تغن الاستعمار جيوشه الجرارة ولا قوانينه الخاصة الجائرة التي كان يعتمد عليها في ارهابه وقهره للعلماء والكتّاب والأدباء وكل المفكرين الذين يرجع اليهم الفضل في بقاء الشعب الجزائري متمسكاً بدينه متشبثاً بعروبته غيوراً على لغته غير تارك لقيمه فهم الذين كانوا يطلقون ألسنتهم حداداً في النوادي ويرسلون أقلامهم سهاماً على الأعادي غير مبالين بأذى هو لاحقهم لا محالة ولا بسجن هم داخلوه قصر الزمن أم طال انهم حقاً من أبناء الجزائر البررة الذين



يذكرهم التاريخ من بين الخالدين . وان ننس لا ننس تلك القصائد الحماسية التي واكبت المسيرة الثورية من أول عهدها مع شعراء الأمير عبد القادر الفصحاء منهم وأصحاب الملحون الى أعز أيامها مع أبطال معركة التحرير ولا ننس تلك المقالات المؤثرة التي تميزت بها المقاومة الجزائرية في مرحلتها السياسية لا سيما بعد الثلاثينات من هذا القرن والتي خرق صداها الحدود الخانقة فبلغ رسالة الجزائر المجاهدة الى العالم المتفرج على مأساتها كما لا ننس تلك المسرحيات المعبرة التي برع في تأليفها كتاب ناشئون وفي تمثيلها فتية ملهمون ولا يزال المثقفون والأدباء في الجزائر يسيرون على درب النضال من أجل بناء الذات في مدلولها الرفيع وفي محيطها الأشمل ويسيرون على درب النضال من أجل النهوض بالانسان الجزائري والعربي ، ايماناً منهم بأنه لا معنى للاستقلال السياسي ولا الاقتصادي اذا لم يكن مصحوباً بالاستقلال الثقافي ، ومهما كانت تبعية ذلك الاستقلال تقليداً أو غصباً أو اغتراراً بالرواسب والمخلفات فالدفع الثوري في الميدان الثقافي يساهم دون شك في رفع المستوى الفكري للشعب وبالتالي يدعم الشروط النفسانية والايديولوجية والسياسية دعماً للاستقلال الوطني والتطور الاجتماعي والاقتصادي .

انكم تعلمون أن الاستعمار الجديد غيّر منهجه ، فلم يعد يستعمل نفس الأساليب التي اعتمدها من قبل عند الاحتلال العسكري فاختار منهجية الغزو الثقافي ليستولي على عقول الشباب وتفكيرهم ومن هنا تتعين عظمة المهمة الملقاة على عاتق المثقف العربي ، والأديب العربي ، لا بوصفه عاملاً من عمال الفكر فحسب وانما بصفته فرداً حراً خلاقاً يتمتع ببصيرة تنفذ الى جوهر الأمة عبر تراثها ، وتخترق حجب الغيب عبر مستقبلها فيقاوم هذا الغزو بكل وسائل الدفاع .

والثقافة ليست في نظرنا بناء مجرداً منعزلاً عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، بل هي كل لا يتجزأ ، والثقافة الصحيحة التي ننشدها لأمتنا العربية هي التي تتبنى القيم الأصيلة وتدافع عنها كما تدافع عن المفاهيم التي تعمل على ايجاد وعي منظم عميق ، يتشكل في أعماق ووجدان الكتّاب والأدباء والمثقفين ويحرص على توفير مقومات الشخصية وحفظ التراث وتعزيز كيان الأمة ، وتقوية الأواصر الاجتماعية ولا نشك في أن كتابنا وأدباءنا سيتحملون هذه المسؤولية بكل فخر واعتزاز .

ان دور الأديب العربي يتميز بكونه مواطناً سياسياً ملتزماً بالأهداف المرحلية الزمنية لأمته ووطنه، وبكونه فرداً خلاقاً له قدرته على الاحتفاظ بحريته الداخلية والاستجابة لتطلعات الأمة عبر مزاجها وتراثها ، واننا نعلم أن الحضارة غير محصورة على منطقة معينة من العالم ، فلها طابع العالمية والشمولية وتسعى البشرية اليوم لتحقيق الوحدة في التنوع ، والعالم العربي جزء من الكل المتكامل وعليه أن يحافظ على خصائصه داخل هذا الكل وعلينا نحن أن نعمل جميعاً بجد ونشاط لنخدم ثقافاتنا الوطنية بطريقة ايجابية وبذلك فقط نضمن المستقبل الزاهر للأجيال الصاعدة ونضمن التفاهم بين المثقفين بالحوار ونكون في مستوى المسؤولية التاريخية التي نضطلع بها أمام الله والتاريخ .

أيها السادة والسيدات :

ان الكتاب والأدباء الجزائريين لم يتركوا الكثير من المؤلفات في الفترة ما قبل الاستقلال لأنهم شغلوا أنفسهم بما كان يمليه عليهم واجبهم النضالي . ان حياتهم كانت كفاحاً وأقلامهم كانت سلاحاً فتناولوا من الكتابة ما كان معبراً ومن الخطابة ما كان مؤثراً ناهيكم أن امام النهضة الاصلاحية بالجزائر الأستاذ الامام عبد الحميد بن باديس لم يترك مكتوباً الا مقالاته بالشهاب وهو الذي تخرج على يده الكثير من أعضاء جمعية العلماء وأبنائها وهكذا كان الأمر مع صاحبه الشيخ البشير الابراهيمي الذي يشهد له العرب قاطبة بالمكانة والباع حيث لم يترك محفوظاً الا مقالاته بالبصائر، وقد جمعت بعد الاستقلال في كتاب يعرف بعيون البصائر. ان علماءنا وأدباءنا كانوا ملتزمين مع الثورة أعطوها كل ما كانوا يملكون من ملكة فعكفوا حياتهم على خدمتها وتفانوا في نصرتها



ولم ينصرفوا الى الكتابة والتأليف الا بعد حصول الجزائر على استقلالها واسترجاعها سيادتها وسالف مجدها ضامين أقلامهم الى أقلام اخوانهم بالوطن العربي الكبير فاسترجعت اللغة العربية مكانتها بعدما كانت ممنوعة محرماً على أهلها تعلمها وتعليمها ، وتربع الأدب العربي في بلادنا على عرشه الذي زحزحه عنه الاستعمار وبدأت المؤلفات العربية اللسان بمختلف أنواعها تأخذ مكانها على رفوف المكتبات وتعددت الصحف وتنوعت المجلات وأصبح القارىء لا يشكو من الفراغ الثقافي بفضل ما بذلته الدولة في هذا الميدان وما سخرته من وسائل لتشجيع الانتاج الفكري والثقافي والفني حتى انها اعتبرت الكتاب من المواد الأساسية التي يستفيد سعرها بالدعم من الميزانية كي يصبح في متناول الجميع وان القيادة السياسية وعلى رأسها الأخ الشاذلي بن جديد رئيس الجمهورية والأمين العام للحزب لشاعرة بالدور المتميز الذي يعود للثقافة والاعلام في القضاء على كل تبعية ثقافية وهذا ما دفعها الى أن تعرض ملف السياسة الثقافية على اللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني التي حددت أبعادها بما لا يترك مجالا للغموض وأقدمت الدولة عن طريق وزارتي الثقافة والاعلام بمساعدة الهيئات الحزبية على تشجيع كل النشاطات الثقافية بفتح دور للثقافة عبر مختلف الولايات لا في عواصمها فحسب بل حتى في بعض مدنها وقراها وبتزويد كل بلدية بمكتبة تكون مفتوحة أمام الراغبين من الشباب وغيرهم الى جانب تعميم شبكة الاعلام عبر كل المناطق القريبة والنائية بوسائله المقروءة والمسموعة والمرئية فساعد ذلك على رفع المستوى الثقافي لدى السكان، وان المناظرات التي تقام بين الثانويات والتي يبثها الاعلام على أمواجه المسموعة وشاشته المرئية طوال السنة الدراسية مرة في كل أسبوع وما يقرأ على أمواج الأثير من أقلام الناشئين أو ينقل بمجلة الثقافة التي تصدرها وزارة الثقافة أو ما يقرأ على صفحات الجرائد والمجلات الجزائرية لأكبر دليل على أن المجتمع الجزائري خاصة فئته الشابة قد خرج من التخلف الذي كان مفروضاً عليه زمن الاستعمار وشق طريقه الى الأمام في ميدان العرفان على سبيل العموم وفي الميدان الأدبي على سبيل الخصوص •

أيها السادة والسيدات :

انكم حاملو اللواء ورافعو المشعل والمدافعون عن قضايا العرب المصيرية بكم يعلو شان الأمة العربية وبكم تتم رسالة لغتها القومية وان نضالكم في هذا الميدان ليس بأقل شرفاً وقدراً من المقاتل بسلاحه في ساحة القتال فواصلوا نضالكم وأجمعوا جهودكم ولتكن غايتكم تبليغ الرسالة الأدبية بالدفاع عن القضية المصيرية جيلا بعد جيل •

ان مؤتمركم الرابع عشر ينعقد والعالم العربي يمر بازمة معقدة ويشهد تغيرات وانعطافات خطيرة وبالغة الأهمية وقضاياه المصيرية لا تزال مطروحة فقضية فلسطين المغصوبة لا يزال جرحها يدمي في قلب كل عربي • والامبريالية العالمية تقدم دعما كبيراً للصهاينة على مراى ومسمع من العالم ، وتكتفي الهيئات الدولية بالادانة وهل تنفع الادانة لقوم يغلب على طبعهم التعنت والاحتقار لكل ما هو عربي ولو ان هذه المنظمات وقفت بحزم بجانب الحق والعدل لتغيرت الأمور في المشرق العربي ، ولكن في هذه القضية وفي قضايا عربية أخرى ينبغي أن نعتمد على أنفسنا وعلى ثروتنا وطاقاتنا لفرض الحلول المناسبة لنا وعندئذ يسمع قولنا ونؤخذ في الحسبان •

وختاماً يطيب لي أن أتمنى باسم القيادة السياسية للاتحاد العام للكتاب والأدباء العرب التوفيق والنجاح في المهمة النبيلة التي يضطلع بها كي يواصل السير في الطريق الشاق الذي ابتداه حتى النهاية •

كما أتمنى للمؤتمر تحقيق أهدافه وتتويج أشغاله بما يعود بالخير على الأمة العربية والانسانية جمعاء •

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) صدق الله العظيم •

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته •

كلمة الأستاذ علي عقلة عرسان

الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب

الجزائر ٣/آذار ـ مارس/١٩٨٤

- الاخ باقي بوعلام عضو المكتب السياسي لحزب جبهة التحرير ـ وزير العدل ممثل السيد الرئيس الشاذلي بن جديد الأمين العام للحزب رئيس الجمهورية •
- الأخوة أعضاء المكتب السياسي لحزب جبهة التحرير •
- السادة الوزراء والسفراء •
- الضيوف الأكارم •
- الزميلات والزملاء الأدباء والكتّاب أعضاء المؤتمر •

ينعقد المؤتمر العام الرابع عشر للأدباء والكتّاب العرب على أرض الشهداء والتضحيات الجسام التي قدمت عبر تاريخ نضال مجيد ومديد، على مذبح التحرير والحرية، حتى ليكاد هذا الثرى يتشكل أجساداً، وهذا المدى يعبق بأنفاس أولئك «الأحياء عند ربهم يرزقون» طلائع وتقدمات شعب عريق، دفاعاً عن وجوده، وعن انتمائه لحضارة وعقيدة ولغة وقيم، ان عزت عز، وان ذلت ذل، وتأصيلا لشخصية ثقافية في تربة حضارة متمايزة ومميزة •

وأرض الجزائر وعطاء أبنائها وجهادهم صفحة ألق من كتاب مشرق الصفحات كتبه ويكتبه الشهداء والمناضلون في أرجاء الوطن العربي بالدم والتضحيات، ويجددون متون ما طمست الأيام من حروف تاريخهم تحقيقاً لتلك الأهداف وسعياً لتوحيد الجهد وتوحيد الصف •

والمؤسف المحزن في آن معاً، أن يأتي انعقاد هذا المؤتمر في وقت يضيق فيه الانسان على الأرض العربية من المحيط الى الخليج ـ بعد أن طرد جيوش الاستعمار المباشر منها ـ بالقيود المفروضة على الحرية وممارسة الحقوق المشروعة للانسان، وفي زمن انحسار ارادة التحرير وقواه في معظم الأقطار العربية بفعل سياسات وممارسات الأنظمة •

ونجد أنفسنا، نحن الأدباء والكتاب العرب، أكثر احساساً بالمأساة، وشعوراً بالأزمة



واكتواء بنار المعاناة ، في هذا الزمن العربـي الرديء ومنه ، حيث أننا نبصر ونسمع وننطق وندرك وتختلج منا الضمائر ، ويراد لنـا أن نكون بكماً عمياً في عداد الهياكل التي تـدب على الأرض • أحياء بلا حياء ، وشهداء عصر دون لسان ، وبواتق يحرق رمادها ، ويراهـا الناس آنية تحرق فيها الأشياء •

وحين تلهث بنا الدروب ، وتقرعنا ضما ئرنا لننطق بالحق ، ونسهم في ايقاظ الضمير العربي المتناوم ، ونقتحـم حواجز الرعـب مختارين ما يرتبه علينا التزام الأحرارأصحاب الرسالة والقضيـة النبيلتـين من مسؤوليات وتبعـات ، نقف عـلى فاجعتنا الأكبـر حيث كلماتنا سيوفنا أصبحت خشبيـات النصـال والقبضات ، تحترق ولا تحرق ، يفتتهـا الدم ولا يجدد منها الشفرات وقـد أفسدت علينـا مصداقيتها لكثرة ما هجنت ودجنت وحملـت من كذب ، وصنعت من انتصارات زائفة عـلى موجات الأثير ، ولأنها ولكثـرة ما استعملـت أوعية نقل وعود كاذبة وملق يكسف شمس الوجه الأصدق للذات المكتوبة بنار الواقـع المعيش ، الواقفة على مدى اتساع الهـوةبين التطلعـات الواضحـة لشعب يستقـرىء تاريخه ، ويتقرى قـواه وامكاناته ، وبـينمحصلة قواه في النهاية •

نعم يا من تعني لكم الكلمة شيئاً ، لقـدأفسدت علينا مصداقيـة الكلمـة ، سلاحنـا الوحيد ، لكثرة ما سخرتها السياسات العربيةالمتناحرة ، وأجهزة اعلامها لتكريس القطرية الضيقة ولتغذية التكاره والتباغض والتزييفعلى الجماهير وخداعها مستبيحة كل المحرمات والمقدسات الأخلاقية ، العربية والاسلامية ،التي اعتزت بها هذه الأمة وما زالت •

فأخذ الضمير العربي يتلوى بين سفافيـدتلك الأجهزة ، ينشج آنا ، ويختلج فيه بقيـة من روح ، الى أن سكت وسـكن ، فآل أمـر السامع الى أن يسمع زمناً بعد زمن ، وتتلبد مواضع الاحساس بالكلم ومعناه لديه ، حتىتكسرت في الجراح نصال على نصال فمـا عاد يعنيه ما يقال وأقر آسفاً كذب ما قد يقـال ،فما عاد الخطاب يحول الشـوارع الى سـيل بشر ، ولا حتى الشعر يحرك في القلب وتـرأأو يقضي لفارس الكلمة وطراً •

فأين المهرب مما آل اليـه أمر استخـدامالكلام ، والنيام في أرضنا يتكاثرون ويزيدهم النوم سقماً على سقم ، ويطفيء في أبصارهمألق الأمل الذي أصبح يرفعه التاريخ بتكاسل وتثاقل • وكيف الخروج من استلاب الاغترابعن المصداقية الى دائـرة الكلمـة الصادقـة المصدقة ، الكلمة المنقذة التي تغدو زوبعـةفي الضمـير تزيل أدرانه وتجـدد في الـروح ما انعطب وتحيي ميت المشاعر ، وتفتق أفق الرؤية والاندفاع في دروب النضال •

اننا ندرك ألا سلاح لنـا سوى الكلمـةالتي أصابها ما أصـابها عـلى يد الاعـلام وسياسات الحكام وبعض الكتاب الذين صاروواوسائل تطويع أو تطبيع ، أو اختاروا سـوق الاتجار بالكلام ، فأسـهموا في انتاج ثقافـة« البترو دولار » •

وندرك أننا وسلاحنا ننتمي الى الثقافة ،التي تسهم في تكوين الانسـان عقلا وقيمـا



وضميراً وملكات ، منطقاً ومحاكمة وقدرة على التمييز ، ورؤية للحق واتباعاً له ، وللباطل ومقاومته لا اجتنابه فحسب ، ندرك أننا أقرب الى رجل المعمار الذي يضيف حجراً أو مدماكاً الى صرح الحضارة ويصنع الانسان القادر على فعل ذلك محققاً الانسجام ومؤدياً الغرض ، أو مفتشاً عنه ، ولكن معمارنا حي يصنع الحياة يتعامل معها ويجددها ويحافظ على شخصية متمايزة فيها لا تمييزاً متعالياً وانما تحقيقاً للتنوع في اطار جدلية الاغناء والاغتناء في حقل تلاقي الثقافات وتفاعلها ·

ندرك أننا أقرب الى ما يمكن أن أقول عنه « استراتيجية التكوين الروحي والعقلي للانسان » أقرب الى التعامل مع الثوابت المتأصلة فيه وفي المجتمع عبر تاريخ ذلك المجتمع ، أي أننا أقرب الى سدنة التعامل مع الكائن الانسان في مراحل التكوين والكشف والتجديد والارتياد ضمن شخصية واضحة متأصلة في تاريخ وجغرافيا ، لا يمكن فصلهما أحدهما عن الآخر · ولذا نشعر أن الاعلام بوصفه جهازاً متحركاً يضع الرأي العام في اتجاه معين خلال فترة معينة لتحقيق غرض معين ، وتتغير أهدافه ووسائله ومعاييره ، وربما قيمه بتغير المصالح والظروف والأشخاص ، كما تتغير سياسته كلما تغيرت وزارة أو تغير وزير ، هو جهاز أقرب الى الاتصال بالتكتيك المرحلي الذي لا يشكل الثوابت والمعايير في الانسان اذا ما انفصل عن التعامل مع قيم أخلاقية وانسانية وثوابت محترمة في سياسات ثقافية تمثل استراتيجية التعامل مع المواطن وتتكامل معها ·

ولأننا أدباء وكتاب ، ننتمي الى تراث أدبي وثقافي عريق واحد موحد ونتواصل بوعي ورؤية ثورية مع هذا التراث من جهة ، ومع واقع الحياة وتطلعات وآمال جماهيرنا فيها ، ونواكب نضالها لتغيير واقعها بواقع أفضل ،من جهة أخرى ، نجد صعوبة كبرى في أن تتلاعب بنا رياح الاعلام ، فنغدو تبعاً ، أو أبواقاً لتبع، ونتمزق بتمزق الأقطار ، ونسهم في تمزيق الشعب الواحد ، وفي اضعاف ريح الأمة وروحها ، ونجدها ألصق بصلابة جماهير الشعب العريضة ، من فلاحين وعمال وكادحين وشباب ، نعبر عن تماسكهم في أمة وتمسكهم بعقيدة ، وتطلعهم الى وحدة ، ونضالهم من أجل الحرية التي ولدنا في رحابها ، أحراراً ·

ولقد حافظ اتحادنا على هذا النهج ،وتمسك بهذه الثوابت القومية الأخلاقية ودفع ثمن مواقفه بأشكال مختلفة ، ولكنه أصر على أن يرفع صوته حين تنخفض الأصوات ، ويغرس في القلوب وفي الدروب غراس الأمل حين يسود الأفق ، وتزداد الحلكة في عين الشعب ، وقف في وجه الاستسلام ومخططاته ورموزه ، ووقف في وجه استلاب الحريات وحرض على متابعة النضال من أجل تحرير ارادة المواطنين ، وتحقيق العدالة وتصدى بامكاناته المتواضعة لأشكال الغزو الثقافي وما زال ·

ولذا أجدني معتزاً بوحدة موقف الكتاب والأدباء العرب وتمسكهم بما هو بنيوي واستراتيجي في حياة الأمة ومقاومتهم لمخططات التمزيق ، لممارسات سياسية عربية لم تلتفت



الى ما يجمع الأمة وينقذها في زمن يذبح فيه الأعداء المدن ونتفرج وتغتال القضايا المصيرية ونسكت ، وتحلق في الأفق أسراب الجيوش الغازية بحثاً عن أعشاش جديدة في ربوع وطننا الكبير ٠

أجدني معتزاً بطليعة تختار الشعب والوطن والحق والانسان ، وتصمد على الجبهة الثقافية ضد الغزو الثقافي الذي يخطط لاحداث الفراغ بالتشكيك وملء الفراغ بالمستورد الجاهز من جهة ، وضد محاولات تمزيق هذه الجبهة داخلياً لتقوم مقامها ثقافات انعزالية قطرية مريضة تخدم أنظمة مهما عمرت هي عابرة في تاريخ الأمة ، وأشخاصاً مهما امتد بهم الزمن سيؤول الأمر لغيرهم لأنه لا بقاء لمحكوم عليه بالزوال ٠

أجدني مفاخراً بهذه الجبهة المتماسكة في وطننا العربي ، تلك التي ترفض الانهزام والاستسلام والمساومة ، ترفض تصفية القضايا الكبرى ، وانتهاك الحريات ، وتحويل الناس الى قطعان ، ترفض أن تكسب قوتها بأثدائها ، وتصبر على الحاجة ، وتشد الحزام على البطون وتسهم بشرف في تحمل مسؤوليات ثقافية قومية بنيوية في زمن ترتفع فيه الدعوة لتكون الأمة الواحدة أمماً والأدب الواحد آداباً ، والوطن الواحد أوطاناً ، تقطع بينها حتى ما اعتادت على وصله أوطان متناحرة لأقوام متباعدة ، من تواصل انساني ، نعرف جيداً أن وسائل الاعلام المسموعة والمرئية منها على الخصوص ، هي أفضل أقنية التواصل مع الجماهير العريضة التي تئن تحت وطأة ليل الأمية ، وان خضوعها التام للسياسات الاعلامية العربية المتصادمة في أغلب الأحيان ، والمنفذة لسياسات مرحلة غير مستندة لاستراتيجية تحرك قومي واحدة ،وترتبط بمتغيرات السياسة القطرية وتكتيكها، يحرمنا الاستفادة منها كأقنية تثقيف وتثوير وتغيير قادرة على التأثير في الناس ، ويملي علينا شيئاً فشيئاً شروطها للتواصل مع الآخرين من خلالها ، والتي تتمثل في أن نتنازل لها عن آرائنا ومواقفنا ، لا أن تمنحنا حقنا في ممارسة الحرية وتحمل تبعاتها ، ولا يلبث ذلك التنازل أن يصبح طبيعة تشيع السطحية والاستكانة والببغائية ، ثم الى كتابة حسب الطلب ، فكيف نسير في تلك الزفة ونصير تبعاً أو أبواقاً لمتبع ٠

ان هذا لا يضر بالأدب والثقافة ورجالهما فقط ، وانما يخرب دورهما الايجابي في الحياة ويحولهما الى وسائل تخدير وتزييف ، ويحرم الشعب وساسته ومسؤوليه من أولئك الذين يهدون اليهم عيوبهم ، أو يقومونهم بألسنتهم، أو يقدمون لهم عوناً على أداء الواجب ما دام الواجب كشفاً عن الأفضل والأليق بالانسان الحر ووصولا الى تجسيد الكشف حياة معيشه.

اننا ندرك قيمة هذا الجهاز ، ولكننا لا نريد أن يكون ثمن الاطلالة على الناس من خلاله اقامة مخافر جديدة في ضمائرنا تصبح طبيعة لنا بالاعتياد وتقوى على حساب حيوية الروح وحياة الضمير وحرية الارادة ٠

ولذا آمل أن ننجح في تلمس طريق سليمة واضحة في مناقشاتنا لمحاور موضوع مؤتمرنا هذا الذي يقام تحت شعار « الأدب العربي بين الثقافة والاعلام » ٠

الكلمة التي ألقاها معالي السيد عبد المجيد مزيان

وزير الثقافة والسياحة

في افتتاح المؤتمر الرابع عشر للأدباء والكتاب العرب

أيها الأخوة الكرام :

يسعدني أن أضيف كلمتي الى ما سبقني بـه زملائي من تمنيات بالتوفيق وأرحب بكم في بلدكم هذا ، وهو البلد الذي لم يبخل بجهوده وجهاده ، في سبيل اثبات الشخصية العربية بين أمم العالم ، ولا يزال هذا الجهاد مستمراً حتى اليوم ٠

واننا لنعد الثورة الجزائرية ، والثورة الفلسطينية ، وكل ثورة ضد الاستعمار العالمي حدثاً تاريخياً طبيعياً ما دام للأمة العربية قلب حي ، وطمع في الحياة ، ولا نرى أن للكفاح الفكري والكفاح بالأقلام ، أي تمايز أو انفصال عن الكفاح بالسلاح ٠

واذا كان مؤتمرنا هذا سيبحث في العلاقات أو التناقضات الموجودة بين الثقافة والاعلام ، فانه لا بد من طرح بعض القضايا الأساسية التي تهم الأجيال الحاضرة ٠

واذا كانت القضية الفلسطينية هي أم القضايا العربية سياسياً وثقافياً فان هذه القضايا الأساسية تلخص تبعاً لها في نقط أربع هي :

١ ـ قضية الوحدة الثقافية ٠
٢ ـ قضية اللغة العربية كلغة علم ٠
٣ ـ قضية الحرية الفكرية ٠
٤ ـ قضية الغزو الثقافي بالمنظارين الحضاري والعقائدي ٠

ان أجيالنا الحاضرة التي رُفع عنها حصار الاستعمار المباشر قد احتكت بالمجتمعات العالمية ، وقدّرت تناقضاتها الداخلية ، وتغذت بالمكتسبات الفكرية المعاصرة ، وعرفت ماضيها وحاضرها بمنظار المقارنة لا بمنظار التقليد فقط وهي من أجل هذا تطالب بالكثير من الابداع والرقي لتصبح في مستوى الصراع والتطور العالمي ٠

ولقد يغيضها أن تجدنا نمارس سياساتنا الثقافية بأساليب ومناهج تتصف بالخوف ، والتردد ، والتناقض في بعض الأحيان ٠ لقد وقع الاعلان منذ زمن طويل عن الأخذ بمبدأ الثقافة العربية الواحدة،



الموحدة ، ولكن الكثير من مثقفيها لا يزالون حتى اليوم يثبتون بأقلامهم ولا سيما في المجالات الفنية، الخصوصيات اللغوية الاقليمية ، بدعوى الحرية والواقعية ·

ويجب أن لا تخوننا الذاكرة ونحن حديثو عهد بالاستعمار وكلنا عارف بالخطة الدقيقة التي رسمت لنا من جعل اللغة العربية تشابه لاتينية القرون الوسطى التي تنشق عنها لغات عديدة تثبت وطنيات واقليميات جديدة وتؤدي من التشتيت اللغوي الى التشتيت السياسي ·

وفي مجال التعليم يغيض أجيالنا الصاعدة أن ترى نفسها معرضة لتجارب مضطربة بين ازدواجية وثلاثية مع النزول بالعربية الى مستوى الأداة اللاعلمية ، بينما نشاهد كفاح الأمم الصغرى في أوربا من أجل فرض كل تعليم علمي بلغاتها الوطنية ·

ثم ان أجيالنا الحاضرة تسمح بضجة عارمة عن الغزو الثقافي الأجنبي وتشاهد بنفسها عجزنا المطلق عن التصدي لهذا الغزو · فدعاة الانغلاق والوقاية العرفة يثيرون السخرية لأنهم يريدون الانتحار لمجتمعهم ، ودعاة الانفتاح الكلي يسعون الى اندماج يفتت الشخصية، ودعاة التوازن أنفسهم لا يستطيعون ضمان الانتاج الذاتي كماً ونوعاً بالامكانيات التي يحقق هذا التوازن ·

هذه بعض قضايا الجيل التي يطرحها على مفكريه وينتظر فيها الممارسات السياسية السريعة والناجحة ·

وفي التاريخ أمثلة كثيرة لأزمات ونبضات لم يكن حظ الكتاب فيها باقل من حظ القادة السياسيين والعسكريين بل ان كل نهضة سياسية هي قضية مفكرين كتاب قبل كل شيء · فالثورات الأوربية بدأت فكراً وكتابة والحضارة الاسلامية بدأت كتاباً ، ثم ازدهرت كتاباً ومفكرين ·

ان تحولنا السريع وتطور مجتمعنا العربي ليصير في مستوى السباق العالمي ، يعني اليوم الأخذ السريع بمكتسبات العصر مع بقاء الذات الحضارية وللغة هنا دور أساسي : وكلما وقعت الهيبة من العلوم والتقنيات على أنها مجالات شبه سحرية لا تنسجم الا مع لغات أوربية ، فانه سيقع النزول بالعربية الى مستوى التخلف ·

لم يتهيب مترجمو القرون الوسطى وعلماء ذلك العصر من نقل علوم اليونان وما لبثوا أن أصبحوا من المبدعين فيها وأكسبوا بذلك لغتهم دربتها وقدراتها المعروفة ·

ونقول بشأن قضية الحرية اننا ككتاب ورجال فكر تعودنا أن نطرح قضية الانتاج والابداع الفكري من الجوانب الضيقة ، ولا زلنا نسمع عن الاتهامات المتبادلة بين السياسيين والكتاب في كافة أنحاء الوطن العربي ·



كلمة الدكتور محمد صالح الجابري
ممثل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

سيادة الأخ بوعلام باقي عضو المكتب السياسي وزير العدل ، ممثل السيد رئيس الجمهورية ،

الأخوة السادة الوزراء

حضرات الأساتذة الأفاضل والسيدات الفاضلات ،

يشرفني في مفتتح هذا المؤتمر أن أنقل اليكم تحيات الأستاذ الدكتور محي الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الذي تعذر عليه حضور مؤتمركم هذا بنفسه لارتباطات مسبقة وكذلك تمنياته القلبية لكم بالنجاح والتوفيق لتحقيق الأهداف والغايات النبيلة التي التأمتم من أجلها في هذا الظرف الذي تخوض فيه أمتنا العربية المناضلة معركتها الموصولة ضد جميع المعوقات والمثبطات والتحديات الحضارية .

ولعل اختياركم مدينة الجزائر لعقد هذا المؤتمر يحمل أكثر من معنى ومن دلالة ترابط أمتنا مشرقا ومغربا في الهدف والمصير ودلالة الاعتزاز والافتخار بما يجسم هذا القطر العربي النبيل من ارادة عنيدة ومن ثلابة وتاريخ نضالي عريق ، اذ كانت الجزائر على مر الأحقاب مبعث فخار أمتنا وصورة مشرفة من صور نضالنا واستماتتها في الدفاع عن ضرفها ومقوماتها وأصالتها .

بالاضافة الى أن هذا الاختيار يؤكد المشاركة الوجدانية للمثقفين والمبدعين العرب ومباركتهم الخطوات الجريئة التي تخطوها الجزائر بقيادتها الوطنية الواعية وحزبها المناضل في معركة التعريب واستعادة الذات وتحقيق أسمى مطلب من مطالب الشهداء والمصلحين في أن تستعيد هذه الرقعة المغربية وجهها العربي الوضيء الذي طالما أشرق على افريقيا وعلى الوطن العربي وأنبت الأفذاذ من الرجال المجاهدين أمثال عمر بن قدور ، وعمر راسم ، وعبد الحميد بن باديس ومبارك الميلي والعربي التبسي ، وأحمد رضا حوحو ، ومولود فرعون والربيع بوشامة ومقدي زكرياء واضرابهم .

ان هذه النخبة المستنيرة المجاهدة من أفاضل العلماء والمثقفين الجزائريين كانت من أبرز الأصوات التي اتخذت من الأدب العربي وسيلة الاعلام والثقافي وسيلة للنضال في هذه الربوع المغربية ، وشادت الجسور مكينة بين مشرق هذه الأمة ومغربها وعملت على فضح المستعمر الفرنسي في جميع الصحف العربية والاسلامية تركت كتاباتها وآراؤها الجريئة صدى ارتعب منه الاستعمار



وسرى منه بريق الى الرأي العام العربي كشف لهحقيقة أوضاع في المغرب العربي في ظرف لم يكن فيه الاعلام الثقافي موضوع مؤتمركم هذا علماً شائعاً متقناً مثلما هو الحال الآن ولكنه كان في آذان هؤلاء حقيقة راسخة وأسلوباً ممارساً وسلاحاً فعالاً ووسيلة من وسائل المقاومة والمناضلة ·

هذه الصورة الصغيرة المتواضعة والتي تتماثل وتتشابه مع صور عديدة ينطوي عليها تاريخ أمتنا العربية في جميع أقطارها توحي بدراسة هذا الموضوع ليس في الحاضر فحسب ولكن بدءاً من التاريخ القريب وحتى البعيد حيث كان اسهام أجدادنا متألقاً ومدركاً وواعياً لأبعاد القضية الاعلامية في اطار العمل الثقافي الأدبي الذي لم يكن معزولاً ولا منفصلاً عن الشعب وعن الأكثرية ·

ولقد كان للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم شرف الاحساس بأهمية هذا الموضوع الخطير ، موضوع العلاقة بين أجهزة الاعلام وأجهزة الثقافة في الوطن العربي حيث كلفت منذ فترة ثلة من الاعلاميين والمثقفين بدراسة مختلف جوانب القضايا المثارة في هذا الصدد ، وقد أنجزت هذه الدراسات وينتظر أن يضم جانباً منها العدد القادم من (المجلة العربية للثقافة) التي تصدر عن المنظمة خلال شهر مارس الحالي في انتظار اصدار جميع الدراسات في كتاب مستقل في وقت قريب لا حق ·

كما ان هذا الموضوع بالذات يحظى بعناية خاصة في أعمال لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية وهي لجنة متخصصة من لجان المنظمة تعكف على انجاز الخطة الشاملة للثقافة العربية وقد عقدت لهذا الغرض حلقة خاصة بهذا الموضوع سوف تكون فصلاً من فصول سجلها الذي سيصدر عنها في وقت قريب لتفيد منه المنظمة والأمة العربية في خططها القريبة والبعيدة ويستنير به المثقفون العرب في التعرف على واقع ثقافتهم ومستقبلها وآفاق العمل الثقافي بصورة شاملة ·

ومما لا شك فيه ان سعي المنظمة وهدفها وعملها لا يتوقف عند التصدي للقضايا المستجدة التي تفرضها المعاصرة والتغيرات الدولية والحضارية ولكن مثلما تعلمون جيداً أن المنظمة تسهم بفعالية في جزء من عملها بل في الجزء الأوفر من عملها في معالجة جميع شؤون الثقافة العربية من منطلقات قومية متجذرة ووفق نظرة طموحة متجددة ·

فهي لا تني تواصل عقد المؤتمرات الدورية التي تجمع وزراء الثقافة العرب لتدارس ما يجد من قضايا وما يتوجب وضعه من قوانين وقرارات وصياغات ·

وقد كان آخر هذه المؤتمرات المذكورة المؤتمر الرابع الذي عقد بمدينة الجزائر بالذات خلال شهر مايو ١٩٨٣ حول موضوع (الأمن الثقافي العربي) وقد أسهم في دراسة هذه القضية مجموعة من أبرز الكتاب والمثقفين ازاء اسهام السادة الوزراء أنفسهم في صياغة القرارات والتوصيات والمشروعات الكفيلة بحماية الثقافة العربية وتوفير المناخ الضروري للمبدع العربي في كنف الحرية والمسؤولية والتصدي لجميع ألوان الغزو الثقافي الأجنبي ·

ولعل أهم ما يمكن أن يشار اليه في عجالة من أعمال المنظمة في مجال العمل الثقافي القومي اضافة الى (الخطة الشاملة للثقافة العربية) انصرافها في الوقت الحالي لوضع الترتيبات النهائية لقيام مؤسسة (الموسوعة العربية) ومؤسسة (الترجمة والتعريب) وانجاز كتاب (الفن العربي الاسلامي) وكتاب (الفن التشكيلي العربي المعاصر) انطلاقاً من النظرة القومية الشاملة للثقافة العربية ·

كما تتوم المنظمة في الوقت الحالي بتعاون ثلاثي بينها وبين الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي بالكويت ومنظمة اليونسكو بوضع دراسة شاملة حول موضوع (الصناعات الثقافية في الوطن العربي) ومن شأنها أن تقود الى مسح واقع هذه الصناعات والوصول الى تحقيق مشروعات تتكامل فيها الجهود العربية القومية وتتوفر بها الحاجيات الملحة التي يفتقر اليها الوطن العربي ·



ومما هو جدير بالتنويه في هذا الصدد الموقف الايجابي الذي وقفته معظم الأقطار العربية التي أقبلت بحماس للتوقيع على (الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف) التي كانت المنظمة قد سهرت على اعدادها وصياغتها وعرضتها على المؤتمر الثالث لوزراء الثقافة العرب الذي عقد بمدينة بغداد في شهر نوفمبر ١٩٨١ • وهي الاتفاقية التي تؤكد على منزلة الكاتب والمبدع العربي وما يجب أن يتوفر له من الحماية المعنوية والمادية •

وتطبيقاً لأحد بنود هذه الاتفاقية ، اجتمعت خلال شهر نوفمبر ١٩٨٣ بمقر المنظمة بتونس اللجنة الدائمة لحماية حقوق المؤلف في أول دورة لها الدراسة ومتابعة تطبيق هذه الاتفاقية وايجاد الصيغ الكفيلة باستصدار التشريعات القطرية المتصلة بالاتفاقية واقامة المؤسسات التي ستولي الاشراف على تنفيذها •

ودعماً لهذا الاتجاه فان المنظمة العربية بناء على احدى توصيات المؤتمر الرابع لوزراء الثقافة العرب تعكف حالياً على وضع تشريعين هامين أولهما حول (تيسير تداول الكتاب الثقافي العربي) وثانيهما حول (رعاية المبدعين والموهوبين) •

أما في مجال تكريم العلماء والمثقفين وتشجيع المبدعين فقد رصدت المنظمة العربية جوائز هامة وحوافز متعددة من بينها الجائزة العربية التقديرية التي دعت المجامع العلمية والجامعات واتحادات الكتاب العرب لترشيح من تراه كفؤاً لها وقد ترشح لهذه الجائزة عشرات الكتاب والمثقفين والعلماء ومن المنتظر أن يعلن عن نتائج هذه الجائزة في وقت قريب •

أما الجوائز التشجيعية فنذكر منها : جائزة الابداع الأدبي ، وجائزة المسرح العربي ، وجائزة الترجمة ، وجائزة ثقافة الطفل ، وقد أعلن عن الترشح الحر لجميع هذه الجوائز في الصحف والمجلات ووسائل الاعلام العربية باستثناء جائزة الابداع الأدبي الذي سيعلن عنها في وقت لاحق من هذه السنة •

وان المنظمة العربية لتنتهز هذه الفرصة أمام هذا الحشد الكريم لدعوة المثقفين العرب للاسهام في الدور القومي الذي تضطلع به والمشاركة في الترشح لهذه الجوائز كما تنتهز هذه الفرصة للاشادة والتنويه بالتنسيق القائم بينها وبين الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب في مختلف المجالات وخاصة بالأمين العام للاتحاد الأستاذ علي عقلة عرسان الذي دأب على حضور مختلف أنشطة المنظمة والاسهام فيها بما عرف عنه من جدية واخلاص للعمل العربي القومي •

وكلمة الختام ، شكر لا محدود للجزائر رئيساً، وحكومة وشعباً على احتضانها هذا المؤتمر ، وأجمل الأمنيات لكم بالنجاح والتوفيق •

* * *

نظام جائزة بيروت

جائزة الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب

تخليداً للنضال الذي خاضته بيروت ضد الغزو الصهيوني قرر الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب احداث جائزة باسم جائزة بيروت تمنح ضمن الشروط التالية :

آ ـ هي جائزة سنوية مقدارها /١٥٠٠٠/ خمسة عشر ألف دولاراً أمريكياً تمنح لكاتب أو أديب عربي على مجمل انتاجه الأدبي أو الفكري كليهما ، ويجب أن يكون لهذا الكاتب أو الأديب أعمال أدبية وفنية عالية تعكس الواقع الموضوعي لعصرنا وتعبر عن موقف نضالي لانساننا العربي فيه ... بشرط أن يكون لهذا الانتاج تأثير ملحوظ في الأدب والفكر العربيين وله دور في خدمة الثقافة العربية .

ب ـ أن يكون له مكانة متميزة في الانتاج الابداعي العربي في مجالي الفكر والأدب .

جـ ـ أن تكون شخصية هذا الأديب أو الكاتب عربية أصالة وانتماء وكذلك حضوراً وثقافياً .

د ـ أن يشكل انتاجه اضافة جديدة الى ثقافتنا وأمتنا في صراعنا الحضاري ضد الصهيونية ومصادر دعمها .

١ ـ الترشيح للجائزة :

١ ـ يتم الترشيح للجائزة حسب التالي :

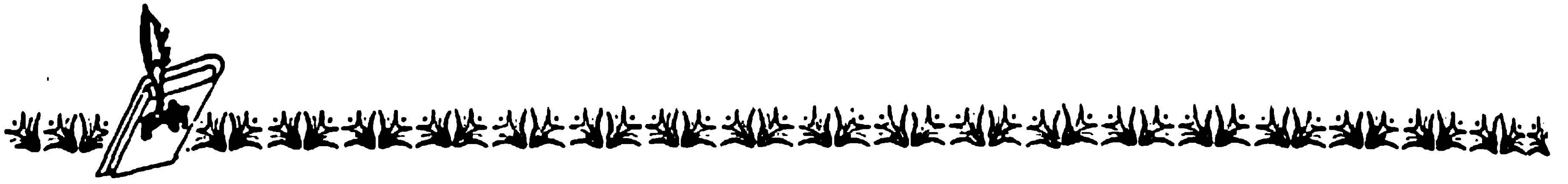
آ ـ عن طريق اتحاد أو رابطة أو أسرة الكتاب في كل قطر عربي لأبناء القطر نفسه .

ب ـ عن طريق ثلاثة من الأمناء المساعدين في الاتحاد .

٢ ـ لا يجوز ترشيح أكثر من شخص واحد عن القطر العربي الواحد في كل عام .

٣ ـ تقدم الجهة المرشحة مع طلب الترشيح السيرة الذاتية على خمس نسخ مع خمس نسخ من كل من مؤلفاته .

٤ ـ ترفع طلبات الترشيح الى الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب وينتهي قبول الطلبات في نهاية شهر نيسان من كل عام .



٢ ـ لجنة التحكيم :

أ ـ تتألف لجنة التحكيم من خمسة أعضاء من بينهم الرئيس ومقرر اللجنة التي تضع محاضر لاجتماعاتها وتتخذ قراراتها بالأكثرية المطلقة ·

ويسمى أعضاؤها لمدة سنة بقرار من (المؤتمر العام) المكتب الدائم للاتحاد ، ولا يجوز التجديد للجنة أو لأحد أعضائها لأكثر من ثلاث سنوات متتالية ·

ب ـ تتولى اللجنة فحص انتاج المترشحين الذي يحال اليها من قبل الأمين العام للاتحاد العام وتبت فيه ··· في ضوء معايير وتضعها لهذه الغاية ·

جـ ـ تضع اللجنة محاضر جلساتها وتتخذ قراراتها بالأكثرية المطلقة لأعضائها ، ويجب أن تكون قراراتها معللة مفصلة ·

د ـ ترفع اللجنة قرارها الى الأمين العام ،ويعلن بقرار بعد المصادقة عليه ·

٣ ـ تقديم الجائزة وتقليدها :

أ ـ يقدم للفائز المبلغ المالي المحدد في المادة(١) من هذا النظام وبراءة وميدالية خاصتان ·

ب ـ عقب اعلان اسم الفائز في كل عام تسلم أو ترسل له الجائزة المالية ويؤجل تسليم البراءة الى احتفال يقام خلال انعقاد المؤتمر العام للاتحاد العام التالي لاعلان النتائج · واذا كانت هناك ظروف قاهرة تمنع الفائز من السفر لاستلام البراءة والميدالية ، تسلمان له في بلده ·

٤ ـ أحكام عامة :

أ ـ يتقاضى أعضاء لجنة التحكيم مكافأة تحدد من قبل الأمين العام ·

وترفع تقريراً عن نتائج أعمالها والترشيحات التي تقرها الى الأمين العام للمصادقة عليها.

ب ـ تقوم الأمانة العامة باصدار ملف من مجلة الكاتب العربي ، أو ملحق لها عن الفائز يتضمن دراسات عن انتاجه ·

جـ ـ لا تمنح الجائزة لشخص واحد أكثر من مرة واحدة ·

د ـ يصادق على هذه اللائحة المؤتمر العام، ولا تعدل الا بأكثرية ثلثي أصوات أعضاء المؤتمر بناء على اقتراح يوافق عليه ثلثا أعضاء المكتب الدائم ·

الجزائر في ٢/آذار ـ مارس/١٩٨٤

الأمين العام للاتحاد العام

علي عقلة عرسان

المؤتمر الرابع عشر للأدباء والكتاب العرب
ومهرجان الشعر السادس عشر

البيان الختامي والتوصيات

الجزائر ٣ ـ ٩ ـ آذار ١٩٨٤

على مدى الأعوام الثلاثين الماضية تواصل عقد المؤتمرات الدورية للكتاب والأدباء العرب، في مختلف العواصم العربية، وكان دأب هذه المؤتمرات الاسهام في ارساء أساس متين لوحدة المصير العربي، واذكاء روح النضال من أجل التحرر والتقدم وتحقيق الوحدة العربية، والحفاظ على أصالة الثقافة العربية وحيويتها واشعاعها ووحدتها، وقد حافظ الاتحاد على وحدته في وجه رياح التجزئة والنزاعات التي عصفت بالوطن العربي، اذ ظل أكثر المنظمات القومية تماسكاً وايماناً بوحدة المصير ٠

وعلى أرض الجزائر العربية الثائرة التي نذرت نفسها للتضحية والبناء والتقدم، عقد المؤتمر الرابع عشر ومهرجان الشعر السادس عشر بين الثالث والعاشر من شهر آذار (مارس) ١٩٨٤، وكانت هذه هي المرة الثانية التي تستضيف فيها الجزائر أدباء العرب وشعراءهم، بعد أن استضافتهم في مؤتمرهم العاشر عام ١٩٧٥ ٠

وقدمت الجزائر، شعباً وكتّاباً وحزباً وحكومة، كل التسهيلات التي تضمن للمؤتمر فعاليته، وأحاطت المشاركين بالعناية وحسن الوفادة، فاستحقت منهم أجزل الشكر وأعمق التقدير ٠

ودار موضوع المؤتمر حول « الأدب العربي بين الثقافة والاعلام »، وقد انصب اهتمام الكتاب والأدباء على التداول في الوضع العربي الراهن، وأجمعوا على انه، في هذه الفترة، وأكثر من أي وقت مضى، يفترض في الأدباء والكتاب والشعراء أن يضاعفوا كفاحهم على الجبهتين الثقافية والقومية في وقت واحد، بحيث تكون الثقافة والمثقفون طليعة للمعركة التي تخوضها جماهيرنا العربية المكافحة ضد الهجمة الصهيونية الامبريالية التي دخلت على اثر الاجتياح الصهيوني الغاشم للبنان عام ١٩٨٢ في مرحلة جديدة من العدوان قائمة على مضاعفة الاعتماد على القوة العسكرية المباشرة من جهة وعلى العمليات العسكرية المشتركة بين أميركا واسرائيل من جهة أخرى، تنفيذاً لاتفاق التعاون الاستراتيجي الذي وقع في تشرين الثاني عام ١٩٨١، وتبعاً لذلك ساهمت القوات الأميركية في العدوان المباشر على لبنان، وتسلل الأسطول السادس الى شواطىء لبنان وأنزل القوات المعتدية تحت علم القوة متعددة الجنسيات، وما لبثت هذه القوات أن قامت بدورها المبيت ضد الحركة الوطنية، وكان ذلك كله ايذاناً بمحاولات التحالف الامبريالي الصهيوني أن يحقق بالقوة العسكرية ووسائل الحرب المباشرة ما عجز منذ حرب تشرين عام ١٩٧٣ عن تحقيقه بوسائل الضغط والارهاب السياسي من قضاء على حركة التحرير العربية، وبسط النفوذ الامبريالي على الوطن العربي، واخضاع سورية والقوى الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية لعجلة الهيمنة الأميركية ٠



وقد توقف المؤتمر أمام النضال الباسل الذي خاضته وتخوضه القوى الوطنية في لبنان ، مدعومة من سورية الصامدة المتصدية للتدخل الأميركي والاحتلال الاسرائيلي ، والذي كان من أبرز بواكير ثمراته اسقاط اتفاق السابع عشر من أيار (مايو) - الوجه الآخر لاتفاقيات كامب دايفيد الاستسلامية وعودة بيروت عاصمة الكلمة العربية المقاتلة التي تألقها لتصبح واحة الآمال العربية المروية بدماء عشرات الألوف من الشهداء اللبنانيين والفلسطينيين والسوريين ، والنبض الحي لحركة التحرر العربي ، بعد الحصار الشرس الطويل الذي ضربته حولها جحافل الصهيونية الغازية .

وتوجه المؤتمر بتحية اعجاب واكبار لأبطال المقاومة الوطنية اللبنانية في الجنوب ، الذين يتابعون ضرباتهم اليومية لآلة العدو العسكرية ، مسقطين بذلك أوهام تفوقها . ورأى أن الساحة الوطنية اللبنانية بما تمثله من صمود وتصد شجاع للامبريالية والصهيونية وعملائهما المحليين الطائفيين والفاشيين ، هي اليوم بشائر الفجر الذي سوف ينبثق من الليل العربي الطويل .

واعتبر المؤتمر الانتصار الذي أحرزته القوى الوطنية في لبنان خطوة هامة في طريق النضال الجاد لتحرير لبنان وسائر الأراضي العربية من الاحتلال الاسرائيلي . وأعاد التأكيد على أن قضية تحرير فلسطين هي قضية العرب المركزية ، ودعا الى توحيد الكلمة ومواصلة الكفاح ودعم الثورة الفلسطينية ، والحفاظ على وحدة منظمة التحرير الفلسطينية ، الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، وامداد أهلنا الصامدين في الأرض المحتلة بكل ما يضمن لهم تصعيد الكفاح ضد الاحتلال والتوطين والتهجير وسلب التراث ومصادرة الأراضي وانتهاكات حقوق الانسان التي تمارسها السلطات الصهيونية . وأكد المؤتمر بمنتهى الوضوح ان الكتاب والأدباء العرب يرفضون جميع المشاريع الامبريالية التي تستهدف تصفية القضية الفلسطينية وترمي الى الالتفاف على الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني ، ويناهضون بوجه خاص اتفاقات كامب ديفيد الخيانية ، وما تلاها من محاولات استعمارية كان آخرها مشروع الرئيس الأمريكي ريغن ، الذي رفضه المجلس الوطني الفلسطيني ومؤسسات منظمة التحرير الشرعية .

وأهاب المؤتمر بجميع الأدباء والمثقفين في الوطن العربي أن يضاعفوا جهودهم لابقاء قضية فلسطين حية في وجدان الجماهير العربية وعلى المستوى العالمي ، وذلك باستلهام وقائع الصمود والنضال ، وابراز البعد القومي والانساني للمأساة الفلسطينية .

ورأى المؤتمر أن الحرب العراقية الايرانية ، بعد أربع سنوات من اندلاعها ، وصلت الى مستوى من التصعيد بالغ الخطورة ، مما يزيد من آثارها المدمرة على نضال شعوب المنطقة ، ويستنفد قواها ويبدد ثرواتها بحيث لا يستفيد من كل ذلك الا الامبريالية والصهيونية .

ان الأدباء والكتاب العرب الذين يقلقهم هذا التصعيد الخطير للحرب ويثقل ضمائرهم استمرار اراقة الدماء ، يؤكدون عدم جواز استمرارها ، من منطلقات عربية واسلامية وانسانية ، ولايرضون عن احتلال أية أرض بالقوة . ولذا فهم يثمنون استجابة العراق لدعوات وقف القتال ، ويدعون الى تحرك عربي واسع وسريع ، على الأصعدة الرسمية والشعبية جميعاً ، لوقف القتال فوراً والعودة الى الحدود الدولية وحل الخلافات بالطرق السلمية . ويناشدون الكتاب والأدباء في العالم العمل على تحقيق ذلك .

وحيّا المؤتمر نضال المثقفين الوطنيين في مصر ، ضد كل مظاهر وأشكال التطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني ، وضد الغزو الامبريالي الأمريكي للثقافة العربية ، وأبدى تقديره لدورهم ، ولدور لجنة الدفاع عن الثقافة القومية ، ولوقفة مؤتمر أبناء الأقاليم ، ورأى أن التهديدات بالتصفية الجسدية التي توجهها اليهم المنظمات الارهابية الصهيونية ، هي دليل على نجاعة المواجهة التي قاموا بها ضد أشكال التطبيع الثقافي ، وضد سياسات كامب دايفيد في أصعدتها المختلفة ، وضد محاولات سلخ مصر عن أمتها العربية . واذ يعلن المؤتمر دعمه لنضال المثقفين الوطنيين المصريين ، يطالب الأدباء والمثقفين وكل القوى الديمقراطية في العالم ، بالتضامن معهم وادانة ما يتعرضون له من مخاطر ، وخاصة على يد المنظمات الارهابية الصهيونية .



ويدعو المؤتمر الى ازالة بؤر الخلاف والتوتر في الوطن العربي بما يضمن توجيه جميع الجهود ضد العدو المشترك، ويأمل أن تفض قضية الصحراء الغربية في أقرب الآجال .

وعلى الجبهة الثقافية أكد المؤتمر التزام الأديب العربي بالقضايا العربية الكبرى في الوحدة والتحرير والتقدم والعدالة الاجتماعية . كما أكد أن الحرية والديمقراطية هما المناخ الطبيعي الذي يمكن أن يتحقق فيه هذا الالتزام . ومن هنا استنكر بشدة كل أساليب القمع وكبت الحريات التي تمارس في كثير من الأقطار العربية ضد المثقفين والجماهير ، وطالب باطلاق الحريات والافراج عن الأدباء والمثقفين المعتقلين في السجون العربية وازالة كل أشكال الرقابة على الكتب والمجلات ومختلف وسائط البث الثقافي الاعلامي ، كما أهاب بالأدباء والكتاب أن يناضلوا مع الجماهير المكابدة للانتفاض على الطوق الكبير الذي ضرب حول الشعب العربي ليفقده أبسط حقوقه وحرياته . وأكد أن تحرير الأرض ورد العدوان يبدأ من تحرير الشعب ، كما أن حرية المثقف تبدأ من حرية شعبه .

وقد طالب المؤتمر بوجه خاص باطلاق الحريات النقابية للأدباء والكتاب وأكد شرعية كفاحهم لانتزاع هذا الحق ، وأهاب بالحكومات العربية التي لم تسمح بعد باقامة اتحادات للكتاب فيها أن تسارع الى رفع هذا الحيف وأن تتيح لأبنائها المثقفين ممارسة حقهم الطبيعي في التنظيم النقابي ، كما طالب الحكومات العربية أن ترفع الحظر المفروض على التبادل الثقافي بين الأقطار العربية ، وأن تقدم التسهيلات من أجل تطوير هذا التبادل ، وأكد على وحدة الثقافة العربية وضرورة مقاومة كل نزعات التجزئة والتفتيت وأشاد بنضال الأدباء والكتاب العرب في سبيل تثبيت هويتهم الثقافية العربية المعاصرة وبحرصهم على مقاومة رياح الغزو الثقافي والاعلامي وسياسات التهجين والتطبيع .

وفي هذا الصدد أشاد المؤتمر بتجربة اتحاد الكتاب اليمنيين في المحافظة على وحدة التنظيم والموقف ، وطالب أن يكون هذا الاتحاد على المستوى الأدبي الثقافي طريقاً الى الاتحاد الكامل على مختلف المستويات لأن الاتحاد هو أقوى ضمان لصيانة أرض اليمن العربية من محاولات الاعتداء والاقتطاع .

وقد استمع المشاركون الى الأبحاث والدراسات التي قدمت حول الموضوع الرئيسي للمؤتمر بمحاوره :

- لغة الأدب ولغة الاعلام .
- تأثير وسائل الاتصال الحديث على الأدب .
- المواطن العربي بين استراتيجية الأدب وتكتيك الاعلام .
- المشكلات التي تعترض انتاج الأدب في وسائل الاعلام .
- الموقف الثقافي والموقف الاعلامي ، نقاط الالتقاء ونقاط الافتراق .

كما شارك المعنيون من الكتاب بأبحاث ومناقشات لجنتين متخصصتين احداهما بموضوع :
« تجارب الكتابة للطفل في الوطن العربي » .
والثانية بموضوع :
« المشكلات الخاصة بالترجمة الأدبية » .

ومن خلال المناقشات والمداولات التي دارت حول أبحاث المؤتمر ، وجد المشاركون أن المسائل الثقافية والاعلامية لم تول بعدما تستحقه من اهتمام مما يؤثر تأثيراً سلبياً في مسيرة الأدب العربي الذي تتنازعه باستمرار مقتضيات الموقف الثقافي والموقف الاعلامي ، ودعوا الى وضع أساس مشترك موحد للموقفين بحيث يصبان في بحر الأهداف القومية العليا ويسهمان في توعية الجماهير وزيادة مشاركتها في تقرير مصيرها واعلان اختياراتها وممارسة حرياتها ، وفي سبيل ذلك دعا الكتاب الى العناية بتقديم التسهيلات الكافية لانتاج الأدب في وسائل الاعلام ، مما يتيح له أن يشكل استهواء مستمراً ويومياً للجماهير . وقد انتقدت المناقشات انتقاداً شديداً السياسات الاعلامية المطبقة في أكثر البلدان العربية والتي تقدم للجماهير وجهات نظر مغلقة وتجعل وسائل الاتصال وقفاً على السلطة الرسمية .



ودعوا الى توخي الصدق والدقة والالتزام في كل ما يقدم للجماهير من مادة اعلامية ، كما دعوا الى توظيف الامكانات الثقافية والاعلامية ووسائط الاتصال من أجل محاربة التخلف والجهل والتخاذل واشراك أكبر قدر ممكن من الجماهير الواسعة ببناء مستقبلها وثقافتها وتمكينها من الاستفادة من ثمرات المعرفة الحديثة وتطوراتها ٠

كما لاحظ المشاركون في المؤتمر ضرورة القضاء على مفهومات النخبة والتعالي والفردية في الثقافة ، وطالبوا الأدب العربي أن يكون صورة صادقة لوجدان الجماهير وأن يعكس آلامها ومعاناتها وتطلعاتها الاجتماعية والقومية والانسانية ٠

ونبه المشاركون الى أن الاعلام الجماهيري يجب أن لا يؤدي الى الانحدار باللغة العربية أو تشجيع اللهجات الاقليمية بحيث تطغى على الفصحى وطالبوا بتوخي السهولة والبساطة والدقة في التعبير ، ولاحظوا بوجه خاص ما تعانيه لغة الاعلام العربي من ترخص وقصور وضعف ، وطالبوا بأن تسهم وسائل الاعلام في جعل اللغة العربية السليمة قريبة التناول ومستساغة من الجمهور بحيث تصبح غير غريبة على مسامعه ، وأداة طيعة لخدمة معركة حياته اليومية وتلبية حاجاته الروحية ٠

وتدارس المشاركون في الجوانب الأخرى المتصلة بعلاقة الأدب بالثقافة والاعلام ، وأجمعوا على أن توفير التضافر والتنسيق والتفاعل بين هذه الأنظمة المتداخلة أصلا ، تطبيقاً لاستراتيجية مدروسة ، كفيل بأن يجعلها متساندة في نموها ،وأن يقدم للأدب العربي فرصاً أفضل في مراهنته من أجل تدعيم وحدة الثقافة العربية ، والتجاوب مع الهموم والأماني الشعبية ، وخدمة قضايا الوحدة والحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والتقدم ، ودخول مضمار الابداع والابتكار والاشعاع من أوسع أبوابه ، والتفاعل مع تطلعات الانسانية الخيرة ، والاسهام في جعل كل لحظة حياة انسانية على الأرض أكثر خصوبة وأغزر معنى من أية لحظة سابقة ٠

□ توصيات مكملة :

واستكمالا لكل ما سبق اتخذ المؤتمر التوصيات التالية :

١ - تيسير تداول الكتاب العربي ، ومطالبة الحكومات العربية برفع الحواجز التي تحول دون وصوله الى مختلف الأقطار العربية ، ودعمه وتقديم التسهيلات في سبيل نشره وتوزيعه ٠

٢ - الاهتمام بدور المجلات المركزية العربية في وحدة الثقافة العربية، ودعم مجلة «الكاتب العربي» بوجه خاص لتكون مرآة الأدب العربي الحديث٠ وحث المجلات الثقافية في كل قطر عربي على فسح مجال أوسع لنشر الانتاج العربي من مختلف الأقطار ٠

٣ - التنويه باهمية معارض الكتب التي تقام في الكثير من الأقطار العربية بوصفها احدى الأساليب العملية لنشر الكتاب والتعريف به ، ودعوة الحكومات العربية أن تشجع هذا التقليد ، وتعمل على اقامته بشكل دوري ، وتوصية الاتحاد العام وفروعه القطرية بمضاعفة مشاركتها في معارض الكتب وبتنظيم معارض مستمرة لمنشوراتها ٠

٤ - الاهتمام بادب الأطفال وحمايته من المؤثرات السلبية التي تتضارب مع القيم الاجتماعية والوطنية والانسانية ، وتشجيع نشره سواء في المجلات أم في الكتب ، ومراعاة اللغة المناسبة ، ودعم انتشاره في وسائل الاتصال الحديثة كالاذاعة والاذاعة المرئية والسينما ، والاكثار من المسابقات والندوات المتعلقة به وبالابداع الخاص بالأطفال ، والنظر في اصدار مجلة عربية بعنوان « الطفل العربي » أسوة بمجلة « الكاتب العربي » ٠

٥ العناية بقضية الترجمة الأدبية ، وتكوين لجان مسؤولة عن الترجمة في كل اتحاد ، يقوم بينها تنسيق مستمر في اطار الاتحاد العام ، وتتولى هذه اللجان تنشيط حركة الترجمة وتوسيع آفاقها الى مدى أبعد من اللغات المعدودة التي تجرى الترجمة منها الآن ، مع قيام هذه اللجان بتنشيط حركة الترجمة من العربية الى اللغات الأخرى٠

٦ - توصية المكتب الدائم ، بناء على اقتراح لجنة الترجمة ، اقامة ندوة خاصة بالترجمة ومشكلاتها ، وذلك لما تبيَّن من احتياج شديد لمزيد من الدراسات التفصيلية التي تتناول هذا الموضوع ٠

المؤتمر العـام الرابع عشر للاتحـاد العام
للأدباء والكتّاب العرب
الجزائر ٣ ـ ٦/مارس ـ آذار ١٩٨٤

ـ برقيـــة ـ

الأخ/الرئيس الشاذلي بن جديد ، الأمين العام لحزب جبهة التحرير ـ رئيس الجمهورية ٠

بأعمق مشاعر التقدير والامتنان ، يتوجه الأدباء والكتاب العرب لشخصكم الكريـم وللشعب الجـزائري من خـلالكم ، بالتحيـة والشكر على ما لقوه من تكريم ورعاية وعناية أثناء انعقاد المؤتمر العام الرابع عشر للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ومهرجان الشعر السادس عشر على أرض الجزائر البطـلة ، وعلى التسهيلات التي قدمهـا اتحاد الكتـاب الجزائريين ، صاحب المبادرة والدعوة الكريمة لعقد هذا المؤتمر ـ لقد مكنتنا الجزائر مـن تسيير أعمالنا ومؤتمرنا بحرية تامة ، الأمـر الذي وفر له مقومات النجاح ٠

الأخ الرئيس :

ان نضال شعب الجزائر وتضحيات أبنائه ، والدماء الطاهرة التي قدموها لتحـرير الأرض ، وطرد المستعمر ورفع راية النضال والثورة وتكريس استقـلال شخصيـة هـذا الشعب واسقاط أشرس حرب شنت لاجتثاثـه من جـذوره الثقافيـة وانتمائـه للعروبـة والاسلام ، كانت وما زالت نموذجاً يقتـدى ومصدر الهام للكتـاب والأدبـاء وقوة دفـع للمناضلين والمثقفين العرب الذين يحرصون على تحرير الأرض والارادة وابراز الشخصية الثقافية والحضارية للانسان والأمة ٠

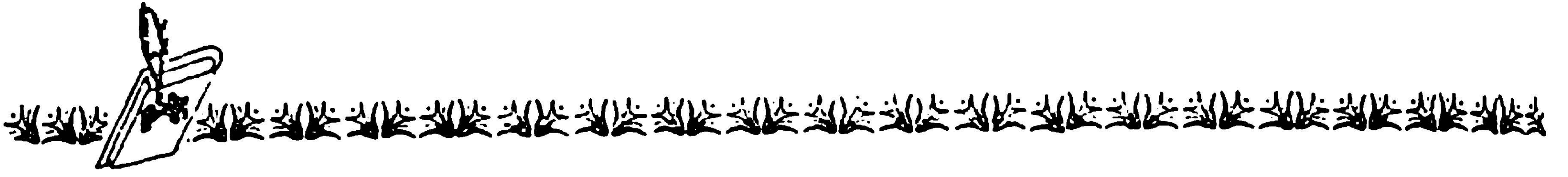
وقد لمسنا اليوم ما حققه شعب الجزائر بقيادة حزب جبهة التحرير وأنتم على رأسـه من انجازات للوطن وللأمة ، هي موضع اعتزاز لنا جميعاً ٠

ونجد أن ما تقدمونـه للكتاب والأدبـاء والحركة الثقافية من دعم وعناية ، يمكنها من تنفيذ سياسة ثقافية عربية اسلامية واضحـة تصمد للغزو وتسهم في تكوين انسان أصيـل معاصر يصنع المستقبل بتواصل مع الماضـي العريق لغة وقيماً وتكوينـاً حضارياً وقوميـاً يستحق التقدير ٠

تحية حارة لكم من الأدباء والكتاب العرب ، وللشعب الجزائري وكتّابه من خلالـكم ، ولتبق الجزائر كمـا كانت ثورة مسـتمرة ، ونصرة للحق العربي في فلسطين خاصة وقوة توحيد للوطن العربي ومنـار اعتزاز للأمـة وأبنائها ـ وفقكم الله وسدد خطاكم ٠

الجزائر في ٦ ـ ٣ ـ ١٩٨٤

المؤتمر العام الرابع عشر
للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب



المؤتمر العـام الرابع عشر للاتحـاد العام
للأدباء والكتّاب العرب
الجزائر ٣ ـ ٦/مارس ـ آذار ١٩٨٤

ـ برقيـــة ـ

الحركة الوطنية اللبنانية ـ الشعب العربي السوري قيادة وجماهير

يحيي المؤتمر العام الرابع عشر للأدباء والكتاب العرب ، المنعقد بعاصمة الجمهورية الجزائرية ، انتصاركم في معركة اسقاط اتفاقية ١٧/مايو ـ أيار ١٩٨٣ الأمر الذي أعاد الثقة الى نفوس الجماهير في قدرة المناضلـين مهما قلّ عددهم ، للنضال الوطني الباسـل ضد قوات الغزو الصهيوني الامبريالي وقوى الحلف الأطلسي ، وهو انتصار يزيدنا ثقـة في قوة وصلابة حـركة التحرر العـربي على طريق اسقـاط كل الاتفاقيـات مع العـدو الصهيـوني الغاصب ، سـواء اتفاقيـة كامب ديفيد أو اتفاقية الصلح .

الجزائر في ٦ ـ ٣ ـ ١٩٨٤

المؤتمر العام الرابع عشر
للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب

وثـائـــق

في الفترة الواقعة ما بين ٣ ـ ٩ آذار ـ مارس ١٩٨٤ عقـد في الجزائر المؤتمر العـام الرابع عشر للاتحـاد العام للأدباء والكتّـاب العرب ، ومهرجان الشعـر السادس عشـر ـ وفيما يلي :

١ ـ **الكلمة التي ألقاهـا الأمين العـام للاتحـاد العـام للأدبـاء والكتـاب العـرب الأسـتاذ علي عقلة عرسان .**

٢ ـ **تقرير الأمين العام الى المؤتمر .**

٣ ـ **البيان الختامي والتوصيات .**

عقد اتحاد كتّاب المغرب مؤتمره الثامن بتاريخ ١١ ـ ١٣ نوفمبر ١٩٨٣ وقد جرت المناقشـات في جو ديموقراطي ، وتم انتخـاب المكتب المركزي للاتحاد على النحو التالي :

الرئيـس	:	**د. أحمـد اليابوري**
نائبـــه	:	**مبـارك ربيـع**
الكـاتـب العـام	:	**ادريـس الناقـوري**
نائبـــه	:	**سـعيد يقطـين**
أمـين الصندوق	:	**أحمـد لمسيـح**
عضو مكلف بآفـاق	:	**ادريـس المليـاني**
عضو مكلف بالفروع	:	**عبد الجبار السحيمي**



وقد حضر المؤتمر السيد الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب ، وألقى الكلمة التالية

كلمة

الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب

السيد رئيس المؤتمر

الزميلات والزملاء كتاب المغرب

جئت ـ رغم قسوة الظروف ـ لأكون بينكم ،معكم ومنكم ، على أرض المغرب العريق شعباً وحضارة ، نضالا وكرامة ، وأنتم تؤكدون فيمؤتمركم الثامن هذا ، بمسؤولية ووعي ، استمرار النهج الديمقراطي المنقذ الذي سار فيه اتحادكم ،وترفعون عالياً نموذج الحوار البناء الذي تتعطش اليه الساحة العربية ، ذلك الحوار الذي يمارس منخلاله مسؤولون في مجالات الفكر والأدب والنضال حقوقهم بحرية تامة والتزام وطني ، قومي وانساني • الحوار الذي ينقل أطرافه الى مواقف ومواقع وحالات من التفاهم والتعاون والتثاقف تقدمالأفضل والأمثل لهم ولشعبهم وحضارتهم ، وتدخلهم في واحات تتسع وتتكاثر عبر صحراء الصراع الدموي المقيت ، والعنف الأعمى ، والكلام الذاتي « المونولوغ » الأناني الذي يحجب عنا الآخرفيؤدي الى الغائه أو تصفيته • ويحجب عنا الحق وحتى الرؤية ، فيصنع لنا رؤى ويخيل أمامنا عوالمهيمتاهات رملية تمتص جهدنا وثرواتنا ، وتلف أجيالنا وأحلامنا وتشرب دمانا دون أن يترك ذلككله أثراً يقود الى الحياة أو معلماً يرتفع بعد الموت •

جئت لأكون بينكم يا رفاق درب الكلمة الشائك ، وأنتم تغرسون جذور القلم عميقاً في تربة الواقع المعيش للجماهير في نضالها ومعاناتها ،وتستمدون نسغ الكتابة الحية من نسغ الحضارة العربية الحية في تراثها وأوابدها وقيمها وانسانهاوتاريخها ، لتعود للكلمة مصداقيتها ومكانتها ودورها في الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعيةالعربية ، بعد أن دجنت كثيراً وهجنت كثيراً وشردت عن محافل الحق وتجمعات الشعب ومواقع الآلاموملابع الأحلام ، وغدا سدنتها وعشاقها في أبأس حال من الاضطهاد والقمع والأرق ان هم أرادواوصل نبض عروقهم بحروفها ، وخلق مجال حيوي من الفعالية والصدق حولهم بتأثير منها يؤدي الىتحرير الرقاب والعقول والقلوب والارادات ليتم تحرير الأرض وتطهير النفوسفي مجتمع يملكرصيد النقاء ولا يطاله ، ورصيد المال ولا ينتفع به، ورصيد القوة ولا يستخدمها ليدفع عنه وعن عقيدتهوأبنائه وارضه وتاريخه أشكال الاستعمار والطمع والقمع •

جئت لأكون بينكم وأنتم تصبون زيت الروحالمقدس بسخاء وايمان في منارة الكشف بالحق والعقل والعلم والايمان ، لتتبدد سجف الظلام التيغطت الوطن الكبير ، وليتم استشراف المنافذ والمخارج عبر صحراء السياسة العربية وأكوامالكلام وركام الآلام نحو مستقبل أفضل للأمة وللانسان الفرد نواة الشعب فيها ، يليق بها ماضياًومستقبلا ، حضارة وعقيدة جغرافية وتاريخاً •

جئت لأقول من هنا وانا بينكم اننا نرفض ،أدباء وكتّاباً ، واقع التمزق والتخاصم والتقاتل الذي يفرضه الحكام والقادة العرب على أمتنا ،نرفض الهزائم التي يصنعونها قبل أن ينفذها الأعداء ، نرفض العنف المسلح طريقاً لحسم الخلافات والصراعات بين أبناء الصف الواحد والأمة الواحدة ، نرفض أن توجه البندقية الفلسطينيةللفلسطيني ـ والعربية للعربي ، والتقدمية



للتقدمي ، ونحمل المسؤولية التاريخية لمن يجعل طريق الدم العربي معبراً وحيداً لحسم الخلافات والصراعات العربية التي قد لا نؤمن بجدواها ،وندعو الى نور الحوار المنقذ القائم على المنطق والوعي والذي يجعل تحرير فلسطين والأرض العربية العربية كلها ، تحرير ترابها وانسانها من أشكال الاحتلال والاستعمار والاستقلال والاستلاب هو الهدف الأسمى ، ومنار الهداية الأوحد ، والمعيار الذي تقاس عليه المواقف والقرارات والنوايا والتصرفات • واننا في ضوء ذلك سوف نحاكم وفي ضوء ذلك سوف نحكم ونكتب ونسجل التاريخ ، وبوحي منه نرفع الصوت ليسمع القاصي والداني ، ولتتحرك الأجيال نحو أهداف نسهم نحن في تحديدها •

اننا ندعو الحكام والقادة العرب الى وقف نزيف الدم وتحكيم العقل والمصلحة القومية في كل صراع وخلاف ، ندعوهم الى انتهاج الديمقراطية سبيلا للحكم وسياسة الجماهير لأنها الضمانة والمنقذ من التردي ، ندعوهم الى احترام الحريات العامة وفي مقدمتها حرية التعبير لأن في الكلمة الصادقة الحرة أبصاراً وبصيرة ، وصوت وعي وضمير يهدي وينير طريق الخير • ندعوهم الى احترام حقوق المواطن في المواطنة والحياة ، والى ايقاف التصفيات الجسدية الحمقاء المقيتة ، والى تفجير طاقات انساننا الخلاقة ، لنعيش عصرنا أمة متقدمة بين الأمم ، ندعوهم الى تنسيق الجهد القومي وطاقات الشعب الكبرى وتسخيرها للتحرير والتحرر والتقدم والبناء على الصعد جميعاً وفي مجالات الحياة جميعاً •

جئت لأقول لكم ان الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب يعتز بكم أدباء وكتاباً أغنوا مسيرة الابداع العربي ، وأصّلوا الشخصية الثقافية للأمة ،ودافعوا عنها ضد أشكال الغزو والتزييف والاجحاف • وكانوا البوابة الأغنى لتفاعل ثقافي ايجابي ، مع ثقافات أوربا وافريقيا ، فأغنوا واغتنوا بتمايز واضح حفظ للشخصية الثقافية العربية هوية كاملة •

وان الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب يحرص على مسيرتكم الديمقراطية ونشاطكم الهام في الحياة الثقافية والأدبية قومياً وانسانياً ،ويمد يد التعاون والدعم لاتحادكم الذي كان وسيبقى من الأعضاء الناشطين والفعالين في مسيرة الاتحاد العام وتكوينه •

جئتكم لأحييكم أجمل وأحر تحية باسم الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ، ولأتمنى لمؤتمركم هذا النجاح التام ، ولاتحادكم اتحاد كتاب المغرب ،التقدم والازدهار ولكل فرد منكم دوام الصحة والسعادة والانتاج بابداع متجدد متطور •

جئت وأنا أقول من أجلي ومن أجلكم « **اللهم ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً** » •

والسلام عليكم

علي عقلة عرسان

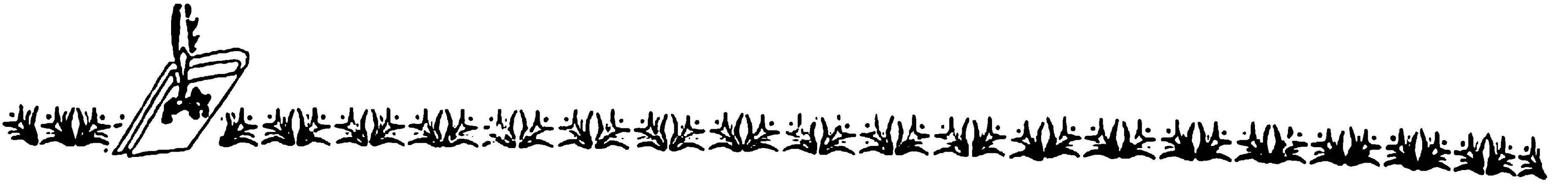
* * *

بيان الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب
حول العدوان الأميركي - الاسرائيلي على سورية وجبهة الخلاص الوطني اللبنانية

يا حملة سلاح الكلمة الموقف ، يا حماة الحق والقيم الانسانية والسلام ، يا رجال الفكر في جميع أنحاء العالم • توالي القوات الأميركية والاسرائيلية استفزازاتها واعتداءاتها على القوات السورية والوطنيين التقدميين العرب في لبنان ، بتنسيق تام فيما بينها يشير الى بدء تنفيذ مخططات التحالف الاستراتيجي الذي أسفر عنه الاتفاق العسكري السياسي الأمريكي الاسرائيلي الرسمي الأخير ، ويترافق ذلك مع تهديدات سافرة من القيادات الأميركية والاسرائيلية على مستويات مختلفة ضد سورية ، وما هذا الذي يحدث الا بداية انطلاق مرحلة جديدة من مراحل العدوانية الأمريكية الاسرائيلية ضد الشعوب وحركات التحرر والحكومات الوطنية في بلدان العالم التي لا تسيطر عليها سيطرة تامة •

ولقد عرفنا جيداً نحن العرب الطبيعية العدوانية النازية لاسرائيل من خلال ممارسات مستمرة في فلسطين وسورية ولبنان والأردن ومصر العربية منذ عام ١٩٤٨ وحتى اليوم ، وكانت آخر المذابح البشعة التي دبرتها الصهيونية ضدنا هي مذبحة صبرا وشاتيلا ، وتأكد للعالم أجمع النزوع التوسعي للاستعمار الاستيطاني لاسرائيل وطبيعتها العنصرية ، وأساليبها الهمجية التي تهدد الانسانية والقيم والسلام العالمي ، ولقد أدانها المجتمع الدولي ومجلس الأمن والأمم المتحدة بذلك كله في احتجاجات وقرارات عديدة ، لدورات متتالية ،وكانت اسرائيل تمارس دورها الاستعماري النازي البشع بدعم عسكري مباشر وغير مباشر ، وبتمويل مادي غير محدود من أمريكا ، وبتغطية اعلامية شاملة تسهم فيها الامبريالية العالمية ،

أما اليوم فأمريكا واسرائيل تمارسان تنفيذ العدوان المباشر علانية وضمن تحالف معلن وعلى شكل غزو واحتلال وقرصنة ، وارهاب دولي مكشوف تماماً ، وبوقاحة لا مثيل لها ، ونحن في هذه المنطقة من العالم ندرك جيداً معاني ومرامي العدوان الأمريكي الاسرائيلي علينا ونعرف المخططات الاستراتيجية الأميركية ودور وقيمة منطقتنا في تلك المخططات • واننا من أرضنا ، من معاقلنا ، ومنابع قيمنا ، وحضارتنا الانسانية ، من وجودنا الذي تمتد جذوره عميقة في تاريخ النضال من أجل الحق والسلام العادل ، ندافع مهما كان الثمن عن أنفسنا من العدوان والاحتلال والعنصرية الفاشية والتحجر التاريخي التي تمثلها الصهيونية وطليعتها اسرائيل وضد القوة الوحشية المتغطرسة للامبريالية الأميركية ، تلك التي تريد ، وبكل الوسائل ، أن تبسط سيطرتها على العالم ، ولو أدى ذلك الى جره للحرب ، بكل ما تحمله الحرب في هذا القرن من تهديد بالابادة التامة للبشرية والحضارة الانسانية بل وللحياة على الأرض •



ان ايماننا – نحن العرب – بعدالة قضيتنا ،وبانتمائنا لتاريخ النضال ضد الظلم والعدوان والتبعية والهمجية ، وان تمتنا غير المحدودة بأمتنا العربية وثبات عقيدتها وقيمها الحضارية ، والانسانية الخيرة وحرصنا على استقلالنا وكرامتنا، كل ذلك يدفعنا الى التصدي للغطرسة العسكرية الأمريكيه الاسرائيلية ، مهما كانت التضحيات التي يدفعها شعبنا ، ولن نسمح لحبرة التزييف الطويلة والكبيرة التي يملكها الأمريكيون، والاسرائيليون، بأن نقلب المفاهيم وتعتبر نفسها وهي على أرضنا ،وفوق مواقع قواتنا المسلحة في حالة دفاع مزعوم عن النفس، ان هذا الادعاء فضلا عن كونه هزءاً صريحاً واستخفافاً مستهجناً بالرأي العام وبالعقل البشري هو محاولة مكشوفة لتبرير القرصنة الدولية والارهاب القذر والعدوان الواضح والرامي الى الاحتلال وبسط النفوذ الاستعماري الأمريكي على الأرض ٠

وان الخطة الأمريكية الرامية للدخول الى هذه المنطقة واحتلالها تحت غطاء حفظ السلام وفي اطار القوة المتعددة الجنسيات غدت عارية وتلحق العار بالحلفاء الذي يشاركونها اذا لم يبادروا الى اتخاذ مواقف من ممارسات أمريكا العدوانية ، التي قررت بالاتفاق مع اسرائيل أن تقضي على صمود الأمة العربية بوجه مخططاتها ، ذلك الصمود المتجسد في موقف سورية ومواجهتها لاتفاقية كامب ديفيد ، واتفاقية الاذعان المفروضة على الشعب اللبناني في ١٧ أيار عام ١٩٨٣ ، وفي تصديها للحلول والمشاريع الاستسلامية والتصفوية المطروحة لتصفية القضية الفلسطينية ، وحماية اسرائيل ٠ وأمريكا تعرف جيداً أن سورية هي العقبة الوحيدة في وجه نفوذها وخططها ومشاريعها ، وتعرف أن في القضاء على قوة سورية قضاء على قوة العرب في مواجهة اسرائيل وفرض للحلول التي تريدها أمريكا عليهم ، وبسط ليد اسرائيل على المنطقة بكاملها ٠

ولكن أمريكا لم تدرك جيداً أن قوة سورية هي قوة شعب وقوة أمة ، هي قوة حركة التحرر العربية، وحركة التحرر في العالم ، هي قوة الحق وقوة الشعب التي لا تقهر ، وقوة أصدقاء الحق والعدل والسلام في العالم ٠

ان أمريكا واسرائيل وهما اللتان تحتلان أرضنا في لبنان وفلسطين وسورية واللتان تمارسان العدوان بأساطيلهما البحرية والجوية وبجيوشهما المتحشدة فوق الأرض العربية ، وبسياستهما الاستعمارية العنصرية النازية القذرة مسؤولتان عما يجري ، وتتحملان التبعة التاريخية كاملة أمام البشرية والتاريخ عن جر العالم الى حرب لا يعرف أحد مدى فداحة نتائجها ٠

ان الكتاب والأدباء العرب يدعون الأدباء والكتاب والمفكرين والعلماء والسياسيين والمسؤولين والمناضلين الشرفاء في كل أنحاء العالم الى الوقوف مع نضال أمتنا العادل ضد الاحتلال والعدوان والقرصنة والارهاب ، ضد مشعلي نار الحروب وتجار الانسان والقيم ، ضد أمريكا واسرائيل والصهيونية العالمية ويدعونهم الى فضح مخططات أمريكا وممارساتها التي تهدد العدل والسلام ، والى ادانة الغطرسة العسكرية الأمريكية الاسرائيلية وعدوانها المستمر ضد سورية وجبهة الخلاص الوطني اللبنانية والثورة الفلسطينية وفصائل حركة التحرر في الوطن العربي والعمل على وضع حد لروح النازية الجديدة هذه قبل أن تدمر السلام وتزرع الرعب في كل درب من دروب أرض البشر ٠

دمشق في ١٩٨٣/١٢/٦

الأمين العام للاتحاد العام
للأدباء والكتاب العرب
علي عقلة عرسان

بيان الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب حول الأحداث في طرابلس - لبنان

وسط موجة الأخبار المروعة عن احتدام القتال بين أبناء الثورة الفلسطينية في منطقة طرابلس لبنان ، لا يسع الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب الا أن يعلن الى جماهير أمتنا العربية استنكاره لحل مشكلات الثورة الفلسطينية باستعمال العنف المسلح واستهجانه اراقة الدماء البريئة وهدر الجهود والطاقات التي ينبغي أن توجه جميعاً ضد العدو الصهيوني الغاصب المحتل • وان الأنباء المتوالية عن القصف الجنوني والتدمير وسقوط مئات الضحايا ـ ولا سيما من المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين لتحز في نفوس جميع الأدباء والكتاب العرب وتدمي قلوبهم وتجرح كبرياءهم القومي ، ولا سيما في هذه الفترة العصيبة من حياة أمتنا العربية التي تتالى فيها أنباء الحشود الامبريالية والصهيونية والتي يحاول فيها أعداء الأمة العربية أن يحطموا صمودها وينالوا من وجودها ويجثموا على أرضها الطاهرة •

اننا نتوجه الى جميع المقاتلين الشرفاء بأن يرفضوا رفضاً قاطعاً توجيه السلاح الى صدور رفاق دربهم وأخوة ثورتهم وأن يجعلوا الحوار الهادىء البناء سبيلهم الى حل المشكلات المعلقة وارساء أسس ثابتة للتفاهم كما نهيب بالمسؤولين الفلسطينيين والعرب جميعاً أن يقدروا الظرف الصعب التي تمر به القضية الفلسطينية وأن يرتفعوا فوق الاعتبارات الخاصة والعابرة وأن يعيدوا التأكيد بالقول والعمل أن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية لأمتنا العربية ، وأن جميع الجهود والطاقات يجب أن تحشد في سبيل تحرير فلسطين والأراضي العربية المحتلة والتحقيق الفوري لانسحاب العدو الصهيوني المحتل والقوات الأميركية الغازية من لبنان • كما نهيب بالجميع أن يعملوا ويسعوا ولا يدخروا جهداً في سبيل أن تتوجه جميع البنادق الفلسطينية بخاصة والعربية بعامة الى صدور الأعداء والغاصبين لا الى صدور الأشقاء ورفاق الكفاح والنضال •

ونحن نحمل كل من يستخدم العنف المسلح المسؤولية التاريخية الكاملة ، لأن المستفيد الوحيد من كل ذلك هو العدو ، وندعو جميع القوى الوطنية العربية والمسؤولين والكتاب وجماهير شعبنا للالتفاف حول القضية الفلسطينية بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني والى مواصلة الكفاح ،دون هوادة من أجل تحرير الأرض وتمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقوقه الوطنية الراسخة فوق تراب الوطن وفي مقدمتها حقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني المحرر •

ان الأمة العربية مدعوة للتحرك الفوري والجدي من أجل وقف اراقة الدماء والحفاظ على مكتسبات الثورة واعادة الطمأنينة الى جماهير شعبنا المروعة التي نذرت نفسها للكفاح والتحرير•

دمشق في ١٩٨٣/١١/٨

الأمين العام

علي عقلة عرسان

المؤتمر العام الرابع عشر
للأدباء والكتاب العرب

في الفترة الواقعة ما بين ٣ ـ ٦/آذار ـ مارس ١٩٨٤ وعلى أرض الجزائر البطلة ، أرض الشهداء ٠٠٠ عقد الأدباء والكتاب العرب مؤتمرهم الرابع عشر في الجزائر ـ العاصمة ، وذلك بمبادرة ودعوة من اتحاد الكتاب الجزائريين ٠ وقد عقد هذا المؤتمر تحت شعار « **الأدب العربي بين الثقافة والاعلام** » ٠

وافتتح المؤتمر أعماله في قصر الأمم ، برعاية كريمة من الأخ الرئيس الشاذلي بن جديد ، الأمين العام لحزب جبهة التحرير الوطني ـ رئيس الجمهورية ـ وناب عنه في حفل الافتتاح الأخ باقي بو علام عضو المكتب السياسي ـ وزير العدل ٠ ثم استمع الحضور الى كلمات من :

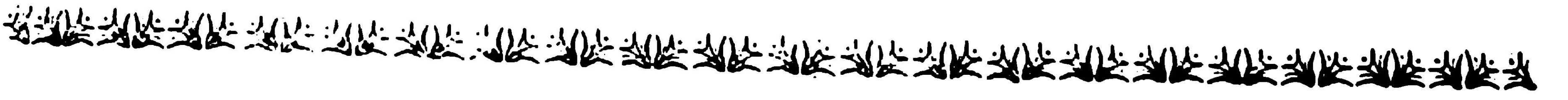
- **الأخ الدكتور محمد العربي الزبيري رئيس اتحاد الكتاب الجزائريين ٠**
- **الأخ الأستاذ علي عقلة عرسان الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ٠**
- **الأخ الأستاذ عبد المجيد مزيان وزير الثقافة والسياحة ٠**
- **الأخ الأستاذ محمد صالح الجابري ممثل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ٠**

وقد تولى الدكتور محمد العربي الزبيري (البلد المضيف) رئاسة المؤتمر ، والأستاذان ادريس الناقوري من المغرب ، ومحمد الجزائري من العراق ، أمانة السر ٠

وشارك في أعمال هذا المؤتمر ، وفود من اثني عشر قطراً عربياً ، وألقى رؤساء الوفود كلمات بلادهم ـ واذ كان المؤتمر يعقد في فترة حرجة من تاريخ الأمة العربية ، فان كلمات المشاركين قد عكست هذا الواقع بوضوح ٠ لأنه من غير المعقول أن يتحاور الأدباء في الأدب ، دون أن يتناولوا الأحداث الساخنة التي تشهدها الساحة العربية ٠٠٠ ودور الأدب والأدباء في هذه الأحداث ـ ومن هذا المنطلق ، تركز الاهتمام حول مجموعة من القضايا ، كان لها المقام الأول لدى المشاركين :

١ ـ مضاعفة الجهود الثقافية القومية ، بحيث تكون الثقافة طليعة المعركة التي تخوضها الجماهير العربية ضد الهجمة الصهيونية الامبريالية على الوطن العربي ٠

٢ ـ الثقافة والاعلام العربيان ، ما يزالان عرضة للغزو الأجنبي الذي يرمي الى تسخيرهما لمصلحته ومن هنا يتبين لنا أهمية المسؤولية الملقاة على عاتق المثقف العربي عامة ، والأديب خاصة ٠



٣ ـ وجوب التوجه الى الجماهير العربية ومعالجةقضاياها والالتحام بها ، والا أصبح الأدب ملهاة •

٤ ـ ان الثقافة والاعلام العربيان ، يخضعان للسياسة التي تضعها أنظمة الحكم ، ومن هنا تبرز ضرورة ممارسة الأديب لحريته ، ليكون قادراً على التأثير في الأحداث محققاً انتماءه لثقافةعربية واحدة موحّدة •

وفي تقريره المقدم الى المؤتمر ـ أكد الأمين العام الأستاذ علي عقلة عرسان ، أهمية المؤتمرات الأدبية السابقة وأهمية هذا المؤتمر بالذات ، وذلك في ضوء الواقع العربي وفي ظل الأحداث المصيرية الراهنة : فقد عمل الاتحاد العام ويعمل على وضع سياسة ثقافية عربية في اطار انتماء الأديب العربي لأمة واحدة وتراث واحد ، والتزامه بمسؤولياته على مستوى الوطن العربي كله ـ كما أكد حرص الاتحاد على اعلان مواقفه في الساحات الساخنة للأحداث وعلى التواجد باستمرار في اللقاءات والندوات والاجتماعات الثقافية ، عربياً ودولياً ـ واذا كان الواقع العربي المجزأ الى سياسات متباينة، والى توجهات قطرية في السياسات الاعلامية والثقافية ، قد حال ويحول دون أداء الاتحاد العام لدوره بشكل أفضل ، فان الاتحاد ، وعلى الرغم من ذلك ، ظل يعمل في مستوى من الوعي القومي والمسؤولية التاريخية ، الأمر الذي جعله يحافظ على تماسكه ووحدته وعدم تبعيته للتكتيك السياسي القطري الضيق • واننا لنأمل (كما قال الأمين العام) أن تكبر هذه الواحة لتصبح عاملا حقيقياً ينير العقول على طريق تحقيق الأهداف الكبيرة التي تنشدها أمتنا ويعمل اتحادنا على تحقيقها •

وحول **الموضوع الرئيسي للمؤتمر** : « الأدب العربي بين الثقافة والاعلام » ألقى المشاركون خمسة وعشرين بحثاً ، تندرج في معظمها تحت العناوين التالية :

١ ـ بين لغة الأدب ولغة الاعلام •

٢ ـ تأثير وسائل الاعلام في طبيعة الانتاج الأدبي والثقافي •

٣ ـ الصعوبات التي تعترض الانتاج الأدبي في وسائل الاعلام •

٤ ـ الثقافة والاعلام : نقاط الالتقاء ونقاط الافتراق •

٥ ـ الأدب والصحافة •

وبالاضافة الى الموضوع الرئيسي ، فقد عالجت اللجان المختصة الموضوعين التاليين :

١ ـ تجارب الكتابة للطفل في الوطن العربي •

٢ ـ المشكلات الخاصة بالترجمة الأدبية •

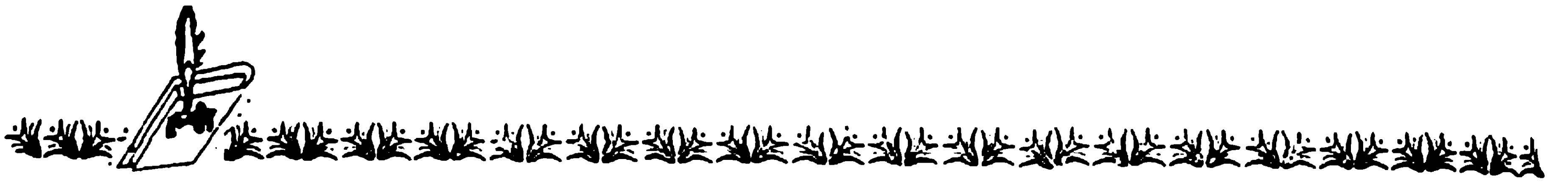
وفي مجال الأعمال الادارية والقرارات ، تم مايلي :

أولا ـ اقرار خطة نشاط الاتحاد العام لعامي ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥ وقد تضمنت هذه الخطة اضافة الى نشاط المكاتب ، اقامة الندوات التالية :

١ ـ ندوة الثقافة العربية في فلسطين المحتلة (دمشق ـ تموز ٨٤) •

٢ ـ ندوة الأدب والأدباء في مواجهة النزعات الانعزالية والاقليمية في الثقافة العربية • (طرابلس ـ ليبيا ـ تشرين الثاني ١٩٨٤) •

٣ ـ ندوة النقد والابداع (الرباط ـ المغرب/آذار ١٩٨٥) •



٤ ـ **ندوة أزمة الديمقراطية في الوطن العربي** وانعكاساتها على الأدب (بيروت ـ لبنان/ تشرين الأول ١٩٨٥) ٠

ثانياً : اقرار جائزة الاتحاد العام باسم « جائزة بيروت » وذلك تخليداً للنضال البطولي الذي خاضته بيروت ضد الغزو الصهيوني الامبريالي ٠

ثالثاً ـ الانتخابات :

انتخب المؤتمر الأستاذ علي عقلة عرسان أميناًعاماً للاتحاد للدورة القادمة ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥ بالاجماع ـ وانتخب الأستاذ يحيى يخلف نائباً له ـكما انتخب الأمناء المساعدين على الوجه التالي :

١ ـ أمين الشؤون التنظيمية : اتحاد الكتاب العرب ـ سورية ٠

٢ ـ أمين العلاقات الخارجية : اتحاد الكتاب الجزائريين ٠

٣ ـ أمين الحريات : اتحاد الكتاب التونسيين ٠

٤ ـ أمين النشر والاعلام : اتحاد الكتاب اللبنانيين ٠

٥ ـ أمين الشؤون الثقافية : رابطة الأدباء والفنانين في الجماهيرية العربية الليبية ٠

رابعاً ـ مكان المؤتمر العام الخامس عشر ،ومهرجان الشعر السابع عشر : وقد قرر المؤتمر قبول الدعوة المقدمة من الاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين لاستضافة المؤتمر والمهرجان في بغداد٠

وقد أصدر المؤتمر بنهاية أعماله بتاريخ ١٩٨٤/٣/٦ بياناً ختامياً وتوصيات عامة تنشرها الكاتب العربي مع بعض كلمات حفل الافتتاح والوثائق ٠

* * *